افاناسييف



في الشيوعية العلمية

مؤسسة ١٤ أكتوبر
عدن

مؤ ارابي دار الفارابي

في الشيوعية العلمية

تأليف آفاناسييف

ترجمة عبد الرزاق الصافي

١٩٧٩

دار الفارابي

دار الفارابي ص.ب. ٣١٨١ بيروت
الطبعة الرابعة تموز ١٩٧٩

<u>تنبيه من مكتبة الشيوعيين العرب!</u>

هذا الكتاب ليس من نسخ الصوت الشيوعي، بل نسخه الى الإنترنت آخرون. وقد وجده الصوت الشيوعي أثناء بحثه في الإنترنت .... .

قامت مكتبة الشيوعيين العرب بـ "تطهيره" من أفكار شيوعية الخائن خروشوف المزيفة من خلال:

١) حذف وإزالة الفقرات والجمل ذات العلاقة؛

٢) حذف بعض الصفحات ذات العلاقة؛

٣) إعادة صياغة بعض الفقرات والجمل بما يتفق والنهج الماركسي – اللينيني الثوري؛

٤) حذف بعض العناوين وإزالتها من مكانها ومن فهرس الكتاب؛

٥) إعادة صياغة بعض العناوين من مكانها ومن فهرس الكتاب؛

٦) اضافة ملاحظات توضيحية من خلال استعمال خيار "اضافة نص" وخيار Sticky Notes، اللذان يتيحهما برنامج محرر ملفات PDF.

لذا اقتضى التنويه.

الصوت الشيوعي

مقدمة

لقد أصبحت الاشتراكية منذ أمد طويل مطمح الجماهير الشعبية الواسعة في بلادنا الأمر الذي دفع بالكثير من العناصر الوطنية الثوريـة إلى تبني شعار الاشتراكية .

ورغم ان الاشتراكية لم تعد ، منذ أكثر من نصف قرن ، نظريـة علمية فقط بل واقعـاً تعيشه شعوب كثيرة ، فإن التعرف على المفاهيم الاشتراكية من منابعها الأصلية في الفكر الماركسي اللنيني وعرضها بأسلوب مبسط يستهوي القارىء مقرونة بتطبيقات حية تمثل تجارب الشعوب التي سبقت غيرها للسير في طريق الاشتراكية يظل ضرورة كبيرة في أوضاعنا الراهنة .

وهذا الكتاب الذي نضعه بين يدي القارىء اليوم هو الفصول الستة الأولى من كتاب « الشيوعيـة العلمية » للكاتب السوفيتي ف. افاناسييف تناول فيه الاشتراكية باعتبارها الطور الأول للمجتمع الشيوعي ، شارحـاً القوانين العامة لبناء الاشتراكية وتنوع أشكال هذا البناء والمرحلة الانتقالية من الرأسمالية إلى الاشتراكية ، والمجتمع الاشتراكي وتنظيمه السياسي : ودور الحزب الماركسي اللنيني كطليعة للشعب في هذا المجتمع وثقافتـه ومكانة الفرد فيه ، وعن خصائص الانتقال من الاشتراكية إلى الشيوعية .

وقد أعار المؤلف جـــل اهتمامه للتجربة السوفييتية في بناء الاشتراكية وهي أول وأغنى تجربة . المعين الذي نهل منه الاشتراكيون العلميون في شتى بلدان المعسكر الاشتراكي عند بناء الاشتراكية في بلدانهـــم التي يعيش فيها الآن ثلث البشرية .

واننا إذ نضع هذا الكتاب بين يدي القراء فبأمل يستفيد منه كل الثوريين المخلصين الذين يريدون حقاً انقاذ شعبنا من مخلفات الماضي البغيض والسير به نحو درب الاشتراكية النير .

مقدمة المؤلف

ان الكتاب المبسط الذي بين يدي القارىء يمثل عرضاً منتظماً لأسس الشيوعية العلمية . ويبحث فيه بالتتابع : ظهور وتطور الشيوعية العلمية ، والمهمات الأساسية الثلاث للبناء الشيوعي – انشاء القاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية ، وتكوين العلاقات الاجتماعية الشيوعية وتربية الانسان الجديد ، وخصائص العملية الثورية المعاصرة .

وان عدداً من المسائل التي يبحثها هـذا الكتاب (مثلاً عن مبادىء القيادة العلمية للبناء الشيوعي ، وعن تطور احتياجات الإنسان وغيرها) ، لم تجد حتى الآن عرضاً كافياً في المراجع .

والكتاب مخصص لكل الذين يهتمون بنظرية الشيوعية العلمية .

ماذا تبحث نظرية الشيوعية العلمية ؟

لقد أقامت جهود جماهير الشغيلة انتاجاً متقناً راقياً ، وخلقت علمـاً وتكنيكاً يتطوران بوتائر لم يسبق لهـا مثيل . وان مستوى تطورهما قد ارتفع لدرجة حققت فيها البشرية سيطرة كبيرة على قوى الطبيعة ، اعطتها امكانية واقعية لتؤمن بشكل كامل حاجات جميع الناس على وجه الأرض ، المادية منها والثقافية . ويقدر الاختصاصيون بأن كوكبنا الآن قادر على

ضمان حياة غنية لكل سكان الأرض إذا ما استخدمت كل القدرات الانتاجية ومنجزات العلم والتكنيك كما ينبغي طبعاً .

فما العمل إذن ؟ ومن المسؤول عن واقع ان واحداً بالعشرة فقط من سكان العالم غير الاشتراكي يحصل على طعامه بشكل اعتيادي في حين يبقى التسعة الآخرون دون شبع ، وان ما يقرب من نصف السكان الراشدين على وجه الأرض لا يعرفون القراءة والكتابة ؟ ومن المسؤول عن أنهار الدماء التي اريقت وتراق الآن في الحروب التي لا مبرر لها لصالح حفنة ضئيلة من الناس وعما يخيم على الأرض من غيوم الانفجارات النووية المرعبة التي تسلب ظلالها البسمة من وجوه الناس ، وعن ان التحضير للحرب النووية المدمرة يستنزف مبالغ طائلة . ومن المسؤول عن أن أروع ابداعات الطبيعة؛ الانسان الموهوب بمختلف القابليات الخلاقة لا يزال محروماً في أجزاء كثيرة من الأرض ليس فقط من امكانية اظهار هذه القابليات وإنما يعاني الانسحاق من الاستغلال والظلم الاجتماعي ويدمره الجوع والأمراض ويختنق بين براثن البطالة والبؤس والغلاء ، من المسؤول عن واقع ان في العديد من البلدان التي تفتخر بغطرسة بحضارتها ، ينظر إلى البشرة السوداء على اعتبار انها مظهر من مظاهر نقص الانسان ؟ ومن المسؤول عن أن جزءاً من البشرية كان قد تعرض للنير المخزي للكولونيالية ، هذا النير الذي لا يزال ينوء تحته حتى يومنا هذا عشرات ملايين الناس ؟

ان المسؤول عن كل هذا هو الرأسمالية التي قادت التضاد بين الفقر والغنى إلى حده الأقصى وجعلت من الحروب والعبودية الاستعمارية والعنصرية سياسة رسمية ، وبذرت أموالاً وجهوداً لا حصر لها لصالح حفنة من الاحتكارات ، وحقرت الانسان الكادح مستخدمة أكثر من مرة أحدث منجزاته في العلم والتكنيك على الضد من صالحه .

فلأجل استخدام الثروات الهائلة التي تتمتع بها البشرية ، ولأجل استغلال القدرات الانتاجية الضخمة ، والمنجزات المرموقة في العلم والتكنيك المعاصرين لصالح الشغيلة ، لا بد من ظروف اجتماعية محددة . لا بد من القضاء على الرأسمالية المكروهة من قبل الشعوب ، واقامة مجتمع جديد على الأرض ، هدفه الأسمى والوحيد هو أن يؤمن لكل الناس حياة انسانية حقيقية سعيدة ، حرة مجتمع يخلص البشرية إلى الأبد من الحروب والتبذير .

وهذا المجتمع الجديد هو الشيوعية . وان العلم الذي يعطي صورة متكاملة عن الشيوعية وقوانين نشوئها وتطورها يسمى نظرية الشيوعية العلمية .

لنبحث هذا التعريف القصير بشيء من التفصيل .

ان أي مجتمع طبقي متناحر لم يستهدف التطوير الشامل للانسان الشغيل . فالشغيل في مجتمع كهذا أداة لتحقيق أهداف أخرى ، كالحصول على أقصى الأرباح كما هو الحال في الرأسمالية مثلاً . وفي الشيوعية فقط يصبح الانسان الشغيل « هدفاً بذاته » للتطور الاجتماعي (كارل ماركس) . ونظرية الشيوعية العلمية تكشف الشروط (الاقتصادية والاجتماعية والروحية) التي بها فقط يمكن ان يتحقق التطور الشامل المتناسق للانسان والتعبير الأكمل والأكثر حرية عن جميع ظواهره الحيوية .

ولكن قبل ان تخلق ظروف ازدهار الانسان يتوجب القضاء على النظام الاجتماعي القديم ـ الرأسمالية . وهذا يعني ان نظرية الشيوعية العلمية تبحث مسألة الاطاحة بالرأسمالية بصورة ثورية وخلق المقدمات ، عن هذا الطريق ، لتحرير الانسان . ان الشيوعية العلمية تدلل على الحتمية التاريخية لفناء الرأسمالية الناشيء عن نشاط القوانين الموضوعية الملازمة لها وتناقضاتها الداخلية . والشيوعية العلمية تكشف القوى الثورية التي تقوض وتقلب

الرأسمالية وتشير إلى الثورة الاشتراكيـة ودكتاتورية البروليتاريا كوسيلة ضرورية لتصفية المجتمع الرأسمالي القديم .

ان مسألة الاطاحة الثورية بالرأسمالية تحتل مكاناً هاماً في نظرية الشيوعية العلمية . ولكن الاطاحة بالرأسمالية تجري في الواقع لتمهيد التربة للمجتمع الجديد ـ الشيوعية . ومن هنا تبرز مهمة أخرى هامة للشيوعية العلمية هي دراسة قوانين اقامة المجتمع الشيوعي ودراسة هذا المجتمع نفسه كتركيب اجتماعي معقد . وفي مركز المجتمع الشيوعي يقف الانسان بكل علاقاته المتنوعة وقابلياته ، مواهبه واحتياجاته وامكانياته الابداعية والجسمية ، وليس صدفة ان يكون الشعار البرنامجي الأساسي لحزبنا هو الفكرة الانسانية العظمى : « كل شيء باسم الانسان ولخير الانسان » . وطبيعي فإن علم المجتمع الذي يقف الانسان في مركزه لا يمكن إلا ان يكون علم اقامة الظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لخلق الانسان المتطور من جميع النواحي . ان نظرية الشيوعية العلمية تبحث الانسان بأن تعمم وتؤلف بين الحقائق العلمية الموجودة عنه حالياً كذات للعمل والعيش والمعرفة ، كحلقة في نظام اجتماعي ، وكحلقة في نظام الطبيعة .

ان نظرية الشيوعية العلمية تبحث كذلك الاقتصاد ـ الانتاج المادي ، التبادل والتوزيع والاستهلاك في ظروف المجتمع الشيوعي ـ ولكن فقط بالمقدار الذي تخدم به الانسانية كشروط اقتصادية لتطوره الشامل . وهي تبحث كذلك العلاقات الاجتماعية والحياة الروحية في المجتمع ، وهنا أيضاً تبحثها (كظرف) كشرط للتطور الاجتماعي والروحي (الثقافي) ، وكمظهر لنشاطه الخلاق .

ان الشيوعيـة تبحث النظام الاجتماعي ـ الاقتصادي الشيوعي ككل مترابط ، وفي وحدة بين جوانبه الاقتصادية والاجتماعية والروحية وتوجه اهتماماً خاصة للكيفية التي « يعمل » بها كل جانب من هـذه الجوانب

منفرداً وكلها مجتمعة ، لأجل الإنسان ، وتساعد على الوصول إلى الهدف الاسمى للتطور الاجتماعي .

ان المجتمع يتطور بقوة فعل قوانين موضوعية. ولكن فعالية استخدام القوانين هي في آخر الأمر تتعلق بالناس أنفسهم وبعمق تغلغلهم في جوهر الظواهر الاجتماعية واندفاعهم في تحقيق أهدافهم ومدى تنظيمهم . وان تطور المجتمع يمثل بالتالي التحاماً معقداً وتفاعلاً بين القوانين الموضوعية والعامل الذاتي .

ولغرض الوصول إلى الوحدة بين الشروط الموضوعية والعامل الذاتي لتطور المجتمع لا بد لجماهير الشغيلة ان تعرف القوانين الموضوعية وان تستوعب الكيفية التي تنشط بها هذه القوانين ، ومن الضروري ان تتعلم كيفية التوفيق بين نشاطها ومتطلبات تلك القوانين ، وان يجري توجيه تنظيم الناس نحو استخدام القوانين بصورة أكثر فعالية لصالح الانسان .

ومن هنا تنبثق مهمة أخرى هامة لنظرية الشيوعية العلمية – وهي البحث عن طرق ووسائل إلى التوفيق بين النشاط الذاتي للناس ومتطلبات القوانين الموضوعية ؛ طرق ووسائل استخدام القوانين لصالح الانسان . واستناداً إلى معرفة القوانين الموضوعية تشير نظرية الشيوعية العلمية إلى الميول التقدمية في تطور المجتمع ، أو إلى حلقاته المنفردة وتوجه وتضبط حركة المجتمع بالانسجام مع هذه الميول وتكشف العقبات التي تعيق الوصول إلى هذا الهدف أو ذاك وتساعد الناس على ازالة هذه العقبات . وبكلمة أخرى فإن نظرية الشيوعية العلمية تبحث عملية القيادة الواعية الهادفة ، وتوجيه العمليات الاجتماعية وتنظيم البناء الشيوعي .

وهكذا فإن الشيوعية العلمية هي علم طرق ووسائل القضاء على الرأسمالية ، وقوانين خلق المجتمع الشيوعي الجديد والشروط الاقتصادية والاجتماعية والروحية لتطور الإنسان الشامل ، علم المجتمع الشيوعي كتركيب

اجتماعي معقد ، علم القيادة الواعية الهادفة للعمليات الاجتماعيـــة لصالح الانسان .

وفي هذا بالضبط تكمن خاصية الشيوعيـــة العلمية كجزء مكون من الماركسية اللنينية ووجهها المميز لها عن الأجزاء الأخرى ــ الفلسفة الماركسية والاقتصاد السياسي الماركسي .

ويجب ان نشير هنا بأن نظرية الشيوعية العلمية ، وكذلك الماركسية اللنينية ، لم تظهر في الفراغ . انها ورثت الأفكار الشيوعية في الماضي ، الأفكار التي خلقتها على مر القرون أرقى عقول البشرية . ولذا يجب ان نبحث ولو باختصار تاريخ الفكر الشيوعي في الماضي وان نتعقب طريق حركته من طوبوية إلى علم .

الفَصلُ الأوّل

من طوبوية الى علم

١ ـ الاشتراكية الطوبوية[1] ومكانتها التاريخية

خلال القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر حلت الرأسمالية مكان الاقطاعية في العديد من بلدان أوروبا ، وسببت تطوراً عاصفاً في الانتاج والتكنيك والعلوم الطبيعية . وظهرت مكان المشاغل الحرفية والمانيفاكتورات معامل ومصانع ومناجم ومناطق تعدين . وتراجعت القوة العضلية للإنسان وقوة الماء والهواء أمام قوة البخار الجبارة ، ومن ثم أمام الكهرباء . وفي فترة زمنية قصيرة نسبياً لا تزيد على قرنين أو ثلاثة تحقق في ظل الرأسمالية تطور للإنتاج أكبر بكثير مما تحقق في كل تاريخ البشرية السابق للرأسمالية . ولكن الرأسمالية لم تسعد حظ الانسان الشغيل : فالاستغلال في ظلها بقي ليس أقل قسوة ولاانسانية مما كان عليه في ظل العبودية والاقطاعية . وأكثر من هذا فقد وجدت بقايا اقطاعية قوية ، وكثيراً ما

---

١ من الكلمة اليونانية « أو » – نفي و « طوبوس » – مكان . وكلمة طوبوية تعني مكان لا وجود له .

كان النير الرأسمالي يضاف إلى النير الإقطاعي . ونتيجة لهذا ازداد تذمر الجماهير واشتد النضال الطبقي . ولم يكن من الممكن الا أن تنعكس هذه التغيرات الاجتماعية في الحياة الفكرية للمجتمع . وظهرت تعاليم اشتراكية عكست احتجاج الجماهير الشعبية ضد النظام الاجتماعي القائم ، وكانت الفكرة المركزية في هذه التعاليم هي فكرة الانسانية — احترام الانسان ورعايته .

ان من أول الاشتراكيين الطوبويين رجل الدولة والمفكر الانكليزي توماس مور (١٤٧٨ — ١٥٣٥) . فمنذ بداية نشوء الرأسمالية أفلح توماس مور في ادراك جوهرها الاستغلالي ورأى أن المجتمع الرأسمالي غير قادر على أن يضمن حياة انسانية حقيقية للشغيلة ، وأنه يمثل « مؤامرة من جانب الأغنياء الساعين لتحقيق مصالحهم الذاتية تحت اسم الدولة وشعارها » ان هذا المجتمع لا يبدي أية رعاية للفلاحين وعمال المناجم والعمال الزراعيين والحوذيين والعمال الذين بدونهم لا يمكن أن يوجد مجتمع . كما يرى مور : أن الأغنياء « يختلقون ويخترعون شتى الطرق والحيل .. لكي يشتروا بأبخس الأجور عمل وجهد جميع الفقراء وأن يستغلوهم كماشية الحمل » .

لقد توصل توماس مور — وهذه خدمته الكبرى — في كتابه « أوتوبيا » إلى الاستنتاج بأن المساواة بين الناس وسعادتهم وتطور خصائصهم الجسدية والذهنية وكذلك العدالة الاجتماعية والادارة الصائبة للعمل الاجتماعي لا يمكن أن تتحقق ما دامت توجد ملكية خاصة وما دامت الثروة التي يخلقها عمل الجزء الأعظم من الناس تذهب إلى أيدي جماعة صغيرة ممن يحيون حياة فارغة .

وإذ نادى توماس مور بالفكرة العميقة والجريئة عن الغاء الملكية الخاصة رسم صورة المجتمع المنظم الوحيد ، المدار ديموقراطياً والقائم على أساس الملكية الجماعية والعمل الجماعي من جانب جميع أعضائه .

وفي هذا المجتمع ، الذي عرضه توماس مور في الجزيرة غير المعروفة أوتوبيا ، لا يعرف الناس سلطان النقود ولا يعانون من نير الأغنياء . الكل يعملون بتعاضد ، ويهتمون بالعمل الجسدي والعمل الفكري ولا يتحملون الكسالى والطفيليين ، ويعطون ثمار عملهم إلى المخازن الاجتماعية ومنها يستلمون كل ما يحتاجون اليه مجاناً . وقد اقترب توماس مور من المبدأ الشيوعي للتوزيع حسب الحاجة رغم انه نظر الى الحاجات بشكل محدود جداً ، أي أشدها ضرورة فقط .

ان المحدودية التاريخية تنعكس على جوانب أخرى من آراء توماس مور . فقد سمح بأن يوجد في مجتمع المستقبل مثلاً عبيد (أسرى حرب ومجرمون) ، والقائمون بأشق الأعمال ، وأن كل فرد في الأوتوبيا ملزم بأن يؤمن بأن الرب هو خالق العالم وأن الروح خالدة .

« مدينة الشمس » هكذا سمى مجتمع المستقبل الطوبوي الايطالي توماز و كامبانلا (١٥٦٨ – ١٦٣٩) – الذي كان أحد قادة الحركة الشعبية التحررية المشهورين في ايطاليا . وكما هو حال سكان جزيرة أوتوبيا توماس مور فان سكان مدينة الشمس لدى توماز و كامبانلا لا يعرفون الاستغلال ولا سلطان النقود . كلهم يعملون ، أربع ساعات للعمل الاجتماعي والوقت الآخر يخصصونه لتطوير قابلياتهم الفكرية والجسدية . وكذلك الحال بشأن ثمار عملهم التي يقدمونها إلى المخازن الاجتماعية ويستلمون منها كل ما هو ضروري لهم . ومما هو ذو قيمة كبيرة طموح كامبانلا لأن يستخدم العلم في ادارة المجتمع ادارة صائبة لتحقيق التقدم الاجتماعي . وليس صدفة أن يكون حاكم المدينة الرئيسي عالماً له معارف جمة وخبرة عملية غنية . ان فكرة تنظيم المجتمع على أساس علمي والادارة الواعية للعمليات الاجتماعية لا يمكن الا اعتبارها فكرة مرموقة رغم أن التعبير عنها قد ورد بشكل ساذج جداً . ولم ير كامبانلا ، كما لم ير توماس مور – ولم يكن

بامكانه أن يرى طرق الوصول إلى المجتمع الجديد ــ ولجأ إلى التنجيم إلى جانب العلم .

إن أفكار توماس مور وتومازو كامبانلا التي أعدت لأول مرة نظاماً لتنظيم المجتمع بدون ملكية خاصة وبدون استغلال ، لعبت دوراً هاماً في نقد الايديولوجيا الاقطاعية وكان لها تأثير محسوس على تطور الفكر الاجتماعي فيما بعد .

وممن مثلوا الاشتراكية الطوبوية بوضوح جيرارد وينستنلي (١٦٠٩ ــ حوالي ١٦٥٢) . فقد كان المعبر عن مصالح الفقراء ، وبشكل رئيسي مصالح الفلاحين الذين تحــولوا إلى بروليتاريا ، في الثورة البورجوازية الانجليزية خلال القرن السابع عشر ، ومما هو مميز أن مطالب البروليتاريا ، التي كانت في طور التكوين ، بالغاء الملكية الخاصة قد توافقت في أفكاره مع مطالب الفلاحين بالحقوق المتساوية على الأرض . وقد عبر جيرارد وينستنلي عن اعتقاده بأنه فقط بعد الغاء الملكية الخاصة في المدينة والقرية يمكن للبشرية أن تتخلص إلى الأبد من الفقر والاستغلال وأن تقيم مجتمعاً ، لم يخرج في تصورات وينستنلي عن اطار شيوعية التساوي الفجة . وكثيراً ما ألبس هذه التصورات ، أشكالاً دينية غيبية . ومع كل هذا فقدكانت لآراء جيرارد وينستنلي أهمية عظيمة لأنها عبرت عن المطالب الأساسية لأشد الفئات فقراً في المجتمع الانجليزي .

طوبويو القرن الثامن عشر

إن مؤسس التيار الثوري في الاشتراكية الطوبوية في فرنسا هو المفكر الفرنسي جان ميليه (١٦٦٤ ــ ١٧٢٩) .

لقد قضى جان ميليه حياته كلها تقريباً في القرية حيث شاهد بأم عينيه

الفقر المدقع وبؤس الفلاحين وعملهم الشاق الاجباري لصالح الاقطاعيين . وترك مخطوطة ضخمة « وصية » نسخت منها نسخ عديدة ونشرت بعد موته بسنوات كثيرة . وقد حوت المخطوطة فضحاً حماسياً لا رحمة فيه للاستغلال الاقطاعي والنظام الملكي والكنيسة . وتمنى جان ميليه الشيوعية ، المجتمع الحالي من المضطهِدين (بكسر الهاء) ، المقام على الملكية الاجتماعية والعمل الجماعي . وأدرك ميليه بشكل رائع ان المضطهدين (بكسر الهاء) سوف لن يتخلوا مختارين عن امتيازاتهم وثرواتهم ، وعن سيطرتهم ولذا دعا إلى الإطاحة الثورية بالنظام القائم قائلاً : « توحدوا جميعاً في عزم جماعي لتتحرروا من هذا النير المكروه المقزز ... » . وان طموح جان ميليه لتوحيد المثل الشيوعية بالثورة الفلاحية الشعبية إنما هو مساهمة عظيمة في تطوير أفكار الاشتراكية .

لم يترك جان ميليه مخططاً ما لتنظيم مجتمع المستقبل . ولكن هذا المخطط يمكن العثور عليه في كتاب طوبوي فرنسي آخر هو موريلي — (« مبادىء الطبيعة أو الروح الحقيقية لقوانينها » ، ١٧٥٥) .

كان موريلي خصماً للملكية الخاصة التي أفسدت وشوهت الطبيعة الحقيقية للانسان — حسب رأيه . وقد قام بوضع مشاريع قوانين للمجتمع الجديد . وأول هذه القوانين يقضي بالغاء الملكية الخاصة ما عدا ملكية الأشياء التي هي للاستعمال الشخصي ، والقانون الثاني يضمن حق العمل ويعلن وجوب القيام به ، والثالث يطالب الانسان بأن يسلك لصالح المجتمع حسب قواه ومواهبه وعمره . وفي هذا القانون كان قد عرض لأول مرة بوضوح أحد المبادىء الأساسية للاشتراكية — ضرورة قيام كل انسان بالعمل حسب قابليته . وعرض موريلي أفكاره عن التوزيع حسب الحاجة ولكنه لم يخرج عن إطار التوزيع المتساوي البدائي . وقد سعى لأن يكيف المجتمع وفق مستوى حاجات فلاح القرون الوسطى ووفق آفاقه الضيقة جداً .

ان الخطوة الهامة إلى أمام في صياغة المبدأ الشيوعي عن التوزيع قام بها المفكر الفرنسي غبرييل مابلي (١٧٠٩ ـ ١٧٨٥) الذي دعا لاقامة مجتمع يضمن لكل مواطن« الحد الأقصى من اللذات والسعادة » . ان هذا المجتمع يمكن الوصول اليه فقط عن طريق الغاء الملكية الخاصة وحزن مابلي على ذلك العصر الذهبي » عندما لم تكن توجد ملكية خاصة ، واعتبر توزيع الأموال الذي وضع نهاية لهذا العصر ، أكبر خطيئة لأنه أفسد الناس وسبب ميلهم نحو الطمع وتكديس الثروات . وفي الحقيقة ليس فقط طموح الناس نحو تكديس الثروات يمكن ان يدفعهم نحو العمل بل بإمكان السعي من أجل الخير العام والاحترام تجاه المواطنين والمباراة الشريفة ، أيضاً ، ان يكون حافزاً أقوى لحب العمل من الجشع وحب الاستعلاء .

وكما يظهر ، فقد واجه الفكر الاجتماعي ـ التاريخي مع غبرييل مابلي سؤالٌ هام جداً ومعقد هو : كيف يمكن الوصول إلى المجتمع الجديد ـ عن طريق الثورة أم طريق الاصطلاحات ؟

الثورة ، الإطاحة بالقوة بالنظام القائم ، يقوم بها مجموعة من المتآمرين الجريئين ، المخلصين للشعب الذين يكرهون ، من الأعماق ، الاستغلال والغنى ـ هذا هو الجواب القاطع على السؤال المتعلق بطريق الوصول إلى الشيوعية الذي أعطاه الثوري الفرنسي غراك بابوف (١٧٦٠ ـ ١٧٩٧) وأنصاره المعروفين بـ « البابوفيين » .

كان غ. بابوف قائد حركة الفلاحين الثورية من أجل .كومونة وطنية عامة ـ « جمهورية المتساوين » . وفي الوقت الذي اقتصر فيه الكثير من اشتراكيي القرن الثامن عشر الآخرين على انتقاد الكذب والظلم واللامعقولية في النظام القائم فإن الحياة دفعت أنصار بابوف نحو فكرة الانتفاضة وأخذ السلطة . فلقد كانوا ممن عاصروا الثورة الفرنسية البورجوازية الكبرى

(١٧٨٩ — ١٧٩٣) وساهموا فيها ، ولذا فقد أدركوا بسرعة بأن هذه الثورة لم تحطم الاستغلال وإنما بدلت شكله . ولم تقم الثورة بتحقيق أي شيء لسعادة الشعب ، وعلى العكس فقد قامت بكل شيء من أجل حمل الشعب على اراقة عرقه ودمه إلى الأبد ، هذا العرق والدم الذي يتحول في النهاية إلى أواني ذهبية لحفنة تافهة من الأغنياء .

وأكد البابوفيون انه بعد الثورة البورجوازية لا بد وان تقوم ثورة شعبية جديدة ، سيأخذ الشعب السلطة نتيجة لها ويقيم دكتاتورية شعبية وينظم « مجتمع المتساوين » وفي هذا المجتمع المقام على الملكية الجماعية سوف لن يوجد أغنياء ولا فقراء ، وسوف لن يكون بإمكان أحد ما ان يحوز ملكية ، الكل سوف يعملون حسب قابلياتهم للخير العام .

وكتب البابوفيون في « بيانهم » ان المساواة هي قبل كل شيء « العمل المشترك من جانب الكل ، والاستفادة من ثماره » .

الواقع ان تصورات البابوفيين عن المساواة كانت فجة وبدائية : فالتساوي في الاستهلاك كان واحداً من أهم أفكارهم . ومهما كان العمل الذي يقوم به الانسان — على ما كانوا يقولون — فإن هذا لا يزيد من حجم معدته . ومن هنا الاستهانة بالعمل المركب الاختصاصي وبالتعليم والفن والعلم . وقد كتبوا يقولون : لتمت كل الفنون — إذا كان ذلك ضرورياً — للمحافظة على المساواة الحقيقية فقط . ولم يفهم البابوفيون الدور الحقيقي للتطور الثقافي وضرورة خلق ظروف التطور المستمر للقدرات الانسانية بهدف الوصول إلى تحقيق وفرة من الخيرات المادية والثقافية .

لقد تصور أنصار بابوف الشيوعية مجتمعاً عالي التنظيم والمركزية يقوم على الملكية الجماعية الموحدة على النطاق الوطني . ان فكرة الادارة المركزية للمجتمع فكرة قيمة جداً .

كان أنصار بابوف معبرين عن مصالح البروليتاريا الفرنسية الوليدة . غير

ان عدم نضج البروليتاريا وانعدام تنظيمها سببا عدم نضج تصوراتهم عن مجتمع المستقبل وطرق الوصول اليه. وان التاكتيك التآمري الذي اختاروه وضعف صلتهم بالشعب حكما عليهم بالفشل، فقد اعتقل المساهمون في «مؤامرة المتساوين». اما بابوف نفسه فقد قطع رأسه بالمقصلة.

الاشتراكيون الطوبويون العظام في القرن التاسع عشر

لقد بدت الرأسمالية في القرن التاسع عشر في حلة تختلف تماماً عن الحلة الزاهية التي صورها الفلاسفة والمؤرخون والاقتصاديون البورجوازيون. إذ حكمت على الشغيلة ببؤس فظيع وعذبتهم بعمل مرهق لا يطيقه الانسان في معامل الأشغال الشاقة. ولكن الرأسمالية دفعت إلى الحياة – في الوقت نفسه – البروليتاريا، التي أخذت تحتل شيئاً فشيئاً، مكاناً طليعياً في المجتمع، مثيرة في البداية احتجاجها غير الواعي ضد النظام الرأسمالي. واشتد الصراع الطبقي بين العمل ورأس المال وأصبح هذا النضال مصدراً هاماً للتطور الاجتماعي ومحتواه.

ولقد كانت تعاليم الاشتراكيين العظام في القرن التاسع عشر أ. سان سيمون و ش. فورييه وروبرت أوين، انعكاساً لنضال البروليتاريا ضد البورجوازية واحتجاجها غير الواعي ضد عبودية الأجر الرأسمالي.

لقد برز هنري كلود سان سيمون دي روفروا (١٧٦٠ – ١٨٢٥) في وسط ارستقراطي مرموق ولكن هذا لم يمنعه عن ان يكون مدافعاً متحمساً عن المهانين والبائسين. وكان من مؤلفاته الرئيسية – «مناقشات أدبية وفلسفية وصناعية»، وقد بدأه بدحض ما يقال عن وجود «عصر ذهبي» في الماضي. ان «العصر الذهبي» الحقيقي للبشرية هو – حسب رأيه – في المستقبل عندما يكف الناس عن ان يضطهد أحدهم الآخر

وعندما يتوحدون للسيطرة على الطبيعة ولاخضاعها لمصالحهم وأهدافهم .

وقد وضع في مركز مجتمع المستقبل الاشتراكي ، المجتمع المنظم ، المدار بوعي ، وضع الانسان وحاجاته وقابلياته . واعتبر أحسن نظام اجتماعي هو ذلك التنظيم للمجتمع الذي يؤمن الحياة الأكثر سعادة للجزء الأكبر من الناس والذي يقدم لهم أقصى الامكانيات « لتأمين أهم احتياجاتهم » و « لتطوير كل قدراتهم النافعة » . واعتبر سان سيمون خلق الظروف من أجل إظهار كفاءات الانسان وتطويرها تطويراً شاملاً لخدمة العمل الرفاقي والابداع ، مهمة هامة جداً من مهام التنظيم الاجتماعي للناس .

ان سان سيمون تصور المجتمع الاشتراكي المقبل كرابطة حرة ، « كمشغل كبير » ، الناس فيه موحدون للتأثير التعاوني الفعال على الطبيعة بهدف تأمين الرخاء والازدهار العامين . وفي هذا المجتمع يعملون كل حسب قابليته ويحصلون كل حسب عمله ، وسوف لن يكون هناك استغلال أو سيطرة أقلية على الأكثرية ، وستتحول وظائف ادارة الناس إلى وظائف ادارة جميع شئوون المجتمع . وتحتوي مؤلفات سان سيمون ، وأتباعه على وجه الخصوص الفكرة القائلة بأن المجتمع الجديد سيلازمه « اقتصاد وطني ممركز » وتخطيط اقتصادي عام . وأكثر من هذا فإن سان سيمون كان أول مفكر عبر عن فكرة خلق رابطة عالمية بين الناس بهدف استغلال الثروات الطبيعية على أحسن صورة . وبتطوير هذه الفكرة توصل تلاميذ سان سيمون إلى الاستنتاج بأن التعاضد العالمي بين الشغيلة سيتغلب على جميع التناحرات الاجتماعية والقومية وسيضمن حياة سليمة وتقدماً مضطرداً للبشرية .

ورغم العديد من النبوءات العبقرية عن مجتمع المستقبل فإن تعاليم سان سيمون هي تعاليم مثالية وطوبوية في جوهرها . فهو لم يرَ الأسس المادية لتطور المجتمع وبشر بفكرة التعاون السلمي بين المضطهِدين (بكسر

الهاء) والمضطهَدين (بفتح الهاء) . وجعل تطور المجتمع تابعاً للأفكار ووجهات النظر ، وفي دعوته لاقامة الاشتراكيـــة ناشد ضمائر الصناعيين ورجال الدين المتنورين . وكان يطمح إلى ان « يحرض الملوك على استغلال السلطة التي منحهم إياها الشعب لتحقيق التغيرات السياسية التي أصبحت ضرورية » . وقد خاف سان سيمون من الصراع الطبقي وأنكر الثورة ووضع آماله الرئيسية في التبشير بأفكار الأخوة بين جميع الناس وفي القوة الخلاقة المبدعة للاصلاحات المحققة من أعلى .

أما فرانسوا ماري شارل فوربيه (١٧٧٢ — ١٨٣٧) وهو اشتراكي طوبوي فرنسي أيضاً وابن رجل غني كان تاجراً وأفلس فيما بعد ، فقد كان أقوى جوانب فكره هو انتقاده الرائع للنظام الرأسمالي .

ان شارل فوربيه يعتبر خصائص وميول الانسان الطبيعية عاملاً هاماً جداً في التطور الاجتماعي . ولكن هذه الخصائص الطبيعية — على ما يقول هو — مطفأة ومداسة من قبل الرأسمالية التي جلبت لأكثرية الناس الدمار والبؤس وركزت في الوقت نفسه ثروات لم تشاهـــد من قبل في أيدي مجموعة ضئيلة من الناس .

وكتب فوربيه يقول ان الرأسمالية هي « عالم مرهق وجحيم اجتماعي » . وفي هذا الجحيم يكون الانسان دمية في أيدي قوى عمياء وضحية للفوضى ، والميل « للانتاج كيفما اتفق » . تنمو الثروة في أيدي حفنة من الأغنياء في هذا العالم وتحرم الملايين من كسرة خبز . وبسخرية قاتلة عرى فوربيه نفاق وزيف النظام البورجوازي وأولئك الذين استسلموا أمـــام « العجل الذهبي » وراحوا يدافعون عنه ويصورونه أجمل فأجمل في عيون الناس . وفضح التركيب الاقتصادي والحكومـــي للمجتمع البورجوازي الذي هو « في جميع نواحيه ليس سوى فن سرقة الفقراء وإغناء الأغنياء » .

لقد أدرك فوربيه ان اشتداد التناقضات الاجتماعية يمكن ان يؤدي إلى

ثورة شعبية تكنس الرأسمالية . ولكنه خاف من الثورة ومن النشاطات السياسية المستقلة من جانب الجماهير ولذا دعا إلى الطريق السلمي لاقامة النظام الجديد الذي يسوده « الانسجام الاجتماعي » . وتصور شارل فورييه المجتمع المنسجم مؤلفاً من روابط انتاجية سماها كتائب . وأفراد هذه الكتائب الذين يتراوح عددهم بين ١٦٠٠ و ١٧٠٠ يعيشون في بناء ضخم – فالانستر ، حيث يعملون ويأكلون ويستريحون . عملهم الرئيسي الزراعة وبدرجة أقل الصناعة ، التي هي عمل حرفي في الغالب .

وأولى شارل فورييه اهتماماً كبيراً للقضايا المرتبطة بعمل أفراد الكتيبة . واعتبر ان العمل هو أهم حق وواجب على الانسان . واشغل فكره موضوع كيفية التغلب على قسمة العمل الرأسمالية التي شوهت الانسان ، وكيف يمكن إعادة العمل من شاغل اجباري ثقيل إلى لذة ، إلى مصدر للفرح ، وكيف يتم التغلب على التناقض بين المدينة والقرية . واعتقد ان عضو الكتيبة يختار عمله وفق كفاءاته الخاصة وانه يجب ان لا يقيد بنوع واحد من العمل وإنما ان يملك حرية تغيير عمله التي يصل بواسطتها إلى التطور المتناسق . وما دام اختيار النشاط يتم وفق ميول الانسان فستحقق في الكتيبة الوحدة بين ما هو شخصي وما هو اجتماعي . ان أفكار فورييه عن الموقف الجديد تجاه العمل وعن التطور المتناسق للشخصية هي مساهمة هامة في نظرية الاشتركية .

وفي الوقت نفسه فإن آراء فورييه عن المجتمع الجديد وعن طرق الوصول اليه لا تخرج عن إطار الطوبوية . وطوبوية كذلك فكرة فورييه عن الانسجام بين مصالح من يملكون ومن لا يملكون . وقد سمح بأن توجد في الكتيبة ملكية خاصة ، ومالكوها الرأسماليون معتبراً ان نتاج عمل أعضاء الكتيبة يوزع ليس فقط على أساس العمل (١٢/٥) والموهبة (١٢/٣) وإنما على أساس رأس المال أيضاً (١٢/٤) . وعن طريق

مثل هذا التوزيع فقط يمكن تحقيق انسجام بين الطبقات واتحاد وثيق بين رأس المال والعمل والموهبة . وكما يبدو فان فورييه لم يرفض الملكيــة الخاصة وما يلازمها من انقسام المجتمع إلى أغنياء وفقراء . وبهذا قام بخطوة إلى الوراء بالنسبة للطوبويين الآخرين . وان طموح شارل فورييه إلى تجزئة المجتمع إلى وحدات انتاجية متفصلة عن بعضها البعض هي الكتائب . يمثل خطوة إلى الوراء أيضاً بالنسبة لسان سيمون وبهذا تنتفي عملياً امكانية الادارة الواعيــة للمجتمع . وطوبوية كذلك تصورات شارل فورييه عن الطرق الواجب سلوكها للوصول إلى المجتمع الجديد . فقد اعتقد ان هذا يمكن أن يتم عن طريق الدعاية لأفكار الاشتراكية ، وعن طريق التغيير الاصلاحي التدريجي للمجتمع الرأسمالي . وفي مشاريعه لتنظيم الكتائب توجه فورييه إلى الارستقراطية الاقطاعية والرأسمالية ورجال الدين وخصوصاً إلى نابليون الأول ، ولكنه لم يجد لديهم لا دعماً ولا عطفاً .

ان الطوبوي الانجليزي روبرت أوين (١٧٧١ — ١٨٥٨) هو أول اشتراكي طوبوي ربط مصيره بالطبقة العاملة وساهم بنشاط في حركتها وكان مثقفاً مرموقاً للعمال في بلاده . وقد كتب انجلز يقول « ان جميع الحركات الاجتماعية التي قامت في انجلترا لصالح الطبقة العاملة وكل نجاحاتها الفعلية مرتبطة باسم روبرت أوين » [١] .

لقد قام أوين منذ ان كان مديراً لشركة نسيج كبيرة في نيولانارك ، قام بتطبيق عــدة اجراءات استهدفت تحسين الأوضاع المعيشية للعمال : تخفيض يوم العمل إلى عشر ساعات ونصف بعد ان كان يمتد اعتيادياً في انجلترا إلى ١٣ — ١٤ ساعة ، ولأول مرة في العالم نظم لأطفال العمال دور حضانة ورياض أطفال وفتح مدارس نموذجية وأسس صندوقاً للمرضى . وبعد أن نبذ من المجتمع الرسمي لأفكاره الشيوعية عمل روبرت أوين

---

١ كارل ماركس — فردريك انجلز ، المؤلفات المختارة ، الجزء الثاني ، ص ١٤٢ .

مدى ثلاثين عاماً بين أوساط الطبقة العاملة مباشرة ساعياً بكل قواه لاسعاد العمال . فلقد نظم حملة اجتماعية واسعة للدفاع عن حقوق العمال ، ولعبت جهوده دوراً عظيماً في انجلترا من أجل اقرار أول قانون لتحديد عمل الاطفال والنساء .

وانتقد روبرت أوين النظام الرأسمالي بشدة ولكنه اعتقد أن التناقضات الاجتماعية في الرأسمالية هي نتيجة الجهل وأوهام الوعي البشري . ويكفي أن يثور المجتمع وأن يتعرف بشكل جيد على خطط النظام الاجتماعي المعقول حتى ينتهي أمر الرأسمالية . وبانتشار المعرفة سوف يخجل الناس من التناقضات البشعة وخرافات النظام القائم وسيوجهون أنظارهم نحو المجتمع الجديد الذي سوف يضمن أحسن ظروف المعيشة والسمو الخلقي للإنسان .

واعتبر روبرت أوين الملكية الخاصة أكبر عقبة في طريق اقامة المجتمع الجديد . هذه الملكية « التي كانت ولا تزال سبب الكثير من الجرائم والآثام التي يعانيها الانسان » . ولقد آمن بقوة بأنه سيأتي زمن تكون فيه جميع الأشياء ، باستثناء الحاجيات الشخصية المحضة ، ملكية اجتماعية عندما يسطع « التفوق الهائل لنظام الملكية الاجتماعية على نظام الملكية الخاصة وما يسببه من شرور » . جماعية الملكية وجماعية العمل — تلك هي المبادىء الرئيسية لمجتمع روبرت أوين المنظم المعقول .

غير أن أوين لم يرغب في اقامة هذا المجتمع نتيجة الصراع الطبقي والثورة . اذ كان يخـــاف الصراع الطبقي ويعتقد بضرورة الحيلولة دون « الخرق العنيف للحياة الاجتماعية » الممكن حدوثه في ظروف التزايد المستمر لحاجات الشغيلة . ووضع مشاريع اصلاح الحياة الاجتماعية على أسس شيوعية . ولتطبيق هذه الاصلاحات توجه هو أيضاً نحو حملة التيجان وحكومات مختلف الأقطار . وأكثر من هذا فقد سعى لاقنـــاع المجتمع بضرورة الاصلاحات عن طريق القدوة الحسنة . وبذل أموالاً طائلة وجهوداً

ضخمة من أجل تنظيم « مستعمرات » شيوعية فبدأ بكومونة (مشاعية) « الانسجام الجديد » (الهارمونيا الجديدة) في ولاية انديانا في الولايات المتحدة الأمريكية ، ومن ثم مستعمرة « بيت الانسجام » (هارموني هول) في انجلترا ، ولكنه بعد أن فقد كل ما يملك عانى فشلاً ذريعاً . ومع كل هذا فان طموحه لتحويل أفكاره عن الاشتراكية إلى واقع حي ولتطبيقها عملياً له أهمية مبدئية .

ان أفكار الاشتراكية الطوبوية تطورت في روسيا أيضاً وخصوصاً في مؤلفات الديموقراطيين الثوريين الروس أ. ي . هرتسن و ن. ك . جرنيشفسكي .

الاشتراكيون الطوبويون الروس

إن أفكار الاشتركية الطوبوية تطورت في روسيا أيضاً وخصوصاً في مؤلفات الديموقراطيين الثوريين الروس أ . ي . هرتسن و ن. ك . جرنيشفسكي .

لقد كان اسكندر ايفانوفيج هرتسن (١٨١٢ – ١٨٧٠) كاتباً روسياً مرموقاً . انتقد الرأسمالية بشدة في مؤلفاته وعبر عن ايمانه الراسخ بانتصار الاشتراكية ني روسيا . واعتقد أن روسيا ، خلافاً للغرب ، ستصل إلي الاشتراكية بقفز مرحلة الرأسمالية التي تحمل للشعب حرمانات وعذابات جديدة ، وذلك عن طريق المشاعة الزراعية . وكتب يقول : « ان المشاعة الزراعية أنقذت الشعب الروسي من البربرية المنغولية ومن الحضارة الامبراطورية ، ومن الملاكين الكبار المتأوربين ومن البيروقراطية الألمانية . وإن تنظيم المشاعة الزراعية رغم انه قد اهتز بشدة فقد صمد ضد تدخل السلطة وسيعيش بنجاح حتى تطور الاشتراكية في أوروبا .

ان هذا الوضع هام إلى أقصى حد بالنسبة لروسيا .

ان هرتسن تصور الاشتراكية على انها اشتراكية ريفية ، كمجتمع توجد بين أفراده ثقة عميقة واحترام متبادل . ولم يشاهد واقع أن الرأسمالية

كانت قد تغلغلت في المشاعة الزراعية الروسية وحطمت العلاقات البطريركية (الأبوية) وانه إلى جانب الرأسمالية كانت قد ظهرت الطبقة العاملة وأخيراً فانه لم يدرك دورها الثوري في المجتمع ولذا فان اشتراكية المشاعة الزراعية لهرتسن كانت طوبوية وغير قابلة للتحقيق . وفي الوقت نفسه فقد كان هرتسن بعيداً عن فكرة ان الاشتراكية ستعم روسيا من تلقاء ذاتها ، بل اعتبر ان الاشتراكية ستأتي نتيجة نضال سياسي فعال من جانب الجماهير . ولقد كانت أفكاره الاشتراكية مرتبطة بأفكار الديالكتيك الذي اعتبره هرتسن « جبر الثورة » .

ولعله لا يوجد اشتراكي طوبوي رسم لوحة مؤثرة صادقة عن المجتمع الشيوعي راسخة في الذهن ، وقريبة إلى حد كبير من الفهم الصحيح لطرق تحقيقه كما فعل الكاتب والمفكر الروسي العظيم نيقولاي غفريلوفيج جرنيشفسكي (١٨٢٨ — ١٨٨٩) .

ان جرنيشفسكي لم ينكر تقدمية الرأسمالية بالنسبة لنظام القنانة ولم ينكر تغلغل الرأسمالية في روسيا ، ولكنه اعتقد ان سيادة الرأسمالية في روسيا لن تكون لأمد طويل وأنه سيقوم بعدها النظام الجديد ، الشيوعي ذي الملكية الاجتماعية والعمل الواجب على الجميع . كتب جرنيشفسكي يقول : « .... اننا نقر كحقيقة رياضية بأنه في مجرى الزمن سيتمكن الانسان من اخضاع الطبيعة تماماً وسيعيد تكوين كل ما هو على وجه الأرض وفقاً لاحتياجاته ، وسيحول أو يكبح كل ظواهر القوى الطبيعية الخارجية غير النافعة له ، وسيستفيد إلى أقصى درجة من كل القوى الطبيعية التي يمكن أن تخدمه . وان هذا الطريق وحده بامكانه أن يؤدي بمرور الزمن إلى إزالة عدم التوافق بين الحاجيات الانسانية ووسائل تأمينها .... ان العمل سيتحول من ضرورة مرهقة إلى تأدية لحاجة فيزيولوجية بشكل سهل ومريح كما هو شأن العمل الفكري الذي يرتفع الآن إلى مثل هذه الدرجة عند الناس المتنورين » .

ولقد تصور جرنيشفسكي المجتمع الاشتراكي المقبل كاتحاد موحد له « روابط انتاجية » مدارة من قبل الناس أنفسهم ، هؤلاء الناس المتحررين من الاستغلال والذين يتوجب على كل واحد منهم أن يعمل . وان هذه الروابط ، إذ تدخل في علاقات تعاهد وثيقة مع بعضها البعض ، تشكل كلاً سياسياً واقتصادياً موحداً ، لا وجود فيه لفائض انتاج الأزمات ، ويضمن حاجات الناس ويرتقي بقدراتهم وخصائصهم . وأعار جرنيشفسكي اهتماماً كبيراً لتطور الصناعة الكبيرة في المجتمع الجديد ولتطور العلم والتكنيك الذي يضمن انتاجية عمل عالية ويؤمن رخاء الشعب على هذا الأساس . وسيعمل الناس في هذا المجتمع كأسياد لمصيرهم متعاونين وستعاونهم في عملهم هذا المكائن ، وسيغيرون وجه الأرض بعملهم الجماعي محولينها إلى حديقة غناء يتمتعون فيها بجميع لذائذ الحياة .

وفي الواقع فان جرنيشفسكي لم يخرج هو الآخر عن اطار الاشتراكية الطوبوية ، فهو لم يدرك قوانين التطور الاجتماعي ولم يستطع تقدير الدور التاريخي للبروليتاريا كمبدع للمجتمع الجديد . وتصور ، شأنه في ذلك شأن هرتسن ، بأن روسيا ستصل إلى الاشتراكية عن طريق المشاعة الزراعية التي يتوجب نقل مبادئها عن البناء الجماعي إلى المدينة وفي حقل الصناعة .

وفي الوقت نفسه فانه لم يعتبر المشاعة الزراعية شكلاً جائزاً للاشتراكية ، وكان بعيداً عن فكرة ان الاشتراكية يمكن أن تبنى على أساس الاحسان البورجوازي أو على أساس الاتفاق الاختياري بين الطبقات . ان جرنيشفسكي لم يكن نظرياً اشتراكياً فحسب بل وثورياً عملياً أيضاً ربط الاشتراكية بالثورة الشعبية . وحوت كتبه التي تطفح بروح النضال الطبقي — كما قال لينين — نداءً حاراً للنضال ضد القيصر والملاكين الكبار ، ومن أجل نظام اجتماعي جديد ، وإن ما يميز تعاليم جرنيشفسكي هو الربط بين الاشتراكية الطوبوية والديموقراطية الثورية .

المكانة التاريخية للاشتراكية الطوبوية

لقد طرأ على الاشتراكية الطوبوية تطور ملحوظ بتطور التاريخ نفسه وباشتداد حدة التناقضات في المجتمع الاستغلالي وبالصراع الطبقي بين المضطهَدين (بفتح الهاء) والمضطهِدين (بكسر الهاء). وفي مؤلفات الاشتراكيين الطوبويين نجد التعبير ليس فقط عن التطور الواقعي للمجتمع وانما نجد أيضاً اتجاهاته وآفاقه ذلك انهم — كما قال لينين — سبقوا هذا التطور .

ما هي الخدمة التي أسداها الاشتراكيون الطوبويون ، وما هي المكانة التاريخية للاشتراكية الطوبوية ؟

أولاً — لقد قام الاشتراكيون الطوبويون بنقد عميق للغاية للنظام الرأسمالي وعروا عيوبه ودللوا على عدم قدرته على الحياة ، وسعوا الى البرهنة على حتمية فناء الرأسمالية واستبدالها بمجتمع جديد ، شيوعي . وقد ربطت أكثرية الاشتراكيين الطوبويين اقامة المجتمع الجديد بالغاء الملكية الخاصة ، التي وجدوا فيها سبباً هاماً جداً للاستغلال ولسائر الشرور التي يعاني منها الانسان الشغيل ، وباقامة الملكية الاجتماعية الجماعية التي هي وحدها فقط يمكن ان تكون أساساً للحرية الحقيقية ، وللمساواة والاخوة بين الناس . كما انهم طرحوا مسألة طرق ووسائل تحطيم المجتمع الاستغلالي . وربط العديد من ممثلي الاشتراكية الطوبوية مثل ميليه وبابوف والديمقراطيين الثوريين الروس ، ربطوا انتصار الاشتراكية بالنضال السياسي ، بالثورة الشعبية .

ثانياً — لقد تنبأ الاشتراكيون الطوبويون ، بعبقرية ، ببعض ملامح المجتمع الجديد . وعندما أعدوا مشاريع المجتمع الأمثل انطلقوا من دوافع انسانية . وكان اهتمامهم الرئيسي هو ان يضمنوا للانسان في المجتمع

الجديد ظروف حياة انسانية حقيقية ، لتطوير امكانياته وهواياته والارتقاء بها . وفي مؤلفات البعض منهم نجد أفكاراً معمقة عن الانسان وقدراته وطرق تحسينها ، وعن العمل باعتباره الثروة الرئيسية ، حق الانسان وواجبه ، وعن العمل حسب الكفاءة ، وتحول العمل الى حاجة حيوية ، الى لذة ، وعن تصفية التناقضات التي تشوه الانسان والقائمة بين العمل الفكري والعمل اليدوي وبين المدينة والقرية ، وعن التوزيع العادل حسب العمل والحاجات .

ثالثاً – ان الاشتراكيين الطوبويين عرضوا لأول مرة مسألة ادارة الأعمال الاجتماعية بشكل واعٍ هادف ، وفي هذا الصدد فانهم ربطوا امكانية الادارة وتثبيت الملكية الاجتماعية بخلق اقتصاد موحد ، مركز ومنظم على أساس التخطيط (البابوفيون ، سان سيمون واتباعه وجرنيشفسكي) .

وهكذا يظهر ان الاشتراكيين الطوبويين وضعوا أسس العديد من القضايا التي حلت فيما بعد بصورة علمية من قبل ماركس وانجلز ولينين. وان قيام الاشتراكيين الطوبويين بطرح العديد من القضايا الهامة عن التطور الاجتماعي وسعيهم لحلها قد قدر تقديراً عالياً من جانب كلاسيكي الشيوعية العلمية . كتب لينين يقول : ان الاشتراكيين الطوبويين العظام « قد أحسوا مسبقاً ، وبشكل عبقري ، بعدد لا يحصى من الحقائق التي نثبت نحن الآن صحتها بشكل علمي »[1] . وليس صدفة ان تكون الاشتراكية الطوبوية وخصوصاً طوبوية القرن التاسع عشر أحد المصادر الفكرية للماركسية والسلف المباشر للشيوعية العلمية .

ان كلاسيكي الشيوعية العلمية اذ قدروا عالياً مؤلفات الاشتراكيين

---

١ لينين – المؤلفات المختارة – الجزء الخامس ، ص ٣٨٦ .

الطوبويين كشفوا في الوقت نفسه محدوديتهم التاريخيــة وانتقدوا الاسس المثالية لتعاليمهم ، وأشاروا الى التساوي البدائي والتقشف العام الذي بشر به الاشتراكيون الطوبويون العظام في الغرب ، والطابع غير القابل للتحقيق للطرق والوسائل التي اقترحوها للوصول الى الاشتراكية . ان الاشتراكيين الطوبويين أدركوا التضاد العميق بين مصالح البورجوازية الطبقية والبروليتاريا ولكنهم أنكروا على البروليتاريا قدرتها على القيام بنشاط تاريخي فعال ، ولم يروا فيها القوة التاريخية القادرة على تحقيق المثــل الشيوعية السامية . وكان الاشتراكيون الطوبويون في أكثريتهم من معارضي النضال الطبقي والثورة وأعلنوا وقوفهم ليس فقط ضد النشاطات الثورية بل وضد أي نشاط سياسي .

لقد سعت أكثريتهم للأهداف التي وضعوها عن طريق الاصلاحات والتبشير بمشاريع مجردة عن اعادة بناء المجتمع ، وعن تنظيم مستعمرات « شيوعية » لا حياة لها . وسعوا للعثور لا على الاسس المادية لتحرير البروليتاريا ، وانما لايجاد علم اجتماعي ، اذا ما استوعبه الناس ، فانــه سيؤدي بذاته بالبشرية نحو الهدف المنشود . انهم لم يروا البروليتاريا ولم يتعرفوا عليها بل وخافوا منهــا ولذا وجهوا نداءاتهم الى جميع طبقات المجتمع والى الطبقات المسيطرة قبل غيرها وناشدوا ضمائرها ، وجاهدوا من اجل الوصول الى الانسجام بين المصالح الطبقية .

ان أسباب فشل الاشتراكيين الطوبويين تكمن في انعزالهم عن الشعب، عن الطبقة العاملة ، وفي اهمالهم الظروف المادية لحياة المجتمع ، وفي عدم معرفتهم لقوانين التطور الاجتماعي ، وفي طموحهم للاعتماد فقط عــلى الأفكار والتنوير والتربية . وهذا الفشل لم يكن صدفة انما تمتد جذوره الى الظروف الاجتماعية ـ التاريخية في ذلك الوقت ، في عدم نضوج العلاقات الاجتماعية وعدم تطوير البروليتاريا التي لم تكن قد تشكلت بعد في طبقة،

ولم تكن تعي وضعها ولا تلك المهمة العظيمة التي عهد بها اليها التاريخ . وقد كتب انجلز يقول : « لقد أجابت النظريات غير الناضجة على عدم نضج حالة الانتاج الرأسمالي وعدم نضج العلاقات الطبقية »[1] .

ولكن التاريخ سار الى أمام ونضجت العلاقات الاجتماعية ، وتعمقت تناقضات الرأسمالية وتطورت البروليتاريا وبلغت سن الرشد في النضال الثوري وتحولت الى قوة حاسمة في التطور الاجتماعي . اما الطوبويات الاجتماعية فلم يكن بامكانها ان تكون قيادة للبروليتاريا في نضالها الثوري . وقد وضع التاريخ نفسه أمام علم الاجتماع مهمة ذات أهمية عظيمة : مهمة ايجاد نظرية تخدم الطبقات الثورية كدليل مضمون للعمل . ونفذ العلم في شخص أحسن ممثليه كارل ماركس وفريدريك انجلز المهمة العاجلة التي وضعها التاريخ ، وصيغت نظرية الشيوعية العلمية .

٢ ـ تحول الاشتراكية من طوبوية الى علم
كارل ماركس وفريدريك انجلز

بدأ النشاط العلمي والثوري لكارل ماركس (١٨١٨ – ١٨٨٣) وفريدريك انجلز (١٨٢٠ – ١٨٩٥) في ألمانيا في أربعينات القرن الماضي وقد كان هذا زمن تطور عاصف للرأسمالية التي ترسخت في العديد من أقطار أوروبا وشمال أمريكا ، زمن تطور طبقة جديدة هي البروليتاريا الصناعية وخروجها الى ميدان الكفاح الثوري .

لقد قابلت البورجوازية بحماس العصر الذي جاءت فيه لتخلف الاقطاعية .

---

[1] كارل ماركس وفريدريك انجلز ، المؤلفات المختارة ، الجزء ٢٠ ، ص ٢٦٦ .

ونظرت يومها إلى مستقبلها بتفاؤل كبير وإيمان راسخ وآمنت بثقة لا تتزعزع بالنصر وبرسوخ وخلود مبادىء الملكية الخاصة التي وطدتها .

وبدا أنه لا نهـــاية لمملكة البورجوازية . ولكن هذا كان في الظاهر فقط . أما في الواقع ، فقد دوت عام ١٨٤٨ كالرعد في يوم صاح الكلمات النبوئية في « بيان الحزب الشيوعي » الذي ألقى فيه كارل ماركس وفريدريك انجلز حكم التاريخ على الرأسمالية . فقد برهنا على أن المجتمع الرأسمالي المبني على الملكيـــة الخاصة والاستغلال يجب أن يخلي مكانه لمجتمع دون استغلال وعبودية ، للمجتمع الشيوعي ، وذلك بنفس الحتمية التي جاء بها هذا المجتمع الرأسمالي ليحتل مكان الاقطاعية ، وبرهنا على أن الانسانية تسير نحو ثورة شيوعية عظيمة ... « لترتعد فرائص الطبقات المسيطرة من الخوف أمام الثورة الشيوعية » هكذا أعلن ماركس وانجلز . وبالبيان الشيوعي انتهى زمن الاشتراكية الطوبوية وبدأ عهد الاشتراكية العلمية .

فبماذا تختلف الاشتراكية العلمية عن الاشتراكية غير العلمية ، الطوبوية ؟

لقد انطلقت الاشتراكية الطوبوية — كما رأينا — من أفكار الانسانية وحب البشر . فهذه الأفكار بالضبط هي التي دفعت الطوبويين إلى البحث عن تنظيم اجتماعي ينسجم مع الطبيعـــة وكرامة الإنسان . ولكن ما هي الطبيعة وما هو جوهر الإنسان — هذا ما لم يستطع الطوبويون أن يجيبوا عليه . فكثيراً ما تصوروا الإنسان بشكل مجرد ، كمركز من أفكار وميول وكانت لهم تصورات غامضة جداً عن مصدر الميول والأفكار الإنسانية . لقد ورث طوبويو القرن التاسع عشر من المفكرين المنورين الفكرة العميقة القائلة بأن الانسان هو نتاج الوسط الاجتماعي والظروف . ولكن ماذا يمثل الوسط وما هي القوانين والدوافع التي تحركه وتحرك بالتالي تطور الإنسان ؟ ذلك ما لم يعرفوه ، رغم انهم كانوا على اقتناع تام بأن النظام الرأسمالي المبني على الاضطهاد والملكية الخاصة والذي يشوه الأنسان ، يجب أن يحطم .

لقد تصوروا تطور الوسط كتطور للميول والأفكار الإنسانية . وهنا تنبثق حلقة مفرغة : فالإنسان المفكر هو نتاج الوسط والوسط نتاج أفكار الإنسان .

وكان من المهم جداً ومن الضروري كسر هذه الحلقة المفرغة لأنه – كما كتب ماركس وانجلز – « إذا كان طابع الإنسان ينشأ عن الظروف فان الواجب ، بالتالي ، أن تخلق ظروف انسانية » [1] . وخلق ظروف « إنسانية » لا يمكن أن يتم الا عن طريق المادية ، وفقط بكشف جوهر القوانين الفعلية لتطور الوسط الاجتماعي ، وفقط بالاستفادة من هذه القوانين بحذق لصالح الإنسان . ولكن كشف جوهر قوانين العملية التاريخية كان يعني كشف جوهر الإنسان نفسه الذي هو نتاج هذه القوانين ، وهذا يعني أن توضع أفكار الطوبويين المجردة عن الإنسانيـــة وأفكارهم عن خلق مجتمع يليق بالانسان ، على أرض الواقع الحقيقي .

إن الوجه الأساسي لاشتراكية ماركس وانجلز العلمية بالضبط ، هو أنها مبنية ليس على تركيبات أو أنظمة منطقية ورغبات طيبة ، وإنما على أرض الواقع الحقيقي ، على الفهم العلمي سواء لقوانين تطور المجتمع أو لجوهر الانسان نفسه .

ان ماركس وانجلز إذ عارضا مثالية الطوبويين بالفهم العلمي ، المادي الديالكتيكي للتطور الاجتماعي ، وإذ دللا على الحتمية التاريخيـــة للتبديل الثوري للرأسمالية بالاشتراكية ، فانهما بالضبط ، حولا الاشتراكية من طوبوية إلى علم .

التبديل الثوري للرأسمالية بالاشتراكية امر حتمي

لقد جلبت الرأسمالية تطوراً عاصفاً للقوى المنتجة إذ خلقت في أكثر البلدان تطوراً اقتصادياً قوياً حطم الحواجز الاقطاعية وشكل اقتصاداً عالمياً ،

---

[1] كارل ماركس وفريدريك انجلز ، المؤلفات المختارة ، الجزء ٢ ، ص ١٤٢ .

وإذ نشرت نظام الاستغلال في كل العالم وإذ جعلت الاستغلال مرهقاً بشكل خاص ومدمراً للجزء الأعظم من الشعوب في العالم التي أصبح أفرادها عبيداً مستعمَرين (بفتح الميم) . إن التطور السريع للقوى المنتجة كان نتيجة لعلاقات الانتاج الرأسمالية التي ولدت دافعاً لتطوير الانتاج كالربح الرأسمالي . وفي السباق من أجل تحقيق الارباح وسعت البورجوازية الانتاج وطورت التكنيك وحسنت تكنولوجيا الصناعة والزراعة . ولكن هذه العلاقات لم تسبب مستوى لتطور الانتاج لا مثيل له بالنسبة للمجتمعات السابقة فحسب وإنما ولدت أيضاً قوى منتجة وضعت النظام الرأسمالي أمام خطر الموت . وقد شبه ماركس وانجلز الرأسمالية بالحاوي الذي ولّد بتعاويذه قوى هائلة لم يعد بامكانه مواجهتها .

لقد كشف ماركس وانجلز — وفي هذا تكمن مأثرتهما العظيمة — التناقض الأساسي في الرأسمالية ، والتناقض بين الطابع الاجتماعي لعملية الانتاج والشكل الرأسمالي الخاص للامتلاك . ان الانتاج في الرأسمالية له طابع اجتماعي واضح التعبير ، ففيه تساهم الملايين من جماهير الشغيلة ، ممركزة في مؤسسات ضخمة ، أما نتاج هذه الملايين فتستحوذ عليه مجموعة صغيرة من كبار المتملكين . ان هذا التناقض الذي هو تعبير حي عن التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج يولد الأزمات والبطالة ويثير صراعاً طبقياً لا مهادنة فيه بين البورجوازية والبروليتاريا صراعاً نتيجته الثورة الاشتراكية واستبدال الرأسمالية بالاشتراكية .

وبالتالي فان الثورة الاشتراكية تستند إلى أساس اقتصادي محدد هو التناقض في الانتاج الرأسمالي ، وهي تظهر كضرورة تاريخية . ان هذه الضرورة تنبع من حاجات تطور الانتاج نفسها ، التي يضيق بها اطار علاقات الانتاج الرأسمالية ، وحاجات الانتاج الذي تتطلب طبيعته الاجتماعية نفسها تصفية الملكية الرأسمالية الخاصة وتثبيت الملكية الاجتماعية الجماعية .

وهكذا فان الفهم المـــادي للتاريخ وتحليل القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي والديالكتيك الموضوعي للرأسمالية والتناقضات الداخلية الملازمة لها أدت بماركس وانجلز إلى صياغة تعاليم الثورة الاشتراكية كوسيلة ضرورية ووحيدة لاحلال الاشتراكية محل الرأسمالية ، وكمقدمة ضرورية لتحرير الانسان ولخلق الظروف من أجل ازدهارها الحقيقي . وبهذا احيلت إلى هباء خيالات الاشتراكيين الطوبويين العظام في الغرب القائلة بأن الطريق الاصلاحي ممكن التحقيق لتحويل الرأسمالية إلى الاشتراكية عبر الوصول إلى « انسجام » بين المصالح الطبقية .

ان الفهم المادي للتاريخ أعطى ماركس وانجلز امكانية ليس فقط أن يكشفا الجوهر الحقيقي للوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه الانسان ويتطور ، وليس فقط ان يدلا على طرق تغييره لصالح الانسان وانما أن يكشفا أيضاً عن جوهر الانسان نفسه ومكانه في نظام العلاقات الاجتماعية في اطار ذلك الكل الاجتماعي الذي ينتمي اليه . وبهذا حطمت نهائياً الحلقة المفرغة التي تخص علاقـــة الانسان بالوسط الاجتماعي ، هذه الحلقة التي بحث الفكر الاجتماعي قبل ماركس عن مخرج منها دون جدوى .

جوهر الانسان واتجاه تطوره

ان كل انسان هو ، بالطبع ، كائن بيولوجي . ولكن بيولوجيتـــه ليست جوهره . وإن الطبيعة قد قدمت لتكوين الانسان مواد بيولوجية معينة ، طبعاً ، غير أن تحويل هذه المواد إلى كيان انساني هو نتيجة لعوامل ذات طبيعة اجتماعية وقبل كل شيء النشاط العملي الانتاجي . لقد كتب انجلز يقول : ان العمل خلق الانسان . ووجد العمل تجسيداً في تركيب الجسم الانساني . ان الانسان انسان ليس لأنه يتكون من أجهزة وأنسجة وخلايا ، وليس لأنه يتنفس برئتين أو يرضع أطفاله حليباً ، وإنما لأنه قادر على أن يعمـــل وأن يفكر وأن يتكلم ، قادر على أن ينتج

أدوات للعمل ويؤثر بواسطتها على الوسط المحيط به ، على الطبيعة ، ولأنه قادر على أن يدخل ، في مجرى العمل ، في علاقات اجتماعية مع الناس الآخرين .

لقد رفض ماركس وانجلز تقديس الانسان المجرد ، الانسان بشكل عام ، خارج الزمان والمكان . وكان الانسان في مخيلتها باستمرار انساناً ملموساً ، ينتمي إلى تركيب اجتماعي تاريخي محدد – إلى منظومة اجتماعية . إلى مجموعة اجتماعية محددة – طبقة ، أمة و .. الخ . إن الانسان هو دوماً حلقة في نظام محدد من العلاقات الاجتماعية .

وكتب ماركس يقول : « ان الجوهر الانساني ليس تجريداً ملازماً لكل ذات منفردة . انه في الواقع مجموع كل العلاقات الاجتماعية » [1] . ان مجموع العلاقات الاجتماعية والوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه الانسان هما بالضبط ما يولد كل المظاهر المتنوعة في حياته .

فالنشاط المادي الانتاجي في المجتمع مثلاً والعلاقات الاقتصادية التي تنشأ في عملية الانتاج تحدد حالة الانسان : عبداً أم سيداً ، فلاحاً أم إقطاعياً، عاملاً أم رأسمالياً . وبكلمات أخرى فان الحياة الاقتصادية لمجتمع محدد تاريخياً تولد مظاهر الحياة الاقتصادية للإنسان المعين ، ومكانه في نظام الانتاج الاجتماعي . وان مظاهر حياة الانسان في الميدان الاقتصادي هي الأساس لجميع المظاهر والسمات والخصائص الأخرى . والجماعة المعينة – طبقة ، أمة ... الخ – تولد الخصائص الطبقية والقومية وغيرها لدى الانسان أو باختصار مظاهر حياته الاجتماعية . وأخيراً فالانسان تلازمه أيضاً مظاهر حياة روحية هي انعكاس لما يلازم المجتمع من علاقات اقتصادية انتاجية .

---

1 كارل ماركس وفريدريك انجلز ، الجزء ٣ ، ص ٥ .

وهكذا فان الوسط الاجتماعي الذي ينتمي اليــه الانسان يولد لديه « مظاهر حياة » محددة : ملامحه المختلفة ، تسلكاته وعمله ، أفكاره ومطامحه ، حاجاته وقدراته وغيرها من الخصائص النفسية (الشخصية ، الحيوية ، العواطف ، العادات وغيرها) . إن جميع هذه الملامح ومظاهر الحياة تشكل في وحدتها وتفاعلها الانسان المعين ككل . وان كل ملامح ومظاهر الانسان ليست سوى مظهر خاص لعلاقة اجتماعية محددة . وهي بمجموعها تؤلف مظهراً لكل تنوع العلاقات في المجتمع . وبهذا المعنى فان جوهر الانسان هو ، بالضبط : مجموع العلاقات الاجتماعية ، عقدتهـــا النوعية ، مركّزها (بتشديد الكاف) .

وهنا ينبثق سؤال ، ولكن لماذا توجد في ظروف وسط واحد وفي مجتمع واحد مختلف الشخصيات الانسانية ، ولماذا لا تجسد هذه الشخصية أو تلك جميع ملامح التركيب الاجتماعي ، وإن ما تجسده من هذه الملامح لا يكون بدرجة واحدة ؟ القضية هي ان كل انسان يتطور في ظروف وسط ملموس (« وسط خاص ») يتعلق به الاختصاص ونوع المهنة ، وخصائص الجماعة الانتاجية أو غيرها ، العائلة و « الشارع » و ... الخ .

ومن المفهوم تماماً بأن « الوسط الخاص » هو بالضبط ذلك المضلع الذي يتكسر خــلاله تأثير الوسط الاجتماعي العام على الشخص — سواء العلاقات الاقتصادية أو غيرها من العلاقات الاجتماعية ، وكذلك تأثير حياة المجتمع الروحية . ونظراً لأن الأوضاع التي تكون « الوسط الخاص » شديدة التنوع جداً فلذا نرى الشخصيات متنوعة هي بدورها أيضاً رغم انها تعيش وتعمل في مجتمع واحد وفي وسط اجتماعي عام واحد أيضاً .

وبالتــالي فان ملامح كل انسان على حدة تتحدد من قبل الوسط الاجتماعي العام عن طريق « الوسط الخاص » . وفي هذا يظهر القانون العام لتطور الانسان ، الذي يكون أسلوب وجوده — كما كتب ماركس —

« مظهراً إما أكثر خصوصية أو أكثر عمومية لحياة الجماعة »[1] .

ان الشخصية الانسانية تتغير باستمرار أو تتطور تبعاً لتطور الوسط الاجتماعي . فبعض ملامحها ومظاهرها في الحياة تضيع في مجرى التطور وأخرى تكسب وثالثة تتطور وتترسخ . ولذا من الضروري ان يؤخذ بنظر الاعتبار بأن الوسط الاجتماعي نفسه ليس تركيباً متشابهاً ، ففيه يوجد باستمرار أسس الحاضر وبقايا الماضي وبذور المستقبل . وهكذا فإن الانسان هو مجموع المظاهر الاجتماعية في وسط معين (ولهذا الوسط يعود الدور الحاسم في صياغة ملامح الشخصية) الوسط الغارق في الماضي التاريخي ، والذي يسير ليحل محل الحاضر .

ان ماركس وانجلز إذ أكدا على ان الانسان نتاج الوسط فانهما لم يذيبا الفرد في المجتمع . ان الانسان ليس جزءاً مسلوب الارادة في الجهاز الاجتماعي ولكنه حلقة ذات وظيفة عامة فيه . والانسان يصاغ من قبل المجتمع ، من قبل الظروف ، ولكنه هو نفسه يصوغ المجتمع أيضاً . وقد كتب ماركس : يجب ان لا ينسى بأن « الناس يغيرون الظروف »[2] . فبعمله وبنشاطه السياسي يصوغ الانسان المجتمع ، ويصوغ معه نفسه أيضاً ، ولهذا فإن قوة تأثير الانسان على الوسط وعلى المجتمع تتنامي بموازاة التقدم الاجتماعي .

وبعد ان كشف ماركس وانجلز الجوهر الاجتماعي للانسان أشارا إلى الوجهة الأساسية بتطوره في مجرى التقدم الاجتماعي وهي اتساع دائرة مختلف ملامح ومظاهر الحياة واغتنائها باستمرار هذا التطور المرتبط بتقدم المجتمع وبارتقاء العلاقات الاجتماعية وتقدم ثقافته المادية والروحية . ان الوصول

---

١ ماركس وانجلز ، المؤلفات الأولى ١٩٥٦ ، ص ٥٩٠ .

٢ ماركس وانجلز ، المؤلفات ، الجزء ٣ ، ص ٤ .

إلى التطور الحر والتعبير الأكمل عن جميع مظاهر الحياة الانسانيـــة ، والوصول إلى أرقى انسجام فيها والاستفادة منها على أحسن صورة بشكل تلقائي (طبيعي ، يصبح عادة) لصالح المجتمع ، وبالتالي لصالح الانسان نفسه — هذا هو اتجاه تطور تاريخ البشرية . لقـــد كتب ماركس : « في الشيوعية يبدأ تطور القدرة الانسانية كهدف بذاته ، مملكة الحريــة الحقيقية »[1] وتخلق الظروف الأكثر ملاءمة للطبيعة البشرية والتي تطابقها تماماً . هنا يخلق الانسان الجديد الذي لا تشكل الثروة المادية بالنسبة له هدفاً بذاته ، وإنما فقط وسيلة لإظهار تطوير القابليات الانسانية الخلاقة على أكمل صورة ، حيث يصبح الإنسان نفسه ، المتطور تطوراً شاملاً أكبر ثروة اجتماعية . وبدلاً من الثروة الاقتصادية للطبقات الحاكمة وفقر الشغيلة في ظروف الرأسمالية يظهر في الشيوعية — كما كتب ماركس — « الإنسان الغني والحاجات الإنسانية الغنية . ان الإنسان الغني هو في الوقت نفسه الإنسان الذي يحتاج إلى كل امتلاء مظاهر الحياة الإنسانية ، الإنسان الذي يظهر وجوده الخاص كضرورة داخلية ، كحاجة »[2] .

تحرير الانسان الشغيل مهمة الطبقة العاملة التاريخية

عندما حلل ماركس وانجلز تطور التاريخ ومعه الإنسان أوضحا بأنه في المجتمعات الطبقيـــة المتناحرة القائمة على أساس الملكية الخاصة يتكون نوعان متناقضان تناقضاً تاماً من الناس : انسان مستغِل (بكسر الغاء) وانسان شغيل . وان هذا الانقسام يبدو على أشد ما يكون من الوضوح في المجتمع الرأسمالي . وهنا تصل الفردية والانانية ، في شخص البورجوازي ،

---

١ كارل ماركس — رأس المال ، ج ٣ ، ص ٨٣٥ .

٢ ماركس وانجلز ، المؤلفات الأولى ، ص ٥٩٦ .

أعلى درجات التعبير ، والموقف تجاه كل انسان آخر هو الموقف تجاه شيء بهدف الاستحواذ على منفعة من ربح أو مغنم . ان البورجوازي يحتكر حق التطور وتأمين كل حاجاته وشهواته . أما العامل فمصيره العمل . ان التقسيم الرأسمالي للعمل يحكم على البروليتير بتطور مشوه ، وحيد الجانب . ويسعى الرأسمال إلى تحويل البروليتير إلى لولب صغير عديم الحقوق في الجهاز الاقتصادي . ومن الاعتيادي في الرأسمالية أن يستمر العامل في تنفيذ الوظيفة الانتاجية الضيقة نفسها ، ويجبر على التضحية في سبيلها بجميع امكاناته ومواهبه .

ومع ذلك فقد حقق انسان العمل الشيء الكثير في المجتمع الرأسمالي . فقبل كل شيء قهرت الطبيعة بجهوده ، وخلقت قوى منتجة جبارة ، سمحت بخلق قيم مادية وروحية لم يسبق لها مثيل . وبهذا أوجد الشرط الأول لإقامة المجتمع الذي يكون فيه الإنسان الشغيل نفسه هو الهدف . ولكن العامل ، كما كتب ماركس ، مدعو لتحقيق شرط ثان لتحرير الإنسان وعمله وهو ان يحرر العمل وانسان العمل من براثن العلاقات الرأسمالية ، من علاقات الملكية الرأسمالية . « لقد كسبت الطبقة العاملة الطبيعة ، وعليها الآن ان تكسب الإنسان »[1] . ان الطبقة العاملة هي بالضبط القوة الاجتماعية التي ولدتها الرأسمالية والمدعوة للقيام بالثورة الاشتراكية وبهذا تكسب الإنسان ، وتحرره من الاضطهاد والاستغلال . ان تحرير انسان العمل عن طريق الثورة الاشتراكية وإقامة مجتمع انساني حقيقي — الاشتراكية — تلك هي مهمة الطبقة العاملة التاريخية . وقد كتب لينين : « ان الأمر الرئيسي في مذهب ماركس هو انه أوضح دور البروليتاريا التاريخي العالمي كبانٍ للمجتمع الاشتراكي »[2] .

---

١ ماركس وانجلز ، المؤلفات ، الجزء ١٠ ، ص ١٢٥ .

٢ لينين — المؤلفات ، الجزء ١٨ ، ص ٥٤٤ .

ان المهمة الأولى والأساسية للثورة الاشتراكية هي قلب سلطة البورجوازية وتحطيم ماكنة الدولة القديمة من الأساس وخلق دولة جديدة دولة دكتاتورية البروليتاريا .

لماذا توصل ماركس وانجلز إلى الاستنتاج بأن على الطبقة العاملة بالذات تقع المهمة العظيمة ، مهمة تحرير انسان العمل والبشرية ؟

أولاً وقبل كل شيء الطبقة العاملة هي الطبقة الأكثر ثورية في المجتمع الرأسمالي . انها محرومة من الملكية الخاصة لوسائل الانتاج وهي الطبقة الأكثر تعرضاً للاستغلال في المجتمع الرأسمالي . فهي إذ لا تملك ، مضطرة للعمل لدى الرأسماليين وان تتحمل نير الاستغلال الرأسمالي . ان اليدين الشغيلتين والقدرة على العمل هي كل ما يملكه العامل . ومن هنا فإن مصيره ومصير عائلته ، أهله وأقاربه يتعلق بلعبة الصدف العمياء التي تقرر هل إن عمله ويديه الشغيلتين مرغوب فيهما أم لا .

ولهذا السبب بالذات فإن الطبقة العاملة أكثر من أية طبقة أخرى ، ذات مصلحة بتصفية الملكية الخاصة والاستغلال ، وهذا يعني انها الطبقة الأكثر ثورية ، والأكثر حزماً تجاه الطبقة الرأسمالية . ان الثورة الاشتراكية المدعوة لازالة الرأسمالية واقامة الاشتراكية هي مهمة حيوية للطبقة العاملة وهدفها الأسمى وغايتها . وهي لن تفقد في الثورة سوى قيودها ، ولكن يمكن ان تربح عالماً بأسره — وسائل الانتاج والسلطة السياسية وكذلك الحق في الاستفادة من جميع منجزات الثقافة المادية والروحية .

كما ان الطبقة العاملة أكثر ثورية أيضاً لأنها مرتبطة بالشكل التقدمي للانتاج — الانتاج الصناعي الكبير ، وبالتالي ، فإن الطبقة العاملة مرتبطة بمستقبل الانتاج ، بمستقبل البشرية جمعاء . ووراء الطبقة العاملة توجد قوة الجماهير الفلاحية ، قوة احدى أكثر طبقات المجتمع الرأسمالي عدداً .

ولكن القضية ليست في هذا وحسب . ذلك ان ظروف تطور الانتاج نفسها تجعل من الطبقة العاملة الأكثر تنظيماً ، والأكثر انضباطاً والأكثر وعياً . ان البورجوازية باقامتها الصناعة الكبيرة جمعت العمال في مدن ضخمة ومعامل ومصانع هائلة . والعمال يعملون بتعاون ، في مجاميع كبيرة وبذا فانهم اذ يدخلون في صراع مع البورجوازية سرعان ما يبدأون بادراك ضرورة التنظيم والضبط الصارم . انهم يقتنعون بأن ظروف عملهم وحياتهم شاقة في كل مكان ، وانهم يواجهون في كل مكان المستغل نفسه — الرأسمالي . ومن هنا يتولد لدى العمال ويتطور الوعي الطبقي والطموح للوحدة ليس على الصعيد الانتاجي فحسب وانما على الصعيد الوطني أيضاً ومن ثم على الصعيد العالمي أيضاً . ان الطبقة العاملة تقيم منظماتها الخاصة : التعاونيات ، وصناديق المساعدة وبالتالي الحزب الذي يقود نضالها .

ان ظروف عمل وحياة الطبقة العاملة تجعل منها الطبقة الأكثر قدرة على قبول الأفكار الثورية التقدمية ، واستيعاب النظرية التقدمية . ولكن العمال أنفسهم ليس لديهم لا الوقت ولا الوسائل ولا المعارف الكافية لصياغة هذه النظرية . ومن هنا انبثقت مهمة غلغلة الوعي الاشتراكي في الحركة العمالية وتوحيد الاشتراكية والحركة العمالية . وهذه المهمة الخطيرة يقوم بها بالتأكيد الحزب السياسي للطبقة العاملة .

ان الطبقة العاملة ليست وحيدة في نضالها لتحقيق مثلها . اذ تساهم معها في تحالف وثيق في هذا النضال طبقات وفئات أخرى ، تعاني بدورها من الاستغلال — الفلاحون الشغيلة ، الحرفيون ، البورجوازية الصغيرة في المدن ، شغيلة الفكر . لقد اعطى ماركس وانجلز ومن ثم لينين اهتماماً خاصاً كبيراً لتحالف الطبقة العاملة مع الفلاحين . اذ رأوا في هذا التحالف القوة الاجتماعية المدعوة للقيام بالثورة وبناء الاشتراكية . ان الطبقة العاملة اذ تحرر نفسها من العبودية الرأسمالية فانها تحرر من الاضطهاد كل الشغيلة والمجتمع بأسره .

ومن المهم ان نشير الى ان نضال الطبقة العاملة لا ينغلق في الاطارات القومية وانما يكتسب طابعاً أممياً . فتلك هي طبيعة الطبقة العاملة ذاتها . اذ ليس لها مصالح يمكن ان تولد العداء بين الشعوب . وتعارض الطبقة العاملة البورجوازية الموحدة على الصعيد العالمي ، بالوحدة الاممية ونضال الشعوب المشترك ضد مجتمع الملكية الخاصة والاستغلال .

العمليات الاجتماعية يمكن ان تقاد

بعد ان صاغ ماركس وانجلز مفهوم النظام الاقتصادي — الاجتماعي ، وبعد ان أشارا الى مكان مختلف العلاقات الاجتماعية فيه وأقروا العلاقات الاقتصادية باعتبارها العلاقات المقررة الحاسمة كشفا قوانين تطور المجتمع وبهـذا أعطيا مفتاح التوجيه العلمي للعمليات الاجتماعية لصالح الانسان والبشرية .

ان قيادة التطور الاجتماعي حيث يعيش ويعمل ملايين الناس عملية معقدة للغاية . وان أهم شرط لها هو السياسة الصحيحة والستراتيجية الصحيحة التي تتجاوب والاتجاهات التقدمية للتطور الاجتماعي ومصالح الطبقة التقدمية والجماهير الشعبية — صانعة التاريخ .

واذ كشف ماركس وانجلز لأول مرة قوانين التطور الاجتماعي أشارا إلى انه نتيجة نشاط هـذه القوانين يتوجب على الرأسمالية ان تتخلى عن مكانها التاريخي للاشتراكية ، لمجتمع خال من الملكية الخاصة واستغلال الانسان للانسان . وأوضحا ، في الوقت نفسه ، بتأكيد خاص ، بـأن الاشتراكية سوف لن تحل محل الرأسمالية من ذاتهـا أوتوماتيكياً . وأشار ماركس وانجلز ، بعد أن وجدا في الطبقة العاملة القوة الاجتماعية القادرة على اقامة المجتمع الجديد وتحرير الانسان ، أشارا الى ان البروليتاريا قادرة

على انجاز رسالتها التاريخية العظمى هذه،فقط في مجرى نضال طبقي وثورة اشتراكية .

وهكذا فان فناء الرأسمالية وقيام الاشتراكية نتيجة ليس فقط لنشاط القوانين الموضوعية وانما للنشاط الذاتي للناس كذلك ، نتيجة اعادة بناء المجتمع وتوجيه العمليات الاجتماعية بشكل واعٍ وهادف . ان الطبقة العاملة وحزبها اذ يوسعان النضال الطبقي وينظمانه ، ينفذان بشكل رئيسي مهمة سلبية تدميرية . ولكن بدون حل هـذه المهمة ، وبـدون تحطيم الرأسمالية لا يمكن للطبقة العاملة وحزبها ان يشرعا في عملهما البناء — في البناء الاشتراكي .

ولقد أشار ماركس وانجلز ان القيادة تلازم ، بالضرورة ، كل مجتمع يحقق الانتاج على نطاق واسع أو ضيق ، ولذا فان لها مكانها في ظروف الرأسمالية أيضاً .

وكتب ماركس : « ان كل عمل اجتماعي ، مباشر أو مختلط ، على نطاق كبير يتطلب مثل هذه القيادة ، قليلاً كان ذلك أو كثيراً ، هذه القيادة التي تقيم التناسق بين النشاطات الفردية وتنفذ الوظائف العامة الناتجة عن حركة مجموع الجهاز الانتاجي خلافاً لحركة اجزائه المستقلة . فعازف الكمان المنفرد يقود نفسه أما الاوركستر فلا بد له من قائد » [١] .

وألمح ماركس وانجلز في الوقت نفسه الى محدودية القيادة وضيق نطاق الادارة في ظل الرأسمالية . ان البورجوازية فعالة جـداً ونموذجية في أحيان ليست بالقليلة في قيادة مؤسسات منفردة أو اتحادات وأحياناً فروع بكاملها في اقتصاد البـلاد أو مجموعة من البلدان . ولكنها لا يمكن ان

---

١ كارل ماركس – رأس المال ، ج ١ ، ص ٣٥٢ .

تقود بشكل مبرمج العمليات الاجتماعية – الاقتصادية ، وتطور المجتمع ككل . وسبب هـــذا هو سيادة الملكية الخاصة وفوضى السوق وقوانين الفوضى والمزاحمة التي تنفي امكانية التوجيه الهادف والقيادة المبرمجة لتطور المجتمع كله .

ان القيـــادة العلمية للعمليات الاجتماعية وللمجتمع ككل ، كما أشار ماركس وانجلز ، تصبح ممكنة بعد ان تنتصر الثورة الاشتراكية وتتوطد دكتاتورية البروليتاريا ، وبعد تصفية الملكية الخاصة التي تولد الفوضى ، وبعد ان يتم جعل الانتاج عاماً في جميع قطاعات الاقتصاد الوطني ، وبالكاد بعد ان تتم التغييرات الاشتراكية ، وتزول الفوضى ويتأمن التطور المبرمج للانتاج وسائر نواحي الحياة الاجتماعية . ان الأساس الاقتصادي للاشتراكية هو الملكية الاجتماعية الاشتراكية التي توحد الناس ، وتحولهم من جماهير مشتتة تعاني المزاحمة في ظروف الرأسمالية الى « انسان جماعي » ، « شركاء انتاج » ، توحدهم وتلغي الفوضى والمزاحمة وفوضى السوق وتخلق مقدمات البناء الشيوعي المبرمج .

لقد كتب ماركس في « رأس المال » : « ... ان أناس الاشتراكية ، المنتجين بشراكة ... يضبطون بشكل عقلاني ... عملية التبادل مـــع الطبيعة ، مخضعين أياها لسيطرتهم العامة ، وبدلاً من ان تسيطر هي عليهم كقوة عمياء ، سيقومون بها بأقل ما يمكن من جهد وبأكثر الظروف لياقة لطبيعتهم الانسانية وملاءمة لها »[1] .

لقد رأى ماركس في القيادة والضبط الواعين للانتاج ولجميع نواحي الحياة الاجتماعية « مملكة الحريـــة الحقيقية » للمجتمع والانسان ، وأوضح بهذا الصدد بأن هذه المملكة يمكن ان « تزدهر » فقط على أساس الضرورة

---

١ كارل ماركس – رأس المال ، الجزء ٣ ، ص ٨٣٥ .

والقوانين الموضوعية لتطور المجتمع المعروفة من قبل الانسان والموضوعة في خدمته .

وهكذا يبدو ان ماركس وانجلز قد حلا على أساس علمي صلد تلك المسائل الأساسية التي اكتفى الاشتراكيون الطوبويون بطرحها . فقد دللا أولاً ، على حتمية فناء الرأسمالية وانتصار الاشتراكية ، منطلقين في هذا ليس من نظرية منطقية وإنما من القوانين الواقعية للتطور الاجتماعي ، ومن تحليل الديالكتيك الموضوعي للرأسمالية . ثانياً ، انهما اكتشفا الرسالة التاريخية العظمى للطبقة العاملة ، المدعوة ، بالتحالف مع سائر جماهير الشغيلة ، إلى تحطيم الرأسمالية وإقامة المجتمع الاشتراكي الجديد . ثالثاً ، أشارا إلى طريق تحطيم الرأسمالية وإقامة المجتمع الجديد – النضال الطبقي والثورة الاشتراكية . رابعاً ، كشفا الجوهر الاجتماعي للانسان ومكانه في نظم العلاقات الاجتماعية ، وأشارا إلى اتجاه تطور الانسان ، وبينا ان المجتمع الشيوعي ليس هدفاً بذاته وإنما مجرد وسيلة لتحرير الانسان الشغيل وتطوره الشامل ، وان الانسان نفسه هو بذاته هدف الشيوعية . خامساً ، انهما دللا على ان العمليات الاجتماعية قابلة للقيادة ، وانها تحت سيطرة الارادة الانسانية ، وان نفس عملية الإطاحة بالرأسمالية وبناء الاشتراكية والشيوعية هي بالضبط قيادة واعية هادفة لتطور المجتمع ، مجرى حركة الانسان والبشرية نحو مملكة الحرية الحقيقية .

ومن الطبيعي ان دائرة القضايا التي طرحها وحلها مؤسسا الشيوعية العلمية لا يمكن ان تقتصر على هذا .

ومن الضروري ان نشير إلى خاصية للشيوعية العلمية هي ارتباطها الذي لا ينفصل ووحدتها العضوية مع النشاط الثوري والتطبيق . لنقف بتفصيل أكبر عند هذه المسألة .

الوحدة بين النظرية والنشاط الثوري

خلافاً للاشتراكيين الطوبويين الذين كانوا في غالبيتهم نظريين منقطعين عن نضال جماهير الشغيلة كان كارل ماركس وفريدريك انجلز ليسا نظريين وحسب ، بل قائدين للحركة الثورية المتعاظمة للطبقة العاملة ولجميع الشغيلة . لقد قدما كل عبقريتهما وطاقاتهما الخلاقة الهائلة وقابلياتهما التنظيمية الرائعة للقضية النبيلة ، قضية تحرير الشغيلة وإقامة الاشتراكية والشيوعية . ان ماركس وانجلز وقفا في مواقع الطبقة المضطهَدة : البروليتاريا ، وخلقا نظرية هي سلاحها الفكري في النضال الثوري ضد البورجوازية وضد الظروف الاجتماعية التي تحطم الانسان وتشوهه ، نظرية هي وسيلة جبارة لتغيير الواقع من قبل الانسان ولصالح الانسان . ان قوة الشيوعية العلمية هي في ارتباطها العضوي بالنشاط الثوري ، بالتطبيق ، وفي خدمتها نضال الطبقة العاملة وجميع الشغيلة ضد الرأسمالية ومن أجل الاشتراكية والشيوعية .

ان نظرية الشيوعية العلمية هي نتيجة لدراسة عميقة وتعميم ليس للعلم وحسب وإنما للتطبيق الاجتماعي – التاريخي وللنشاط الثوري للجماهير ، هذا النشاط الذي ساهم فيه مبدعا النظرية مساهمة مباشرة ونشيطة .

لقد أسس ماركس وانجلز عام ١٨٤٧ اتحاد الشيوعيين الذي استهدف توحيد الجماعات الشيوعية المشتتة وتنوير العمال سياسياً ومساعدتهم على استيعاب الأفكار الشيوعية . ان « بيان الحزب الشيوعي » الذي كتب من قبلهما ، بطلب من الاتحاد ، والذي أعلن ميلاد الشيوعية العلمية ، لم يكن مجرد وثيقة نظرية وحسب وإنما كان أول برنامج لأول حزب شيوعي في العالم . وانه لم يكتف بشرح جوهر التعاليم الجديدة وإنما دعا البروليتاريا إلى الوحدة باسم النضال لتحرير الانسان وتصفية الرأسمالية ثورياً .

ولأجل ان تستطيع البروليتاريا ان تبدو قوية في اللحظة الحاسمة وان

تنتصر يتوجب عليهـــا ــ كما كتب ماركس وانجلز في « البيـــان » ــ « يتوجب عليها ان تبني حزبها السياسي الخاص . هذا الحزب الذي هو طليعة الطبقة العاملة ، والذي يغلغل الافكار الشيوعية بين العمال ، وينظمهم ويقود نضالهم الثوري العملي .

ولقد كان ماركس وانجلز قادة الجمعية العالمية للعمال ــ الأممية الأولى التي قاما بتأسيسها في أيلول عام ١٨٦٤ والتي وحدت لأول مرة في التاريـخ بروليتاريين من بلدان أوروبية عديدة . ودخل فيها الثوريون الروس الذين أسسوا خلال عام ١٨٧٠ الفرع الروسي ، وقد مثل ماركس هذا الفرع في المجلس العام .

وضعت الأممية الأولى (١٨٦٤ ــ ١٨٧٢) أسس التنظيم العالمي للطبقة العاملة لتحضير النضال الثوري ضد الرأسمالية . وقـــد أوضح ماركس في البيان التأسيسي للأممية الأولى بأن الواجب العظيم أمام الطبقة العاملة أصبح أخذ السلطة السياسية الذي لا يمكن ان يتم الا بوحدة صفوفها وتلاحمهـا التنظيمي ، والا إذا ما استرشدت في نشاطها الثوري بنظريـــة علمية عن تطور المجتمع .

وخلال عام ١٨٨٩ وبمساهمة فعالة من قبل فريدريك انجلز كانت قد تأسست الأممية الثانية التي نشطت في البداية من أجل تلاحـــم الأحزاب العمالية ونشر الأفكار الماركسية بين الجماهير .

ان نشاطات الجماهير الثورية كانت دوماً موضع دراسة عميقة وتعميم من جانب ماركس وانجلز . من هـــذا مثلاً انهما عمما خبرة الثورات البورجوازية الديمقراطية في عامي ١٨٤٨ ــ ١٨٤٩ في غربـي أوروبا ، وكتبا ان الطبقة العامـــلة يجب ان لا تستسلم للأوهـــام القائلة بأن الجمهوريـــة البورجوازية يمكن أن تقضي على سيطرة رأس المال على العمل . وأكد بأن الثورة البورجوازية يمكن ان تتبعها ثورة بروليتارية هي الوحيدة القادرة

على تحرير الانسان الشغيل . وقد أوصل تعميم خبرة الثورة ، البورجوازية هذا الاستنتاج الذي هو أحد أحجار الزاوية في نظريـة الشيوعية العلمية .

وبحل هذه المسألة انبثقت مسألة أخرى ليست بأقل أهمية : بمـــاذا سيستبدل جهاز الدولة البورجوازية « المحطم » . ومرة أخرى جاء التطبيق وتجربة الجماهير الثورية ليعطيا الجواب لماركس وانجلز على هذا السؤال . ان البروليتاريا الباريسية التي قامت في ربيع عام ١٨٧١ بأول ثورة بروليتارية في العالم وأقامت دولة الشغيلة المشهورة بكومونة باريس ، هي التي أعطت النموذج الأول لدولة المستقبل ، الدولة القادرة على ان تحقق الانتقال من المجتمع القديم إلى الجديد . وكتب انجلز يقول : انظروا إلى كومونـــة باريس ، لقد كانت هذه دكتاتورية البروليتاريا »[1] .

ان رجال كومونة باريس قد حققوا عملياً مطالب الشيوعيين : طمحوا لتصفية العالم القديم المتفسخ ، المتقبح ، عالم الرأسمالية ، وسعوا لتثبيت سيطرة الانسان الشغيل ، وإلى تصفية استغلال الانسان للانسان وعملوا على رفع مبدأ كون العمل واجب الجميع كمبدأ ثابت . ان الكومونة أثارت مبادرة الجماهير بشكل لم يسبق له مثيل ، هذه الجماهير التي كانت – كما قال ماركس ، مستعـــدة لأن تقتحم السماء باسم المثل العليا . لم يقف ماركس وانجلز ، بعيدين عن هذا النضال ، فقد اعطيا النصائح لرجال الكومونة ووجهوا نحوهم نشاطهم الخلاق .

لقد هزمت الكومونة بفعل عوامل عديدة في مقدمتهـــا انعدام النضج النظري والتنظيمي لدى البروليتاريا وبسبب فقدان الحزب العمالي وعـــدم وجود صلة بجماهير الفلاحين . ولكن أهمية الكومونة بالنسبة للنظرية والتطبيق في الشيوعية العلمية لا تقدر .

---

١ كارل ماركس وفريدريك انجلز ، المؤلفات المختارة ، الجزء الأول ، ص ٥٥٦ .

ان ماركس وانجلز إذ عملا على اعداد نظرية الشيوعية العلمية وتحقيق القيادة الفعلية للحركة العمالية ، شنا نضالاً لا هوادة فيه ضد الايديولوجية البورجوازية ، وضد أولئك الذين يتسترون وراء التعابير الشيوعية الرنانة ويرجعون إلى وراء ، ويصبون الماء في طاحونة البورجوازية أرادوا ذلك أم لم يريدوا . وقد وقف ماركس وانجلز بصلابة ضد الفوضوية البورجوازية الصغيرة والانعزالية اللتين أراد ممثلوهما ان يعزلوا الطبقة العاملة وحزبها عن الجماهير الشعبية الواسعة . وأوضحا بأن الطبقة العاملة تستطيع ان تنتصر في معركتها القاسية ، التي هي معركة حياة أو موت ضد رأس المال ، فقط إذا ما وجدت الجماهير الشعبية حولها .

وعندما كان ماركس وانجلز على رأس اتحاد الشيوعيين شنا نضالاً حازماً ضد « اليساريين » الذين أرادوا القيام بأعمال ثورية فورية دون ان يبذلوا جهداً في تحليل التناسب الحقيقي للقوى الطبقية . وناضلا ضد المغامرة وضد التاكتيك التآمري ، الذي يهمل ضرورة التحضير الجدي الشامل للثورة وضرورة العمل الدؤوب العميق بين الشغيلة .

كما وقف ماركس وانجلز ضد اتباع الاشتراكية الطوبوية الذين واصلوا كالغرقى التمسك بالصيغ الطوبوية الشائخة دون أن يأخذوا ، بنظر الاعتبار ، التغيرات الهائلة في الحياة الاجتماعية وتعاظم فعالية الطبقة العاملة الثورية ، ومهملين المهام التي تواجههم . وقد سببت أضراراً كبيرة للطبقة العاملة خصوصاً النداءات التي دعت إلى اصلاح الرأسمالية دون المس بأسسها الاقتصادية والسياسية .

من ذلك مثلاً ان ماركس وانجلز شنا في السنوات الأولى من قيام الأممية الأولى الكفاح ضد أنصار السياسي الفرنسي البورجوازي الصغير برودون (١٨٠٩ — ١٨٦٥) وهم البرودونيون الذين كانوا خصوماً لكل نضال سياسي ولدكتاتورية البروليتاريا ، وكانوا يقولون ان تطور تعاونيات

المالكين الصغار سيؤدي إلى تحويل الرأسمالية إلى اشتراكية دون أي نشاط ثوري ودون ثورة . ومن المعروف ان التعاونيات في ظل الرأسمالية لا تحرر الشغيلة من الاستغلال .

وبعد ان حطم ماركس وانجلز البرودونيين وجها سهام نقدهما ضد الخطر الجديد الذي هدد الحركة العمالية – ضد ثورية البورجوازية الصغيرة وعلى الأخص ضد الفوضوية التي كان أحد مؤسسيها وقادتها اللاجىء الروسي م. أ. باكونين (١٨١٤ – ١٨٧٦) . لم يكن الباكونينيون – بالكلام – ضد الثورة ، ولكنهم في الواقع سببوا أضراراً هامة للحركة الثورية . وكانوا – برغبتهم في القيام بمؤامرات وانتفاضات فورية – قد حكموا مسبقاً على العمال غير المعدين بالهزيمة . لقد انكروا المقدمات الأقتصادية للثورة ، واعتبروا ان من الكافي ان يؤمن الشغيلة بحقهم ، وان تظهر مجموعة صغيرة من القادة الذين يملكون الحد الأقصى من الارادة حتى يكون انتصار الثورة مضموناً . ونظراً لأن الباكونينين كانوا يعتبرون الدولة شراً رئيسياً وليس رأس المال فقد أعلنوا الوقوف ضد دكتاتورية البروليتاريا . وتصوروا الشيوعية خليطاً من عدد من النواتات الأولية والمؤسسات غير المتغيرة ، الخالدة والتي لا تخضع لتأثير قوانين التطور الاجتماعي . لقد دلل ماركس وانجلز ، في نقدهما للباكونينين بأن الذاتية واهمال التطور الاجتماعي وجعل الارادة الانسانية مطلقة ، أمور لا تنسجم واعادة بناء المجتمع بصورة ثورية ، ولا تنسجم والقيادة الواعية للعمليات الاجتماعية . وكانا يريان ان نجاح الثورة ليس في حزم جماعة من الثوريين وليس بالضجيج السياسي وإنما بعمل دؤوب عنيد لرص صفوف الطبقة العاملة وبوعيها الثوري وتنظيمها العالي .

وبفضل جهود ماركس وانجلز اشغلت الماركسية ، الشيوعية العلمية منذ سبعينات القرن الماضي وضعاً مسيطراً في الحركة الثورية العالمية للطبقة

العاملة . لقد اتجهت الطبقة العاملة بانظارها نحو الماركسية التي أصبحت سلاحها النظري – الفكري الجبار .

٣ – المرحلة اللينينية في تطور الشيوعية العلمية

الطابع الخلاق للشيوعية العلمية

ان نظرية الشيوعية العلمية ، شأنها شأن الماركسية ككل ، ليست مجموعة من المبادىء المتحجرة المقبولة عن ثقة ، وإنما هي علم متطور خلاق . انها تعكس الواقع الموضوعي ، والحياة الاجتماعية بتناقضاتها وتعقيداتها وبحركتها وتطورها . ومن الطبيعي فإن الشيوعية العلمية لا يمكن ان تقف في مكانها ، انها تسير إلى أمام خطوة فخطوة مع الحياة المتبدلة دوماً ، وتغتني يومياً بالمنجزات الجديدة في حقل العلم والتطبيق العملي . ان الدراسة الأكثر انتباهاً للحياة نفسها والواقع والبحث المعمق الشامل للعمليات التي تجري سواء في العالم الرأسمالي أو في العالم الاشتراكي وتطوير الاستنتاجات النظرية وزيادتها دقة ، وتطبيقها وفقاً لمتطلبات الحياة ، كل هذه هي الملامح المميزة للشيوعية العلمية .

ان الشيوعية العلمية إذ تدرس وتعمم تطور المجتمع الرأسمالي ، واشتداد تناقضاته ومجرى تطور الحركة الشيوعية والعمالية والنضال الوطني التحرري والنضال من أجل الديمقراطية ، تعد طرق ووسائل قلب الرأسمالية وفقاً للظروف المتبدلة باستمرار ، ووفقاً للوضع الملموس . وان الشيوعية العلمية إذ تدرس تطور المجتمع الاشتراكي وتتابع وتعمم تجربة بناء الاشتراكية والشيوعية في مختلف الأقطار وأهمية ودور الأحزاب الشيوعية في هذا البناء ، فانها تعد بهذا طرق ووسائل بناء المجتمع الجديد المتجاوبة مع

المرحلة التاريخية الملموسة . وتستند الشيوعية العلمية في هذا على منجزات العلوم الاجتماعية الأخرى ، وتوحد هذه المنجزات وتضعها في خدمة التطبيق الثوري لإعادة البناء الشيوعي للعالم . ان الوحدة التي لا انفصام لها مع الحياة ، مع التطبيق هي بالضبط ما يحدد الطابع الخلاق لنظرية الشيوعية العلمية والماركسية اللينينية ككل .

لقد ظهرت الشيوعية العلمية في ظروف الرأسمالية الناهضة المتطورة . ولكن في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين طرأت على الظروف التاريخية تغيرات عميقة . تطورت الرأسمالية إلى مرحلتها العليا ـ الاستعمار . وبلغت التناقضات الاقتصادية والاجتماعية في ظل الاستعمار درجة من الحدة لم يسبق لها مثيل . وأخلت مرحلة التطور السلمي النسبي التاريخية مكانها لمرحلة عواصف اجتماعية وانقلابات ثورية .

ان عصر التدمير الجذري للعلاقات الاجتماعية قد تطابق تقريباً من حيث الزمن مع شروع البشرية في السير في طريق ثورة علمية ـ تكنيكية جديدة ، ترتبط بمنجزات ضخمة جداً في العالم والتكنيك ـ باكتشاف واستخدام الطاقة الذرية ، وبالتغلغل الواسع للعلم ، وخصوصاً الكيمياء ، في الانتاج ، وبتطور الأتمتة والالكترونيكا والتكنيك الصاروخي وغيرها . ان المنجزات العلمية ـ التكنيكية قد طرحت مسألة افلاس الرأسمالية التاريخي بكل حدتها ، الرأسمالية التي تتحول أكثر فأكثر إلى عائق لتطور البشرية الاجتماعي ، والعلمي ـ التكنيكي . ان الضرورة التاريخية التي تقضي باستبدال الرأسمالية بالاشتراكية أصبحت أكثر إلحاحاً . ومن الطبيعي تماماً ان الظروف الجديدة تتطلب انطلاقاً جديداً في حل القضايا الاجتماعية العامة وتتطلب تطويراً خلاقاً للماركسية . وكان من الضروري تعميم الخبرة الجديدة لحركة البروليتاريا الثورية وخبرة الحركات التحررية الوطنية والديمقراطية وأحدث منجزات العلم والتكنيك . لقد كان كل هذا ضرورياً

لدرجة كبيرة ذلك ان القوى المعادية للماركسية في الظروف الجديدة ، قد شددت من هجماتها ضد نظرية وتطبيق الشيوعية العلمية التي استحوذت أكثر فأكثر على عقول وقلوب الشغيلة في العالم أجمع .

في نهاية القرن التاسع عشر بدأ مركز الحركة الثورية والعمالية على وجه الخصوص ، بدأ بالانتقال إلى روسيا ، التي كانت قد تحولت إلى بؤرة لتناقضات الاستعمار . لقد نضجت في روسيا ثورة اشتراكية ، انها أصبحت موطن اللينينية – موطن الماركسية التي أغنيت وطورت في الظروف التاريخية الجديدة . ان التطور اللاحق للماركسية ، للشيوعية العلمية يرتبط بشكل وثيق بالقائد العظيم للبروليتاريا الروسية والعالمية وكل الشغيلة فلاديمير أليتش لينين (١٨٧٠ – ١٩٢٤) .

ان نشاط لينين في ميدان الماركسية والشيوعية العلمية هائل ومتنوع إلى درجة انه يمثل مرحلة كاملة في تطور الأفكار الشيوعية . وان المرحلة اللينينية في تطور الشيوعية العلمية تشمل عهداً يمتد منذ أواخر القرن الماضي حتى أيامنا هذه .

نظرية الشيوعية العلمية

يمكن القول بثقة تامة انه لا يوجد موضوع واحد من مواضيع الشيوعية العلمية لم يغن ويطور بشكل خلاق من قبل لينين ، ولم يلق عليه الضوء الباهر للعبقرية اللينينية .

ان مأثرة لينين التاريخية تكمن في ان نشاطه النظري كان مرتبطاً بشكل وثيق بنضال البروليتاريا الثوري وبتطبيق البناء الاشتراكي في الاتحاد السوفيتي . انه ليس فقط أغنى نظرية الشيوعية العلمية وطرح وحل العديد من القضايا النظرية الجديدة وإنما قاد أيضاً تحقيق مبادئها في الحياة . لقد

أعد لينين خطة لبناء الاشتراكية والشيوعية في بلادنا وكان حتى آخر حياته على رأس الحزب والشعب اللذين أبدعا في تحويل هذه الخطة إلى واقع حي. أن نجاح شعبنا في بناء المجتمع الجديد يرتبط ارتباطاً وثيقاً باسم لينين.

إن العصر التاريخي الجديد طرح أمام الطبقة العاملة وحزبها الماركسي مهمة مباشرة لاعادة بناء المجتمع بصورة ثورية، لتحطيم الرأسمالية وبناء الاشتراكية. ولذا فقد أولى لينين اهتماماً كبيراً وبذل جهداً هائلاً لتحليل قوانين التطور الاجتماعي وقبل كل شيء جوهر الاستعمار، ولتحليل التناقضات الحادة الملازمة له، ولاعداد الطرق ووسائل حلها من قبل القوى الثورية بقيادة الطبقة العاملة. وطور لينين نظرية الثورة الاشتراكية وأعد نظرية العملية الثورية المعاصرة التي تشمل ليس حركة الطبقة العاملة الاشتراكية وحسب وانما الحركة التحررية الوطنية ومختلف أنواع الحركات الديموقراطية المعادية للإستعمار أيضاً. وبالإنسجام مع خصائص الحركة الثورية في العصر الجديد أعد لينين ستراتيجي وتاكتيك نضال الطبقة العاملة الطبقي والحركة الشيوعية العالمية.

ولقد طور لينين التعاليم الماركسية عن دكتاتورية البروليتاريا وأشكالها، وعن مهمات الدولة البروليتارية ومصائر الدولة في الاشتراكية والشيوعية وعن الديموقراطية الاشتراكية. وصاغ نظرية الحزب من نوع جديد، الثوري الطراز، وأشار إلى مكان ودور هذا الحزب في تصفية المجتمع القديم وبناء المجتمع الجديد.

وفي مركز اهتمام لينين كان يقف باستمرار انسان العمل واعداد طرق ووسائل تحريره وتأكيد ذاته وتطوره. ان لينين إذ عمم وطور التعاليم الماركسية عن الاشتراكية والشيوعية لم يتصور المجتمع الجديد كهدف بذاته وانما فقط كشرط، كوسيلة لتحرير الانسان والارتقاء به. وقد اهتم غاية الاهتمام بمسألة كيفية جعل الاقتصاد ومنجزات العلم والتكنيك في خدمة

الانسان الشغيل ، وكيفية الارتقـاء بالعلاقات الاجتماعية لصالح الشغيلة وكيفية تنظيم الحياة الثقافية في المجتمع لضمان الازدهار الثقافي للإنسان واظهار امكانياته الخلاقة بلا حد وتطويرها على أكمل وجه

وأعد لينين أيضاً مسألة العلاقة بين الشروط الموصوعية والعوامل الذاتية للتاريخ في الظروف التاريخية الجديدة ، ظروف بناء المجتمع الشيوعي ؛ وأعد مبادىء الاستفادة الفعالة إلى أقصى حد من قوانين التطور الاجتماعي الموضوعية لصالح الانسان الشغيل . كما قام بإعداد المبادىء الأساسية لقيادة البناء الشيوعي مطوراً التعاليم الماركسية عن القيادة العلمية للعمليات الاجتماعية .

وقد احتلت مكاناً هاماً في مؤلفات لينين نظرية الثورة الاشتراكية التي كان لها تأثير كبير على المجرى اللاحق لتطور المجتمع وعلى مصير التاريخ الانساني .

ما هي الموضوعات الأساسية في النظرية اللينينية عن الثورة ؟

النظرية اللينينية عن الثورة الاشتراكية

لقد كشف لينين قبل كل شيء المكان التاريخي للإستعمار ، مبيناً أنه رأسمالية محتضرة في طريقها إلى الزوال . وإن التناقض الأساسي في الرأسمالية ، التناقض بين الطابع الاجتماعي للإنتاج والشكل الخاص للامتلاك يصل في الاستعمار إلى درجة كبيرة من الحدة ، وكتب لينين : « ان الاستعمار يؤدي بصورة مباشرة إلى جعل الانتاج اجتماعياً إلى أقصى درجات الشمول » ، ولكنه يحافظ على مبدأ الملكية الخاصة للتوزيع والاقتصادات الخاصة وعلاقات الملكية « القشرة لا تنسجم مع المحتوى والتي ستتفسخ حتماً .. والتي ستزال حتماً أيضاً » [1] . ذلك أن الاستعمار هو عشية الثورة الاشتراكيـة . ان الثورة الاشتراكية في ظروف الاستعمار ليست ممكنة فحسب بل هي ضرورية

---

١ لينين – المؤلفات ، الجزء ٢٢ ، ص ٢١٠ و ٣١٥ .

وحتمية وتواجه الطبقة العاملة كمهمة يومية مباشرة .

ان أهم حلقة في النظرية اللينينية عن الثورة الاشتراكية هي اكتشاف لينين امكانيـــة انتصار الاشتراكية في البداية في بلد واحد على انفراد . ولاثبات هذا الاكتشاف انطلق لينين من واقع أن تطور البلدان الرأسمالية أصبـح متغاوتـاً إلى حد كبير ، وبقفزات . فبعض البلدان التي كانت متخلفة في السابق تلحق بالبلدان المتقدمة وتتجاوزها من الناحية الاقتصادية والسياسية . إن توازن القوى يخرق ، وتنبثق الصراعات وتضعف الجبهة الموحدة للبلدان الرأسمالية . ونتيجة لكل هذا فان مواقع الرأسمالية العالمية تضعف ، وتظهر امكانية كسر سلسلة الاستعمار في أضعف حلقاتها .

كتب لينين : « ان تطور الرأسمالية يتم بدرجة عليا بشكل غير متساوٍ في مختلف الأقطار . ولا يمكن أن يكون بشكل آخر في الانتاج البضاعي . ومن هنا يأتي الاستنتاج الذي لا خلاف فيه : ان الاشتراكية لا يمكن أن تنتصر في آن واحد في جميع البلدان . انها تنتصر أولاً في بلد واحد أو عدة بلدان ، والبلدان الأخرى ستظل إلى وقت معين بلداناً بورجوازية أو ما قبل بورجوازية »[1] .

إن لينين إذ أشار إلى امكانية انتصار الاشتراكية في البـــداية في بلد واحد تنبأ بطريق التطور اللاحق للثورة الاشتراكية : تتابع انسلاخ بلدان جديدة عن سلسلة الاستعمار في حين تظـــل بلدان أخرى بورجوازية وما قبل بورجوازية . وقد تصور لينين انتقال البشرية من الرأسمالية إلى الاشتراكية ليس كحدث يتم مرة واحدة وانما عبارة عن عصر تاريخي كامل .

وإذ طور لينين النظرية الماركسية عن الثورة الاشتراكية كان قد أخذ بنظر الاعتبار اللوحة الشديدة التعقيد للعالم المعاصر : وجود بلدان ليست

---

١ لينين – المؤلفات ، الجزء ٢٣ ، ص ٧٧ .

فقط بورجوازية بل ما قبل بورجوازية أيضاً ، ووجود بلدان لم تنجز فيها بعد مهمات ذات طابع بورجوازي ديموقراطي ، بلدان مستعمرة ، ووجود مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية في كل بلد ... الخ ، وانطلاقاً من كل هذا توصل لينين إلى الاستنتاج بأنه لا يمكن أن توجد في عصر الاستعمار ثورات اشتراكية « صرفة » . وكتب يقول : لا يمكننا أن نفكر بأنه سيتألف جيش في مكان ما ويقول : « نحن إلى جانب الاشتراكية ، وفي مكان آخر جيش آخر يقول : « نحن إلى جانب الاستعمار » — وتكون هذه ثورة اجتماعية . إن من ينتظر مثل هذه الثورة الاجتماعية « الصرفة » فإنه لن يراها مطلقاً ، إنه ثوري بالكلام وليس بالفعل . لقد اعتبر لينين العملية الثورية كانفجار « النضال الجماهيري لكل المضطهدين والمتذمرين » [1] . ان هذه العملية تشمل الحركة العمالية والحركة الفلاحية وحركة التحرر الوطني ومختلف الحركات الديموقراطية المعادية للاستعمار .

وقد أوضح لينين ، ارتباطاً بهذا ، ضرورة الحلف المتين بين الطبقة العاملة وكل القوى الثورية التي تقوض الاستعمار ، وناضل بدأب ضد الانعزالية وضد عزل الطبقة العاملة عن سائر الشغيلة والقوى الديموقراطية . ولم يتحدث لينين بهذا الصدد ، عن الحلف بشكل عام وانما عن حلف يكون الدور الطليعي فيه للطبقة العاملة التي رأى فيها لينين القوى الثورية الرئيسية .

ولم يفكر لينين مطلقاً بأن أي انفجار ثوري في أي بلد يجب أن يكون اشتراكياً وأن يؤدي إلى دكتاتورية البروليتاريا ، رغم انه لم يستبعد مثل هذه الامكانية بالنسبة للعديد من البلدان . أما في البلدان ما قبل البورجوازية ، في البلدان المستعمرة أو التي توجد فيها بقايا اقطاعية قوية ، وكذلك في البلدان التي لم تتم فيها التحولات البورجوازية الديموقراطية فان الثورة الاشتراكية يمكن أن تسبقها ثورة بورجوازية ديموقراطية أو

---

١ لينين — المؤلفات ، الجزء ٢٢ ، ص ٣٧٢ .

ثورة تحررية وطنية تتحول في ظل ظروف ملائمة إلى ثورة اشتراكية . لقد عرض لينين مسألة تحول الثورة البورجوازية الديمقراطية إلى اشتراكية في كتابه « تاكتيكان للاشتراكية الديمقراطية في الثورة الديمقراطيــة » . وطور لينين أيضاً فكرة امكانية التطور الاشتراكي بالنسبة للبلدان التي لم تدخل مرحلة البورجوازية وعند وجود اشتراكية ظافرة في بلدان أخرى .

قائد للشيوعيين في العالم

ان لينين هو مؤسس حزب من نوع جديد ، حزب شيوعي ثوري. وقد انطلق لينين في تأسيس الحزب من انه في ظروف نضوج المقدمات الموضوعية للثورة فإن الدور الحاسم يعود للعامــل الذاتي في التاريـخ – لوعي وتنظيم الطبقة العاملة وجماهير الشغيلة . وان الحزب بالذات ، كطليعة للطبقة وباعتباره فصيلتها الأكثر وعياً وتنظيماً ، هو الذي يؤمن تلاحــم وتنظيم الطبقة العاملة ويسلحها بالنظرية الثورية الطليعية وبستراتيج وتاكتيك الحركة الثورية . وتحت قيادة الحزب الشيوعي حطــم العمال والفلاحون الرأسمالية في روسيا وأقاموا أول دولة اشتراكية في العالم .

لقد كان لينين قائداً ليس للطبقة العاملة الروسية فحسب بل قائــداً للطبقة العاملة العالمية وللشغيلة في كل أنحاء العالم . وكان شديــد الاهتمام بمصائر الحركة الشيوعية العالمية المعاصرة التي أسسها وقادهــا ، إذ كان المبادر لتأسيس الأممية الشيوعية الثالثة التي حلت محل الأممية الثانيــة التي غرق قادتها في مستنقع الانتهازية وخانوا مصالح الطبقة العاملة . وإذ فضح لينين الجوهر الخياني للاشتراكية الاصلاحية ، أوضح الطابع الأممي للحركة الشيوعية وسعى لرص القوى الشيوعية على الصعيد العالمي .

ومنذ الثاني حتى السادس من آذار (مارس) ١٩١٩ انعقد في موسكو

عاصمة الدولة الاشتراكية الفتية (المؤتمر التأسيسي) الأول للأممية الثالثة التي لعبت دوراً مرموقاً في تطوير الحركة الشيوعية العالمية . ان الأممية الثالثة وحدت قوى الشيوعيين في العالم على الأساس الفكري للماركسية اللينينية ، وأعدت ستراتيج وتاكتيك الحركة العمالية في الظروف التاريخية الجديدة وساعدت على تشكيل وتطور الأحزاب الشيوعية الفتية حيث زودتها بخبرة النضال الثوري ، وشنت نضالاً دؤوباً ضد الانتهازية بجميع أنواعها وأشكالها . وأظهرت الأممية تأثيراً على حركة التحرر الوطني وعلى نضال الجماهير الشعبية الواسعة من أجل الديمقراطية ووقفت في مركز نضال الشعوب من أجل السلم .

مناضل من أجل نقاوة الاشتراكية

ان لينين ، إذ طور نظرية الشيوعية العلمية وقاد النضال الثوري للشغيلة وبناء الاشتراكية ، ناضل بلا كلل من أجل نقاوة النظرية الماركسية ضد الايديولوجيا البورجوازية وعملائها ، ضد المثالية واللاهوتية وصد الانتهازية ، وبكلمة ، ضد أولئك الذين شوهوا وزوروا الماركسية وسعوا إلى استغلالها ، بعد ان شوهوها ، لصالح البورجوازية .

لقد وقف لينين منذ بدأ نشاطه ضد الايديولوجيا الشعبية الليبرالية في روسيا في الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي . ان الشعبيين رفضوا الاعتراف بقانونية نشوء الرأسمالية في روسيا ، وأعلنوا وقوفهم بوجه نضال البروليتاريا الطبقي ضد البورجوازية ، وانكروا دور البروليتاريا الثوري في المجتمع . ووضعوا آمالهم الرئيسية في الفلاحين الذين رأوا فيهم الحامل الوحيد للاشتراكية ، دون ان يدركوا ان الفلاحين لا يمكن ان يتحرروا من نير الملاكين الكبار الا تحت قيادة البروليتاريا . وفهم الشعبيون تطور التاريخ فهماً مثالياً ، وانكروا الدور الحاسم للعوامل الاقتصادية في مجرى

التاريخ ، وأعطوا الدور الحاسم في التاريخ لا للجماهير الشعبية وإنما لـ « الأبطال » والشخصيات الفذة .

وبعد ان أثبت لينين بأن انطلاق روسيا في طريق التطور الرأسمالي أمر قانوني ، كشف عن التمايز الاجتماعي في صفوف الفلاحين وانقسامهم إلى فئات متعددة ، وأعد تاكتيك الطبقة العاملة تجاه مختلف هذه الفئات . لقد رأى لينين في الفلاحين حليفاً مضموناً للبروليتاريا في نضالها ضد الرأسمالية ومن ثم في بناء المجتمع الاشتراكي .

ولعب نضال لينين ضد التيارات المعادية للماركسية ، التيارات الانتهازية اليمينية واليسارية ، دوراً هائلاً في تطوير نظرية وتطبيق الشيوعية العلمية . وقد حدد لينين طابع الانتهازية اليمينية ، أو الاصلاحية ، باعتبارها « اصلاحية بورجوازية صغيرة ، أي خنوع أمام البورجوازية مغطى بتعابير ديمقراطية جميلة و « اشتراكية » ديمقراطية ، وتمنيات عاجزة »[1] .

ان التحريفية تخلت عن تعاليم الماركسية الاقتصادية والفلسفية ، واستأصلت جوهرها الثوري واستبدلتها بأفكار الاصلاحية البورجوازية . وتخلت التحريفية أيضاً عن التعاليم الماركسية عن الطبقات والصراع الطبقي وعن الثورة الاشتراكية ودكتاتورية البروليتاريا ، وشوهت التعاليم الماركسية عن الحزب وعن طرق بناء الاشتراكية . ومما هو ذو دلالة انها قامت بهذا كله تحت قناع زائف بأنها تدافع عن الماركسية وانها تطورها إلى أمام . ان خطر التحريفية كان كبيراً جداً ، ذلك انها في بداية القرن العشرين اكتسبت طابعاً عالمياً ، وكانت قد انتشرت في جميع الأحزاب الاشتراكية العمالية ، وأصبحت في الواقع الايديولوجيا الرسمية للأممية الثانية .

اما الانتهازية اليسارية ، فانها على خلاف الانتهازية اليمينية لم تبشر

---

١ لينين – المؤلفات ، الجزء ٣٣ ، ص ١ .

بالأفكار الاصلاحية . بل على العكس فانها أشاعت التعابير الثورية الفارغة دون ان تهتم أدنى اهتمام بتحليل الظروف التاريخية وتناسب القوى الطبقية .

ورغم التناقض الظاهري بين الانتهازية اليمينية واليسارية فإن بينهما أشياء مشتركه كثيرة ، إذ يجمعهما نفس الجوهر الطبقي البورجوازي الصغير ، ومعاداتهما للماركسية وللشيوعية العلمية وللحركة العمالية الثورية ، وكونهما حملة التأثير البورجوازي في صفوف الطبقة العاملة بنفس الدرجـــة . ان اصلاحية اليمينيين وكذلك مـــا فوق الثورية ، أي في الواقـــع مغامرة اليساريين ، وفقدان الصلابـــة الثورية لدى هؤلاء وأولئك تجلب أضراراً كبيرة لقضية الثورة والاشتراكية ، ذلك انها تحكم مسبقاً على الطبقة العاملة بالاستسلام والهزيمة أمام البورجوازية .

وقد عارض لينين الجوهر التوفيقي الاستسلامي للانتهازيـــة بالماركسية الثورية الخلاقـــة . وناضل ليس فقط ضد الانتهازيين الروس اليمينيين (« الاقتصاديون » والتصفويون والمنشفيك) واليساريين (الاوتزوفيون [1] و « الشيوعيون اليساريون » والتروتسكيون) ، وإنما أيضاً ضد الانتهازية في الحركة العمالية ككل . ان هـــذا النضال كنموذج للحزبية العالية في النشاط النظري لا يـــزال حتى اليوم يسلح الشيوعيين في نضالهـــم ضد التحريفية المعاصرة .

١ « وهم الذين كانوا يريدون سحب (استدعاء) ممثلي الحزب في البرلمان والمنظمات العلنية والاكتفاء بالعمل السري فقط – المترجم » .

ان نظرية الشيوعية العلمية هي علم حزبي يعكس باستمرار مصالح الطبقة العاملة والشغيلة أجمع . وهي تتطور في خضم نضال لا هوادة فيه ضد الايديولوجية البورجوازية وقبل كل شيء ضد ايديولوجيا معاداة

الشيوعية ، التي أصبحت السلاح الفكري الرئيسي للاستعمار . ان الافتراء على الاشتراكية وتزييف سياسة وأهداف الأحزاب الشيوعية وتعاليم الماركسية اللينينية — هــذا هو المحتوى الرئيسي لمعــاداة الشيوعيــة . وتستخدم البورجوازية ، في صراعها ضد الأفكار الشيوعية ، مبالغ طائلة وجهازاً هائلاً ، ولكن الحياة نفسها والتطبيق العملي يدللان على القوة العظيمة لهذه الأفكار . ان التاريخ يظهر باقناع يوماً بعد يوم انتصار الشيوعية العلمية ، التي لها المستقبل .

الفَصلُ الثَاني

طابع العصر الراهن :

تحول النظام الاشتراكي
الى عامل حاسم في التطور العالمي

لم تعد الاشتراكية علماً فقط أو مجرد نظرية . انها تطبيق ، وواقع ماثل ومجتمع حقيقي يشيد على مساحات شاسعة من الكرة الأرضية . لقد ترسخت الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي وفي العديد من البلدان الأخرى ، وأضحى الانتقال إلى الاشتراكية والشيوعية هو طريق تطور البشرية جمعاء . ان العصر الذي نعيش فيه هو بالضبط عصر تحرك البشرية نحو المستقبل الشيوعي الوضاء . فلنبين طابع عصرنا ولنبحث في القوى الثورية الأساسية لهذا العصر .

١ ـ طابع العصر الراهن

ان التطور التقدمي للمجتمع ينبغي ان لا يفهم على انه عملية تتم في

وقت واحد ، وتبدل يحدث مرة واحدة لنظام بنظام آخر في جميع بلدان العالم . فنظراً لاختلاف الظروف الداخلية لتطور كل بلد وظروفه الخارجية فان الانتقال من نظام اجتماعي — اقتصادي إلى آخر يتم في البلدان المختلفة في أوقات مختلفة . ولذا فإن المجتمع ككل ، في كل مرحلة معينة من مراحل تطوره يمثل لوحة شديدة التعقيد من التشابك والتفاعل والتصارع بين مختلف الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية ، ومختلف الطبقات والفئات الاجتماعية والأمم والدول . ولنأخذ البشرية في هذا العصر مثلاً فثلثها يبني الاشتراكية والشيوعية في حين لا يزال ثلثاها الآخران يعيشان في بلدان غير اشتراكية . وتوجد بين البلدان غير الاشتراكية بلدان رأسمالية متطورة ، استعمارية ، وتوجد بلدان لا تزال في مرحلة ما قبل الرأسمالية وهكذا . وفيما عدا ذلك فان ملايين الناس ، أفريقيين في الغالب ، ما زالوا يعيشون تحت النير الكولونيالي . ان هذا الوضع للمجتمع ككل في مرحلة تاريخية معينة من تطوره هو ما يعبر عنه مفهوم « عصر » .

ان مفهوم عصر يضم مختلف الظواهر في تاريخ البشرية مؤكداً قبل كل شيء على ما هو أساسي وعام ومميز . لقد أراد لينين ان نحدد في كل عصر ما هو « مميز » وما هو « غير مميز » ولذا فقد كان يعير اهتماماً خاصاً باستمرار لتحليل ما هو مميز . ان العثور على ما هو مميز ، الرئيسي موضوعياً والأساسي في الظاهرة التاريخية أي تحديد الاتجاه السائد في تطور البشرية خلال مرحلة معينة والاشارة إلى الطبقة التي تحمل هذا الاتجاه وتعبر عنه ، إنما هو شرط هام جداً لتحديد العصر التاريخي المعين . لقد كتب لينين يقول : « اننا لا نستطيع أن نعرف بأية سرعة وبأي نجاح ستتطور الحركات التاريخية المنفردة في عصر معين . ولكننا نستطيع ان نعرف ونعرف بالفعل أيه طبقة تقف في مركز هذا العصر أو ذاك محددة محتواه واتجاه تطوره الرئيسي والخصائص الرئيسية للوضع التاريخي

في عصر معين .. »[1] ذلك انـه من أجل تبيان طابع عصرنا ، من الضروري قبل كل شيء تحديد وجهة سير البشرية في أيامنا والطبقة التي تجسد هذا السير .

المحتوى الأساسي للعصر الراهن

ان ايديولوجيي البورجوازية التي تغادر مسرح التاريخ ، والذين اعمتهم مصالحهم الطبقية ولا يمتلكون طريقة علمية للمعرفة لم يثبتوا القدرة على تشخيص الاتجاه في خضم تنوع وتعقد الأحداث الاجتماعية في عصرنا . فبعضهم يعلن مباشرة انه ليس من الممكن تحديد طابع عصرنا ، ومعرفة إلى أين تسير البشرية المعاصرة ، ذلك ان الأحداث الاجتماعية غير محددة ومتحركة ، ولا تخضع لتقدير موضوعي غير متحيز . ومما يعكس هذا بصورة خاصة موقف مؤلفي كتاب « أين نوجد الآن ؟ » الصادر في ألمانيا الغربية ، حيث يزعم أحـد مؤلفي الكتاب هـ. شيلسكي اننا إذ نجيب على سؤال « أين نوجد الآن ؟ » يعني اننا نحدد طابع عصرنا ، وهذا يعني أولاً وقبل كل شيء ان نجـد ذلك الشيء الذي بواسطته يجب ان نحكم على المكان التاريخي للبشرية اليوم . ولكن هذا الشيء الذي يشير اليه شيلسكي هو حسب مفهومه غير محدد ولا يمكن الامساك به لدرجة انـه لا داعي للاهتمام بتحديده . وبالتالي فإن الناس ليسوا في وضع يمكنهم من اعطاء تقدير صائب للزمن الذي يعيشون فيه ولأن يؤثروا أو يسلكوا بما يلائم روح هذا الزمن أي أن يحلوا قضايا العصر الملحة .

وتحاول طائفة أخرى من السوسيولوجيين (علماء الاجتماع) البورجوازيين ان يبرهنوا بأن طابع العصر يتحدد بالاكتشافات التكنيكية والطاقة الذرية

---

١ لينين – المؤلفات ، الجزء ٢١ ، ص ١٣٦ .

قبل كل شيء . ويضع هؤلاء السوسيولوجيون في مركز عصرنا تماماً ... القنبلة الذرية ، ويسمون العصر نفسه « قرن التكنيك » . « قرن الذرة » ، « قرن القنبلة الذرية » . وقد كتب ، مثلاً ، الفيلسوف الألماني الغربي ك . جاسبرز يقول : « ان الوضع الجديد خلقته القنبلة الذرية » .

ولكن تطور المجتمع لا يمكن أن تقصره على التكنيك والاكتشافات التكنيكية ، رغم انها تلعب دوراً هاماً في التطور الاجتماعي خصوصاً في ظروف الثورة العلمية التكنيكية المعاصرة . ولدى تقدير دور التكنيك ينبغي أن نتذكر بأن تأثيره على المجرى التاريخي لا يبرز بذاته فقط وانما من خلال النظام المعقد للعلاقات الاجتماعية وقبل كل شيء لعلاقات الإنتاج السائدة في المجتمع . فهذه العلاقات بالضبط ، والقوى الطبقية التي تقف وراءها هي التي يجب أن تؤخذ بالحسبان قبل كل شيء لدى تحليل العصر الراهن .

إن الماركسية اللينينية وحدها أثبتت انها في وضع يمكنها من اكتشاف طابع العصر الراهن . ان محتوى العصر الجديد الذي بدأ في التاريخ العالمي كما قال لينين هو « تحطيم الرأسمالية ومخلفاتها واقامة أسس النظام الشيوعي ... » [1] .

لقد كان مفهوم لينين عن الانتقال الثوري من الرأسمالية إلى الاشتراكية والشيوعية انه ليس حدثاً يتم مرة واحدة ، وانما هو عصر تاريخي كامل من النضال بين نظامين اجتماعيين متضادين . واعتبر عن حق الطبقة العاملة العالمية ، رائد العصر الجديد ، الذي ترتبط بدايته بثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى التي أقامت لأول مرة في تاريخ العالم دكتاتورية هذه الطبقة . وكان لينين على يقين بأن دكتاتورية البروليتاريا ستتحول من وطنية حققت النصر

---

١ لينين – المؤلفات ، الجزء ٣١ ، ص ٣٩٩ .

في بلد واحد فقط إلى أممية ، عالميـــة ، ذلك ان شعوباً ودولاً جديدة وجديدة ستسير بالتدريج في طريق التطور الاشتراكي .

ان التحديد اللينيني للعصر الراهن كان قد طور فيما بعد بصورة شاملة في اجتماع موسكو لممثلي الأحزاب الشيوعية والعمالية (تشرين الثاني — نوفمبر ١٩٦٠) وفي برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي . وقد جاء في هذا البرنامج « أن العصر الراهن الذي يشكل الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكيـــة محتواه الأساسي هو عصر النضال بين نظامين اجتماعيين متضادين ، عصر الثورات الاشتراكية والوطنية التحررية ، عصر انهيار الاستعمار وتصفية نظام الحكم الاستعماري (الكولونيالية) ، عصر انتقال شعوب جديدة وجديدة إلى طريق الاشتراكية ، عصر انتصار الاشتراكية والشيوعية على الصعيد العالمي ، وفي مركز العصر الراهن تقف الطبقة العاملة ووليدها الرئيسي — النظام الاشتراكي العالمي » .

ان هذا التعريف للعصر الراهن قـــد أكده كل مجرى تطور البشرية المعاصرة والتطبيق العملي لنضال الشعوب الثوري التحرري .

ويعكس التعريف الأحداث الحاسمة في زماننا — انتصار الثورة الاشتراكية في مجموعة كبيرة من البلدان وتحول الاشتراكية إلى نظام عالمي جبار وأزمة وسقوط الاستعمار وانهيار النظام الكولونيالي .

ثورة اكتوبر — بداية العصر الراهن

الخامس والعشرون من تشرين الأول — اكتوبر ١٩١٧ ، في ذلك اليوم أقام العمال الروس بالتحالف مع الفلاحـــين الشغيلة ، دكتاتورية البروليتاريا ، وقد دخل هذا اليوم في التاريخ كبداية للعصر الراهن ، عصر الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية ، وبهذا الصدد كتب لينين يقول : « إن من حقنا إن نفخر لأنه كان من نصيبنا أن نبدأ بناء الدولة السوفييتية ،

وأن نبدأ بذلك العصر الجديد في التاريخ العالمي ، عصر سيطرة الطبقة الجديدة ، المضطهَدة في جميع البلدان الرأسمالية والسائرة في كل مكان نحو حياة جديدة ، نحو الانتصار على البورجوازية ، نحو دكتاتورية البروليتاريا ؛ وتحرير البشرية من نير الرأسمال والحروب الاستعمارية » [1] .

ان إحراز السبق في بناء المجتمع الجديد كان عملاً صعباً جداً . ذلك أن النضال ضد الحكم المطلق وملاكي الأراضي والرأسمالية في العهد الذي سبق الثورة كان قد أودى بحياة الكثيرين من خيرة أبناء الشعب الشغيل والحزب . ولقد بذل الشيوعيون جهوداً كبيرة من أجل توحيد الطبقة العاملة وكل القوى الثورية ، ومن أجل تنظيمها وتصليبها وزجها في النضال ضد النظام الاستغلالي . واجتاز العمال والفلاحون الروس مدرسة النضال القاسية قبل أن يقوموا بالثورة تحت قيادة الحزب . وكانت صيانة منجزات اكتوبر العظيمة وصيانة أول دولة للشغيلة في العالم قد تطلبت منهم جهوداً أكبر وتضحيات أعظم . ان النشاطات البطولية للحزب الشيوعي والطبقة العاملة والشغيلة في روسيا في النضال ضد النظام القديم هي حتى اليوم مثال ملهم لجميع المناضلين من أجل المستقبل الاشتراكي الجديد .

ان ثورة أكتوبر ذاتها كانت ثورة روسية ، ثورة انتصرت في بلد واحد ، وبهذا المعنى فانها قضية داخلية ، وطنية تخص شعوب روسيا . وفي الوقت نفسه فانها قد خرجت عن نطاق بلد واحد ، وأثرت تأثيراً هائلاً على كل مجرى التاريخ العالمي . لقد وضعت وحلت بنجاح العديد من القضايا الاجتماعيــة التي تحلها الطبقة العاملة والشغيلة في البلدان غير الاشتراكية ، وكانت تأكيداً عملياً على صحة الماركسية اللينينية ، وأغنت الطبقة والشغيلة في جميع الأقطار بتجربة لا تثمن في النضال ضد الرأسمالية

---

[1] لينين – المؤلفات ، الجزء ٣٣ ، ص ٣٦ .

ومن أجل الاشتراكية . انها مهدت الطريق أمام البشرية نحو المجتمع الجديد الاشتراكي . ووضعت نهاية السيطرة التامة للرأسمالية في العالم ، وشطرت العالم إلى نظامين متضادين — رأسمالي واشتراكي ، الأمر الذي بنتيجته تبدل كل سير تطور التاريخ البشري .

وبانتصار ثورة أكتوبر دخلت الرأسمالية في الأزمة العامة التي ترتبط باشتداد جميع تناقضاتها ، وبضيق مجال الاستغلال الرأسمالي . لقد اتسعت امكانيات النضال الثوري للشغيلة في العالم أجمع ، ذلك انهم وجدوا في شخص أول دولة للطبقة العاملة حليفاً جباراً وسنداً أميناً .

ان انتصار ثورة أكتوبر كان حافزاً قوياً لتطور الحركة العمالية . فتحت تأثيرها المباشر نهض عمال العديد من البلدان وفي مختلف أنحاء العالم ، للنضال ضد الاستغلال . واندلعت الثورات في ألمانيا والنمسا والمجر وغيرها من البلدان ، وانطلقت النضالات الجماهيرية الثورية البروليتاريين في أوروبا وأمريكا .

وعلى مثال الحزب الذي أنشأه لينين وتحت تأثير انتصاره انبثقت عشرات الأحزاب الماركسية في أوروبا وآسيا وأفريقيا وأمريكا التي اتحدت تنظيمياً في الأممية الشيوعية الثالثة . لقد وضعت الأممية الثالثة بداية الحركة الشيوعية المعاصرة وكانت مدرسة جيدة لنضال الشيوعيين الثوري ضد البورجوازية في جميع أنحاء العالم .

وأيقظت ثورة أكتوبر شعوب المستعمرات والأقطار التابعة التي سرت فيها موجة جبارة من الثورات الوطنية التحررية . وبهذا وضعت بداية انهيار نظام السيطرة الاستعمارية (الكولونيالية) وخلقت مقدمات التحرر الكامل للشعوب المضطهدة .

وهكذا نرى أنه نتيجة لثورة اكتوبر الاشتراكية أو تحت تأثيرها المباشر انبثقت القوى الثورية الأساسية للعصر الراهن ، والأمر الرئيسي —

وضع بداية توحيدها في عملية ثورية عالمية موحدة ، تقوض وتهدم الاستعمار .

لنقف عند العملية الثورية العالمية في أيامنا ، وقواها المحركة الأساسية .

العملية الثورية العالمية وقواها المحركة الأساسية

أن العملية الثورية العالمية المعاصرة – عملية انتقال البشرية من الرأسمالية إلى الاشتراكية – هي تيار موحد للنضال ضد الاستعمار تصب فيه جهود شعوب النظام الاشتراكي التي تبني الاشتراكية والشيوعية ، والحركة الثورية للطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية ، وحركة التحرر الوطني ونضال الشعوب المضطهدة ضد نظام السيطرة الاستعمارية ، من أجل السيادة الوطنيـــة والاستقلال الاقتصادي .

وتساهم في كل من هذه الحركات طبقات خاصة وفئات اجتماعيـــة ، وتحل كل منها مهامها الحسية وتستخدم لهذا الحل وسائل وأساليب خاصة ، ولكنها جميعاً تقوض أسس الاستعمار ، وتجسد بهذه الدرجة أو تلك حركة الانسانية نحو المستقبل الشيوعي السعيد . ان وحدة القوى الثورية المعاصرة هي ضمانة نجاح القضية العظمى ، قضية السلم والتقدم والاشتراكية .

ان شعوب بلدان النظام الاشتراكي تبني الاشتراكية والشيوعية فاتحة الطريق للبشرية نحو المجتمع الجديد ،

وتناضل

من أجل أعلى انتاجية عمل في العالم وأعلى مستوى حياة للشغيلة . انها تجسيد للقوى المادية والروحية الجبارة التي تعارض الاستعمار الرجعي وتقف مدافعة عن السلم والاشتراكية والتقدم الاجتماعي .

وان الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية تستخدم الظروف العالمية والداخلية الملائمة (تحول تناسب القوى على الصعيد العالمي لصالح الاشتراكية ، التذمر العميق من جانب الجماهير الشعبية الواسعة ضد سياسة الاستعمار الرجعية

وغيرها) لتوسع النضال ضد نير الاحتكارات الاقتصادي والسياسي ، ومن أجل الاشتراكية والسلم وأمن الشعوب ، ومن أجل التحولات الاجتماعية العميقة . وهي إذ تقوض أسس الرأسمالية من الداخل وفي عقر دارها - كما يقال - فانها تهيء وتسرع عملية الفناء النهائي للرأسمالية العالمية .

وان شعوب البلدان النامية وكذلك شعوب البلدان المستعمرة والتابعة إذ تناضل بدأب من أجل الاستقلال السياسي والاقتصادي والازدهار والتقدم الاجتماعي ، وإذ تحطم نظام السيطرة الاستعمارية وتقوض مؤخرة الاستعمار حارمة إياه من مصادر المواد الأولية وقوة العمل وأسواق التصريف ، من القواعد الحربية و « لحوم المدافع » ، فانها تساعد على فناء الرأسمالية ، ودفع البشرية نحو الاشتراكية .

وتقف في مركز القوى الثورية في عصرنا الطبقة العاملة ووليدها وثمرة كفاحها الطويل وعملها - النظام الاشتراكي العالمي الذي يتحول الآن ، أكثر فأكثر ، إلى عامل حاسم في التاريخ الانساني .

فلنبحث أولاً ظهور وتطور النظام الاشتراكي العالمي ، ومن ثم دوره في حل القضايا العالمية .

٢ - ظهور وتطور النظام الاشتراكي العالمي

ظهور النظام الاشتراكي العالمي

لقد ظهرت أول دولة اشتراكية في العالم نتيجة لثورة اكتوبر في روسيا . وفي عام ١٩٢١ قامت الجمهورية المنغولية الشعبية ، التي سارت في طريق التطور الاشتراكي بمساعدة شعوب الاتحاد السوفييتي . وبعد

الحرب العالمية الثانية انفصلت عن النظام الرأسمالي عــدة بلدان في وسط وجنوب شرقي أوروبا وفي آسيا ، وتخلصت شعوبها ، نتيجة نضالها الدؤوب وثورتها ، من سيطرة الرأسمالية ، وانطلقت في طريق بناء الاشتراكية . وفي عام ١٩٥٩ توهج أول فنار للاشتراكية في نصف الكرة الغربي حيث أصبحت كوبا البطلة عضواً في الأسرة الاشتراكية .

ان عمر النظام الاشتراكي العالمي ليس بالكبير ولكنه ينمو بسرعــة ويتطور ويضاعف قواه . وفي الواقع ، بينما كان النظام الاشتراكي العالمي في عشية الحرب العالمية الثانيــة يشغل ١٧٪ من مساحة اليابسة ، يشغل الآن ٢٦٪ ، وبينما كانت نفوسه حوالي ٩٪ من سكان العالم فإن نفوســه الآن تزيد على ٣٥٪ من هؤلاء السكان . ان النظام الاشتراكي العالمي يضم الآن ١٤ دولة كبيرة وصغيرة تمتد على مساحات شاسعة من أوروبا وآسيا وأمريكا اللاتينية .

واليوم ، في عصر التنامي المستمر لقوى الاشتراكية فإن طريق الاشتراكية مفتوح لكل بلد ، بصرف النظر عن مستوى تطوره ، وموقعه الجغرافي وحجم أراضيه وعدد سكانه . وان شعوب العديــد من البلدان في آسيا وأفريقيا المتحررة من نير العبودية الاستعمارية تعلن عن عزمها على السير في طريق السلام والتقدم ، طريق الاشتراكية . ان كل هذا يدلل على ان الطريق الرحب الذي مهده الناس السوفييت نحو الاشتراكية تسير فيه في عصرنا شعوب كثيرة وستسير فيه جميع الشعوب ان عاجلاً أو آجلاً .

علاقات من نوع جديد بين الدول

ان النظام الاشتراكي العالمي يمثل مجموعة اجتماعية واقتصادية وسياسية لشعوب حرة ذات سيادة ، تسير في طريق الاشتراكية والشيوعية توحدها

مصالح وأهداف مشتركة وروابط تضامن اشتراكي عالمي وثيقة . ان هذه علاقات اقتصادية وسياسية من نوع جديد بين الدول ، تقوم على أساس من الوحدة الوثيقة في المصالح الاقتصادية والسياسية والفكرية . ان الاساس الاقتصادي للأسرة الاشتراكية هو الملكية الاجتماعيـــة لوسائل الانتاج . والأساس السياسي هو سلطة الشعب بقيادة الطبقة العاملة وأحزابها الماركسية . والأساس الايديولوجي هو الماركسية — اللينينية .

ان العلاقات بين البلدان الاشتراكية هي علاقـــات تعاون اقتصادي وسياسي وثقافي ومساعدة متبادلة تتعاظم باستمرار وتقرب ما بين الشعوب باسم الهدف المشترك . والمبادىء الأساسية للعلاقات بين الدول الاشتراكية هي المساواة التامة بين الدول الكبيرة والصغيرة ، وعدم التدخل في الشؤون الداخليـــة واحترام السيادة الوطنية ، وحرمـــة أراضي كل دولة والعون الاقتصادي الأخوي المتبادل ، والتعاون الوثيق في جميع ميادين الحيـــاة الاجتماعية . وان عملية التقارب بين الشعوب ، التي تتم على أساس هذه المبادىء هي قانون موضوعي لتطور النظام الاشتراكي العالمي .

ان أشكال تقارب شعوب الدول الاشتراكية وتعاونها والمساعدة المتبادلة بينها ذات أشكال متعددة .

ففي المجال الاقتصادي تتعاون الدول الاشتراكية فيما بينها بكل الصور في اقامة صناعة عصرية ، وفي ضمان التطور السريع للاقتصاد ، وفي رفع انتاجية العمل ، وبالتالي في رفع مستوى الرخـــاء المادي والثقافي للشغيلة واعداد الاختصاصيين وشغيلة العلم .

لقد تطور خلال السنوات الأخيرة بين بلدان النظام الاشتراكي التعاون الانتاجـــي المباشر الذي وجـــد تعبيره في

اشاعة التعاون في الانتاج ، وتحقيق كل هـــذا على أساس الرغبة الطوعيـــة والمساواة الكامـــلة . ان التعاون الانتاجي المباشر يتحقق

باتفاقات ثنائيـــة ومتعددة الأطراف عن طريق مجلس التعاضد الاقتصادي والمساعـــدة المتبادلة (سيف) الذي أقيم عــام ١٩٤٩ — وهو المنظمة الاقتصادية الدولية للبلدان الاشتراكية الاوروبية . ويساعد التعاون الاقتصادي بين البلدان الاشتراكية على الاستخدام الأكمل لخاماتها ومصادر الطاقة فيها . ومن هذا القبيل مثلاً ، انبوب النفط الهائل « الصداقـــة » الذي بوشر باستثماره منـــذ أمد قريب بجهـــود مشتركة من قبل الاتحـــاد السوفييتي وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا وهنغاريا وألمانيا الديمقراطية ، وطول هذا الأنبوب ٤٥٠٠ كلم ويمتد من الفولغا حيث يستخرج النفط إلى جمهورية ألمانيـــا الديمقراطية . كما تم انشاء واستغلال نظام الطاقة الموحد « السلام » الذي يخدم العديد من البلدان الاشتراكية في أوروبا وانشئت مجموعة ضخمة للنقل تضم مئة ألف عربة قطار . كما يجري بصورة مشتركة بنـــاء مؤسسات لاستخراج واستثمار الخامات النافعة وغيرهـــا . ويتعاظم باستمرار تبادل السلع بين البلدان الاشتراكية ، وقد ازداد هذا التبادل بين الاتحاد السوفييتي والبلدان المنضمة إلى التعاضد الاقتصادي (سيف) بين ١٩٦١ و ١٩٦٥ من ٥,٦ مليار روبـــل إلى ٨,٥ مليار روبل ويتخـــذ التعاون العلمي — التكنيكي نطاقاً أوسع فأوسع بين البلدان الاشتراكية كما يتطور التعاون بين مؤسسات ومعاهد البحث العلمي في مختلف البلدان وكذلك اعداد وتدريب اختصاصيي وشغيلة العلم من بعض البلدان في تلك التي توجد فيها ظروف أكثر ملاءمة لاعداد هذا النوع من الاختصاصيين أو العلماء . ان التعاون العلمي — التكنيكي يعطي امكانيـــة الاسراع في وتائر البحث العلمي ، وتجنب تكرار نفس العمل في عـــدة بلدان واستخدام الأكثر عقلانيـــة للكوادر والمعدات العلمية — التكنيكية .

ويتسع التعاون السياسي بين البلدان الاشتراكيـــة الأمـــر الذي يسمح بانتهاج خطة مشتركة للتأثير في حل القضايا الاجتماعية الهامـــة سواء في المجال الدولي أو الداخلي ، وشن نضال موحد ضد الرجعية الاستعماريـــة

من أجل السلم والتقدم الاجتماعي . ويساهم في تحقيق هذا تبادل الوفود الحكومية والحزبية والمحادثات الودية وتبادل المعلومات والاجتماعات حول مختلف القضايا .

وبالارتباط مع اشتداد الأعمال العدوانية من جانب قوى الاستعمار يشغل أهمية كبرى التعاون العسكري بين البلدان الاشتراكية الذي يجد تعبيره في التوطيد المضطر وتعزيز جهاز معاهدة وارشو الذي يمثل درعاً أميناً يحمي منجزات شعوب البلدان الاشتراكية . وفي البر والجو والبحر يتعزز النشاط المشترك بين الدول المتحالفة وتتوطد الأخوة الكفاحية بقواتها المسلحة .

وتحقق بلدان الأسرة الاشتراكية تعاوناً ثقافياً يساعد على تطوير ثقافاتها الوطنية كلاً على انفراد واغنائها المشترك .

توطيد الوحدة أهم مهمة

ان الشرط الالزامي للنجاحات اللاحقة للبلدان الاشتراكيـــة هو توطيد وحدة النظام الاشتراكي العالمي على أساس الأممية البروليتارية . وان هـذه الوحدة لا تنسجم مع مظاهر التعصب القومي والامتياز والتعالي القومي التي تضر بالمصالح المشتركة للأسرة الاشتراكية ومصالح الحركة الشيوعية العالمية .

ولم تظهر هذه المهمة صدفة ، وإنما لها أسبابها المحددة . فالقضية هي ان الميـــل القانوني الموضوعي للتقارب بين الدول الاشتراكية لا يتحقق دائماً بسهولة ويسر . إذ تظهر في العلاقات بين البلدان الاشتراكية أحياناً تناقضات وقضايا معقدة معوقة تنشأ عن الحياة الواقعيـــة بكل تعقيداتهـــا وجوانبها المتعددة . وان حل مثل هذه القضايا يتطلب تناولاً خلاقاً لهـــا على أساس من الماركسية اللينينية المجربة ، وتبادلاً للتجارب والآراء . ان النضال ضد الاستعمار ومن أجل انتصار الاشتراكية والشيوعيـــة على الأرض هو هدف مشترك لدول الأسرة الاشتراكية ، وللوصول إلى هذا

الهدف المشترك فإن شعوب البلدان الاشتراكية مدعوة للتغلب على الصعوبات التي تظهر وحل القضايا غير المحلولة .

ان نشوء وتطور الأسرة الاشتراكية هو عملية مستمرة ومعقدة . انها معقدة لأن هذه الأسرة تضم بلداناً ذات مستويات مختلفة في حياتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وذات ماض تاريخي مختلف ، وعادات وتقاليد شعبية متنوعة . وهي معقدة أيضاً لأن العلاقات التي يراد اقامتها بين هذه البلدان هي علاقات لم يعرفها تاريخ البشرية وكل ما هو جديد وغير مجرب إنما هو صعب ومعقد . ولذا ففي مجرى التقارب بين الشعوب تنبثق الحاجة إلى التغلب على مخلفات القومية البورجوازية التي يصعب استئصالها إلى حد كبير . ومن هنا تنبثق ضرورة تربية الشغيلة بروح الأممية البروليتارية والتضامن بين البلدان الاشتراكية .

ان الوحدة والتلاحم تضاعف قوى الاشتراكية . فكلما كانت وحدة البلدان الاشتراكية أكثر متانة ، وكلما كانت جهودها موحدة بشكل أوثق لتطوير الاقتصاد والثقافة وزيادة رخاء الشعوب ، وكلما كان تعاونها السياسي أمتن ؛ كانت أفضليات الاشتراكية على الرأسمالية أكثر وضوحاً وأكثر اقناعاً ، وكان نفوذ النظام الاشتراكي أكبر تأثيراً على كامل مجرى التاريخ العالمي .

٣ ـ قوة حاسمة في التطور العالمي

التناقض الأساسي في عصرنا

تقف قوى الرأسمالية العالمية بوجه قوى الاشتراكية الموحدة . وان

التناقض بين هذه القوى ، بين النظامين الاجتماعيين المتعارضين هو التناقض الأساسي في العصر الراهن .

ما هو جوهر التناقض الأساسي ، الرئيسي في العصر الراهن ، وما هي أهم خصائصه ودوره في تطور المجتمع المعاصر ؟

لا بد من أن نلاحظ قبل كل شيء بأن التناقض بين العمل ورأس المال ، بين الطبقة العاملة والبورجوازية كان ولا يزال هو التناقض الطبقي الأساسي في النظام الرأسمالي . وان التناقض بين النظامين الاجتماعيين المتعارضين هو تطور للتناقض بين العمل ورأس المال بين الطبقة العاملة والبورجوازية . وهذا بالضبط هو الجوهر الطبقي والسمة المميزة الأكثر أهمية للتناقض الأساسي للعصر الراهن .

ان الطبقة العاملة اليوم ليست فقط طبقة مستغَلة ، رغم انها ما تزال كذلك في ظل النظام الرأسمالي ، وإنما هي طبقة تسيطر على الحكم في النظام الاشتراكي المعارض للرأسمالية . وتقف بوجه هذه الطبقة التي تسيطر على الحكم وتناضل في وحدة مع الطبقة العاملة في البلدان غير الاشتراكية ، تقف طبقة أخرى هي البورجوازية التي لا تزال في بلدان العالم الرأسمالي . وهكذا فوراء العمل ورأس المال ، وراء الطبقة العاملة العلمية والبورجوازية العالمية يقف اليوم نظامان جباران من دول ذات أنظمة اجتماعية متعارضة : أحدهما — وهو النظام الاشتراكي العالمي ، وليد الطبقة العاملة وثمرة نضالها المتفاني وعملها الدؤوب ، والآخر هو النظام الرأسمالي حيث تسيطر ، كالسابق ، البورجوازية والرأسمال .

وتنشأ عن الجوهر الطبقي للتناقض الأساسي في العصر الراهن خاصة مميزة أخرى هي عمق وحدة هذا التناقض . انه يعكس التضاد الجذري

بين الرأسمالية والاشتراكية ، التضاد بين مصالح البورجوازية والبروليتاريا . ان جوانب هذا التضاد تجسد خطين متعارضين ، اتجاهين متعارضين في تطور العالم . أحدهما ذلك الذي تمثله الاشتراكية العالمية ، وهو خط التقدم والبناء والسلم . والآخر ، ذلك الذي تمثله الرأسمالية ، وهو خط الرجعية والتخريب والحرب .

ان العلاقة بين جانبي هذا التناقض هي علاقة صراع لا هوادة فيه . وان هذا الصراع ، بالارتباط مع ظروف تاريخية ملموسة ، يمكن ان يتخذ طابعاً مختلفاً ، ولكن يبقى من حيث جوهره صراعاً لا هوادة فيه .

ان التناقض بين الاشتراكية والاستعمار إذ يعبر عن جوهر العصر الراهن كعصر انتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية ، عصر صراع بين نظامين اجتماعيين متضادين يمارس تأثيراً هائلاً على مجموع مجرى التطور العالمي . ويحدث هذا لأنه ليس تناقضاً خاصاً ، محلياً يشمل جزءاً ما من البشرية المعاصرة وإنما هو تناقض اجتماعي يشمل المجتمع البشري ككل . وواقع ان في العالم ، إلى جانب الدول الاشتراكية والرأسمالية ، مجموعة كبيرة من البلدان التي تحررت من النير الكولونيالي ولم تحدد طريقها بوضوح كاف ، لا يغير الاستنتاج بشأن عمومية التناقض الأساسي للعصر . فالقضية هي ، أولاً ، ان الشعوب المناضلة ضد الكولونيالية هي موضوعياً قوة ثورية معادية للاستعمار . ثانياً ، تلحظ عملية تمايز مستمر وانقسام بين البلدان المتحررة : فبعضها ينتقل تدريجياً إلى طريق اشتراكي للتطور في حين يسير البعض الآخر في طريق الرأسمالية . وهكذا فإن البلدان النامية لا تمثل قوة ثالثة أو منطقة وسط بين الاشتراكية والرأسمالية وإنما تقترب

أو تميل إلى أحد طرفي التناقض الأساسي .

ان التناقض بين النظامين الاجتماعيين المتعارضين له طابـع متحرك ، ديناميكي ، ولذا (وهذا يشكل خاصية أخرى هامة له) فتبعاً للحركة وللتطور يتبدل تناسب القوى على الصعيد العالمي لصالح قوى الاشتراكية ، وعلى الضد من مصالح القوى الاستعمارية الرجعية . ان تبدل تناسب القوى لصالح الاشتراكية ناشيء عن توطيد وتطور النظام الاشتراكي العالمي وتنامي جبروته الاقتصادي والعسكري ، وكذلك عن تعمق الأزمة العامة للرأسمالية العالمية واشتداد كل تناقضاتهـا ، وبالتالي عن نهوض الحركة الشيوعيـة والعمالية العالمية ، وحركة التحرر الوطني وانهيـار النظام الكولونيالي ، والانطلاق الجماهيري للحركة الديمقراطية ونضال الشعوب في سبيل السلم . ان النظام الاشتراكي العالمي هو مركز جذب لجميع القوى الثوريـة في عصرنا الراهن ، فهذه القوى الثورية وجدت في النظام الاشتراكي بالذات ، أكبر قوة مادية وسياسية ومعنوية تساعدها على النجاح في نضالهـا ضد الاستعمار ومن أجل الاشتراكية والتقدم الاجتماعي .

لقد مضى ، إلى غير رجعة ، الزمن الذي كان فيـه الاستعمار السيد المطلق على الأرض . واليوم لم يعد الاستعمار ، بـل القوى التي تناضل ضده من أجل السلم والاشتراكية والتقدم الاجتماعي ، وقبل كل شيء النظام الاشتراكي العالمي ، هي التي تحدد الاتجـاه الرئيسي والمحتوى الرئيسي والخصائص الرئيسية للتطور العالمي . فتحت ضغط الاشتراكية العالمية الذي لا يقاوم يتحطم وينهار النظام الاجتماعي الرأسمالي الذي كان قوياً يوماً ما ، ربما ليس بالسرعة التي نريدهـا ، ولكن بصورة دائبة ، وهو يزول ليحل محله نظام يحمل لجميع الشعوب على الأرض السلم والعمل والحرية والمساواة والأخوة والسعادة .

ولم يعـد من الممكن اليوم حـل أية قضية هامة من قضايا التطور

الاجتماعي مهما كانت ، حلاً ناجحاً بدون مساهمة فعالة من قبل الاشتراكية العالمية. ان تحول النظام الاشتراكي العالمي إلى عامل حاسم في تطور البشرية هو سمة مميزة أساسية للعصر الراهن. ولذا ، وارتباطاً بالنجاحات المطردة للنظام الاشتراكي العالمي فإن دوره سيبرز بقوة أكبر فأكبر في حياة البشرية الاقتصادية والسياسية والفكرية.

ان هذا لا يعني مطلقاً شطب النظام الرأسمالي العالمي من الحساب عموماً. فللاستعمار قوة اقتصادية وسياسية وعسكرية كبيرة ، لا تزال تعطيه امكانية التدخل في شئون مختلف الشعوب والدول وان يفرض عليها نظماً رجعية وان يقمع قوى الثورة والتقدم. ان عدوانية الاستعمار ، وخصوصاً الاستعمار الامريكي ، تزداد ، ولكن ، وكما لاحظ المؤتمر الثالث والعشرون للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ، فإن هذا لا يعني بأن ميزان القوى في العالم قد تغير لصالح الاستعمار. بل على العكس ، فإن هذه العدوانية تدلل على زيادة المصاعب والتناقضات التي تصطدم بها الرأسمالية المعاصرة. ان التاريخ يؤكد بشكل مقنع بأن الاستعمار لا يستطيع ، مهما استخدم من وسائل وأساليب ، أن يوقف سير التقدم التاريخي أو تعاظم نفوذ النظام الاشتراكي العالمي.

فكيف يظهر التأثير الثوري للنظام الاشتراكي على مجرى التطور العالمي وما هي أشكال هذا التأثير ؟

قوة المثال الثورية

ان تأثير النظام الاشتراكي العالمي على مجرى التطور العالمي يظهر أول ما يظهر في انه بقوة مثاله يشيع الروح الثورية في العالم ويساعد حركة البشرية نحو المستقبل الاشتراكي. وقد كتب لينين « للاشتراكية قوة

المثال ... ويجب علينا ان ندلل عملياً وبالأمثلة على أهمية الشيوعية »[1] .

ان الاشتراكية والشيوعية تمثل بالنسبة لشعوب العالم مثالاً باهراً على تصفية الاستغلال وكل أنواع الاضطهاد ، من أجل التغلب على التأخر الاقتصادي والثقافي ، مثالاً على التنظيم الديمقراطي الحقيقي للمجتمع ، ومن أجل خلق الظروف لحياة مضمونة للشغيلة ، مثالاً على حل المسألة القومية وحل المسألة الزراعية لصالح الفلاحين الشغيلة ، مثالاً على اقامة صداقة حقيقية وروح رفاقية بين الناس ، بين الشعوب ، مثالاً على ضمان السلم واستقراره .

ان تأثير الاشتراكية الرئيسي على مجرى التطور العالمي يظهر عن طريق نجاحاتها في البناء الاشتراكي

كتب لينين يقول : « ان تأثيرنا الرئيسي على الثورة العالمية نظهره عن طريق سياستنا الاقتصادية ... وفي هذا المجال يدور الصراع على النطاق العالمي . فإذا ما أنجزنا حل هذه المهمة — عند ذاك نكون قد فزنا على الصعيد العالمي بصورة مضمونة ونهائية »[2] . ورغم الظروف غير الملائمة التي بدأ بها الاتحاد السوفييتي المباراة مع الرأسمالية في المجال الاقتصادي (التأخر الاقتصادي ، الخراب الذي سببته الحرب العالمية والحرب الأهلية ، الحصار الاقتصادي) فقد تغلب الشعب السوفييتي بجهوده البطولية على التأخر الاقتصادي الذي كان يعاني منه الاتحاد السوفييتي بالنسبة للأقطار الرأسمالية المتطورة . فبينما كان نصيب الاتحاد السوفييتي عام ١٩١٧ في الانتاج الصناعي العالمي أقل من ٣٪ بلغ عام ١٩٣٧ ١٠٪ . وقطع الاتحاد السوفييتي خلال ١٥ سنة من تطوره الاقتصادي طريقاً قطعته الدول الرأسمالية الأخرى بعشرات السنين . وقد تحول الاتحاد السوفييتي إلى دولة صناعية جبارة وحقق استقلالاً اقتصادياً تاماً .

---

١ لينين — المؤلفات ، الجزء ٣١ ، ص ٤٦٨ — ٤٦٩ .

٢ لينين — المؤلفات ، الجزء ٣٢ ، ص ٤٥٦ .

وبعد الحرب العالمية الثانية أعاد الاتحاد السوفييتي بناء اقتصاده الذي خربته الحرب وحقق نجاحات جديدة في البناء الاقتصادي . وقد أعطت صناعة الاتحاد السوفييتي ٢٠٪ من الانتاج الصناعي العالمي عام ١٩٦٥ . ومن المهم أن نشير أن هذه النجاحات قد حققت ليس عن طريق استغلال ونهب شعبه والشعوب الأخرى ، كما يحدث في العديد من البلدان الرأسمالية ، وانما نتيجة عمل الشعب المتفاني ، وعن طريق استخدام أفضليات الاقتصاد الاشتراكي . فهل يمكن العثور على أدلة أكثر اقناعاً على قوة الاشتراكية العظيمة وعلى أفضلياتها على المجتمع الرأسمالي ؟ وقد حققت البلدان الاشتراكية الأخرى أيضاً نجاحات مرموقة في البناء الاقتصادي .

فبالمقارنة مع فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية كان الانتاج الصناعي في البلدان الاشتراكية كل على انفراد في عام ١٩٦٥ بالنسب التالية : في بلغاريا ٢١,٦ مرة ، وفي منغوليا وبولونيا أكثر من ١١ مرة ، وفي رومانيا ٩,٦ مرة وفي هنغاريا ٦,١ مرة وفي جيكوسلوفاكيا ٥,١ مرة ، وفي جمهورية ألمانيا الديمقراطية ٤,٢ مرة . إن البلدان الاشتراكية تقيم ، بنجاح ، القاعدة المادية والتكنيكية للاشتراكية والشيوعية . ونتيجة النجاحات في تطوير الاقتصاد فان حصة البلدان الاشتراكية في الانتاج العالمي قد ازدادت . فبينما كانت عام ١٩٥٠ تشكل نسبة ٢٠٪ تقريباً أصبحت عام ١٩٥٥ حوالي ٢٧٪ وفي ١٩٦٥ بلغت ٣٨٪ تقريباً من مجموع الانتاج الصناعي العالمي . ومما هو ذو طابع مميز ، ان التطور الاقتصادي في البلدان الاشتراكية ، يخدم الزيادة المستمرة لرخاء الشعب ورفع مستواه المادي والثقافي ، في حين أن زيادة الانتاج في البلدان الرأسمالية تخدم قبل كل شيء مصالح حفنة من المالكين الكبار وتساعدهم على تكديس الثروات .

ان الاشتراكية مثال ساطع لشعوب العالم على كيفية حل القضايا الاجتماعية – السياسية . وفي الحقيقة أين وفي أي نظام اجتماعي آخر أمكن

التوصل إلى تحقيق المساواة السياسية لجميع أعضاء المجتمع ، حيث أن كل عضو من أعضاء المجتمع شريك في ملكية وسائل الانتاج ،

وأين وفي أي نظام اجتماعي آخر يمكن أن تحل المسألة الزراعية المزمنة ، وأن يجري التوصل إلى وضع يقوم فيه الفلاح بزراعة الأرض لصالحه ولصالح المجتمع ؟ أين ، وفي أي نظام اجتماعي آخر يمكن حل واحدة من أعقد القضايا وأكثرها حدة في تطور البشرية الا وهي المسألة القومية وأن يتم التوصل إلى المساواة بين مختلف الشعوب ، كبيرها وصغيرها ، البيضاء منها والملونة ؟

إن الاشتراكية مثال مرموق للعالم كله في مجال البناء الثقافي . فالاتحاد السوفييتي مثلاً ، البلد المتأخر في السابق ، حيث كان ما يقرب من ٨٠٪ من سكانه أميين ، قد تحول إلى بلد ذي ثقافة متقدمة عالية جداً . إن الاشتراكية تضع في خدمة الإنسان الشغيل كنوز الثقافة الإنسانية التي لا تحصى . أما الرأسمالية فانها تحرم الغالبية العظمى من جماهير الشغيلة من امكانية الحصول حتى على أبسط تعليم أحياناً . فحتى في أغنى بلد رأسمالي هو الولايات المتحدة الأمريكية يوجد ما يقارب ١١ مليون مواطن لا يعرفون القراءة والكتابة .

حقاً أن الاتحاد السوفييتي لا يزال متخلفاً عن أكثر البلدان الرأسمالية تطوراً من ناحية الانتاج بالنسبة للفرد الواحد من السكان . ولكن بمرور الزمن سيجري التغلب على هذا التخلف . وبهذه الطريقة ستنتصر الاشتراكية على الرأسمالية في الميدان الحاسم من ميادين النشاط الانساني ألا وهو ميدان الانتاج المادي . إن الثقة بهذا الانتصار تستند إلى أن الاشتراكية تتجاوز الرأسمالية في وتائر التطور الاقتصادي . فالانتاج الصناعي في البلدان الاشتراكية في عام ١٩٦٥ كان يساوي عشر مرات تقريباً ما كان عليه الانتاج فيها

عام ١٩٣٧ ، أما في البلدان الرأسمالية فلم يزد على ٣,٤ مرة . إن الاتحاد السوفييتي يشغل اليوم مكاناً طليعياً في دراسة الفضاء الكوني وفي الفيزياء النووية والرياضيات والألكتروتكنيك والراديوتكنيك والتعدين وهندسة الصواريخ وبناء الطائرات وغيرها ولكل هذا في عصرنا أهمية بالغة .

وتشكل الخطة الخمسية لتطوير الاقتصاد الوطني في البلاد ١٩٦٦ — ١٩٧٠ مرحلة هامة في تطوير اقتصاد وثقافة الاتحاد السوفييتي . ونتيجة لتنفيذ هذه الخطة ، كما لاحظ المؤتمر الثالث والعشرون للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ، سيصل الاتحاد السوفييتي إلى ذرى أعلى في المباراة الاقتصادية مع الرأسمالية ، الأمر الذي سيكون له تأثير عظيم على تقوية العملية الثورية العالمية .

إن الانتصار المقبل في مجال البناء الاقتصادي سيكون مأثرة رائعة للاشتراكية والشيوعية .

وطبيعي أن من الخطأ الاعتقاد بأن تطور الاقتصاد والثقافة في البلدان الاشتراكية يتم بسهولة ويسر . ان انشاء المجتمع الجديد ، وخصوصاً الاقتصاد الاشتراكي ، في بلدان هي في غالبيتها متأخرة في السابق ، انما هو عمل معقد جداً . ومن المعلوم انه في عمل معقد وجديد في نفس الوقت لا بد من مواجهة نواقص وصعوبات ولا تستبعد الأخطاء أيضاً . إن هذه النواقص والصعوبات مرتبطة خصوصاً بأخطاء ذات طابع ذاتي في جوهرها

اهمال قوانين التطور الاجتماعي الموضوعية ، ونسيان ضرورة قيادة العمليات الاجتماعية قيادة علمية . ولكن شعوب البلدان الاشتراكية بقيادة الأحزاب الشيوعية تكتشف الأخطاء وتصححها وتتغلب على النواقص والصعوبات ، وبهذه الطريقة تقوم بتوجيه الاقتصاد وكل الحياة الاجتماعية بالانسجام مع متطلبات العلم . وبهذا ندرك بأن قوى الاشتراكية وتأثيرها على مجرى التطور العالمي تتعلق بوحدة البلدان الاشتراكية وبمدى نجاح سير العمل في هذه البلدان ذاتها وبنجاحها في تنفيذ خطط البناء الاقتصادي والثقافي .

الاشتراكية العالمية والحركة العمالية

بالارتباط مع تبدل تناسب القوى على الصعيد العالمي نشأ وضع ملائم لانطلاق الحركة الثورية للطبقة العاملة وكل الشغيلة في البلدان الرأسمالية . إن النظام الاشتراكي ، بقوة مثاله ، يشيع الروح الثورية لدى الكادحين ، ويلهمهم للنضال ضد الرأسمالية ، من أجل السلم والتقدم الاجتماعي ، ومن أجل انتصار الديمقراطية والاشتراكيــة . إن الحل الناجح ، في البلدان الاشتراكية ، لقضايا التطور الاقتصادي والسياسي والثقافي ، وتذمر جماهير الشغيلة الواسعة من سياسة الاستعمار الرجعية ، وخصوصاً سياسة اشاعة نزعة الحرب والتسابق في التسلح ، التي يقع عبؤها الأساسي على كاهل الكادحين ، ان هـــذا كله يوسع القاعدة الاجتماعية للحركة للعمالية . إن عدداً أكبر فأكبر من الشغيلة ، فلاحين وبورجوازيين صغار في المدن ومثقفين تقدميين بدأوا يقتنعون بأن الطبقة العاملة وحدها هي القادرة على انتشالهم من عبودية الاستعمار وانهم سيجدون في الاشتراكية فقط سعادتهم الحقيقية .

ان الطبقــة العاملة التي تنهض للنضال اليوم تمتلك امكانيات واسعة للاستناد إلى دعم متعدد الجوانب من قبل شعوب البلاد الاشتراكية وهو دعم معنوي ، أي تضامن عميق واستحسان ، واعجاب وعطف على النضال

البطولي الذي تخوضه الطبقة العاملة . ودعم مادي مباشر ، أي ابداء المساعدة المالية والتموينية وغيرها من أشكال المساعدة للعمال المضربين ولعوائلهم وللكادحين الذين يعانون من تعسف الاستعماريين ، وكوارث الانتاج وشرور الطبيعة وغيرها . إن هذا الدعم يعطي الطبقة العاملة وقواها الحليفة في نضالها الشاق الثقة والايمان بالنصر المقبل ، ويتيح لها الشعور بأن رفاقها في الطبقة يناضلون معها باستمرار كتفاً لكتف .

ان شعوب البلدان الاشتراكية ترفع صوت الاحتجاج الغاضب على السياسة الرجعية التي تنهجها الدوائر الاستعمارية الحاكمة — وتقف ضد ملاحقة واضطهاد الأحزاب الشيوعية وسائر المنظمات والشخصيات التقدمية وكذلك ضد القوانين المعادية للعمال ، والمعادية للديمقراطية عموماً ، وسائر الأعمال الوحشية التي يرتكبها الاستعماريون ضد الشغيلة . إن البلدان الاشتراكية هي أول من أدان نظام فرانكو الفاشي في اسبانيا ، ونظام فوروورد العنصري في اتحاد جنوب افريقيا ، والسياسة العنصرية التي تنهجها سلطات الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها .

ومما لا شك فيه فان دعم القوى التقدمية وادانة القوى الرجعية الاستعمارية من جانب النظام الاشتراكي المحب للسلام ينعكسان بشكل ايجابي على تطور الحركة العمالية في البلدان الرأسمالية . وهذا واحد من الأسباب الهامة للاتساع الهائل والتنظيم اللذين اكتسبتهما الحركة العمالية في البلدان الرأسمالية في العصر الراهن . وتقف على رأس الحركة العمالية في العديد من البلدان الرأسمالية أحزاب ماركسية تصلبت في الكفاح ، وتستخدم الخبرة الواسعة للأحزاب الشيوعية في البلدان الاشتراكية ، وتتبادل معها الرأي باستمرار حول أهم قضايا الحركة الثورية .

إن جماهير الشغيلة التي تهب للكفاح في البلدان الرأسمالية تستطيع اليوم أن تعتمد على النظام الاشتراكي العالمي في نضالها ضد تصدير الثورة المضادة

من جانب الرجعية العالمية . وإنها تستطيع أن تحصل وتحصل فعلاً على مساعدة متعددة الجوانب ودعم من جانب الدول الاشتراكية في بناء المجتمع الاشتراكي الجديد . إن تجربة نضال وانتصار الثورة في كوبا انما هي دليل واضح على هذا .

الاشتراكية العالمية وحركة التحرر الوطني

إن البلدان الاشتراكية خصم لا يهادن نظام الحكم الاستعماري (الكولونيالية) ، وأثبت نصير لنضال التحرر الوطني الذي تخوضه الشعوب المضطهدة ، ونصير لمساواتها الوطنية واستقلالها الوطني . وإن النظام الاشتراكي العالمي ، إذ يقف ضد العبودية الاستعمارية ويدعم نضال الشعوب في سبيل الاستقلال ، فانه يشكل عاملاً جباراً لانتصار حركة التحرر الوطني ولانهيار النظام الكولونيالي الاستعماري وليس من قبيل الصدفة أن يتحرر الجزء الأعظم من البلدان المستعبدة من النير الكولونيالي بعد الحرب العالمية الثانية وتحت التأثير المباشر للنظام الاشتراكي العالمي ومساعدته الشاملة .

ان شعوب آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية قد اقتنعت بتجربتها الخاصة بأن لها في شخص الاتحاد السوفييتي والنظام الاشتراكي العالمي صديقاً مخلصاً وحليفاً مضموناً . فبينما كان الاستعماريون في السابق يستطيعون ، دون عائق ، ان يسحقوا الحركة التحررية للشعوب المضطهدة نراهم اليوم يضطرون ، أكثر فأكثر ، لأن يحسبوا الحساب للقوة المتعاظمة للاشتراكية العالمية التي تساعد الشعوب قولاً وفعلاً ، ودون ان نستثني حتى المساعدة العسكرية ، ليس في أن تحصل على استقلالها فحسب ، بل وفي أن تصونه أيضاً وان تطوره في طريق السلم والتقدم . وإن الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية قد ساعدت الشعب المصري على صد العدوان الأنكلو ـ الفرنسي الاسرائيلي عام ١٩٥٦ والشعب الكوبي على صد الهجوم القرصني الذي

شنه استعماريو الولايات المتحدة الأمريكية ومرتزقتهم عام ١٩٦١ . وبدعم فعال من الاشتراكية العالمية حررت الهند جزءاً من أرضها من سيطرة المستعمرين البرتغاليين (غوا وداماان وديو) ، وأخرجت اندونيسيا المستعمرين الهولنديين من ايريان الغربية .

ان الاشتراكية العالمية ساعدت الشعوب المتحررة على توطيد قواتها المسلحة الوطنية التي تحمي العمل السلمي للشعوب المتحررة واستقلالها وسيادتها الأمر الذي مكنها من الرد بنجاح على العدوان الاستعماري .

ان الاتحاد السوفييتي وسائر البلدان الاشتراكية تساعد الدول المستقلة الفتية في اقامة اقتصاد وطني ، وفي تطوير العلم والتكنيك والتعليم والثقافة ، وبذلك تساعدها على التغلب على تأخرها الموروث من الكولونيالية ، وعلى التحرير كلياً من نير الاحتكارات الأجنبية . ويكفي ان نذكر بأنه بمساعدة الاتحاد السوفييتي يبنى الآن في بلدان آسيا وأفريقيا حوالي ٦٠٠ مشروع صناعي وزراعي وغيرها .

ان البلدان الاشتراكية لا تساعد فقط في البناء وإنما تمول البناء أيضاً ، وذلك بتقديمها القروض بشروط ملائمة للبلدان النامية . ان الاتحاد السوفييتي وحده قدم لهذه البلدان قروضاً ومساعدات تزيد قيمتها على ٣,٥ مليار روبل . وتقدم الدول الاشتراكية مساعدة لا تثمن للبلدان النامية في اعداد ملاكاتها الوطنية في ميادين الاقتصاد والعلم والثقافة والتكنيك . وتساعد التجارة القائمة على أساس المنفعة المتبادلة بين البلدان المستقلة حديثاً والبلدان الاشتراكية على تطور اقتصاد الأولى .

ان مثال البلدان الاشتراكية التي حلت بأحسن طريقة كثيراً من القضايا الاجتماعية المعقدة ، وفي المقدمة تجربة الاتحاد السوفييتي في التغلب على التأخر الاقتصادي والثقافي الذي كانت تعيشه القوميات في المناطق البعيدة ،

وتجربته في انطلاق هذه القوميات في طريق الاشتراكيــة متخطية المرحلة الرأسمالية في التطور ، وكذلك المساعدة الشاملة من جانب الدول الاشتراكية للدول المستقلة حديثاً ، كل هذا يساعد على تعميق ثورات التحرر الوطني . ففي مجرى الحل المتواصل للمهمات الوطنية في هــذه البلدان يقام اقتصاد عصري ، وتنشأ طبقة عاملة ، وينمو تلاحمها التنظيمي والفكري ، وتتوطد القوى التقدمية في الأمة ، وبهذه الطريقة تظهر المقدمات المادية والاجتماعية لانتقالها إلى طريقة التطور الاشتراكي .

الاشتراكية العالمية والنضال من أجل السلم

ان النظام الاشتراكي العالمي له تأثير كبير على حل أهــم قضية في عصرنا ، ألا وهي : مسألة الحرب والسلم . ان النضال في سبيل السلم ينبع من طبيعة المجتمع الاشتراكي . فقد صفيت في هذا المجتمع القاعدة الاقتصادية للحرب وهي الملكية الخاصة ، ولا توجد فيه قوى اجتماعيــة ذات مصلحــة بالحرب والنهب واستعباد الشعوب والدول الأخرى .

وان محتوى السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي هو ضمان الظروف الخارجية الملائمة لبناء الشيوعية ، والمساعدة على تطوير النظام الاشتراكي العالمي ، وتطوير الحركة الوطنية التحررية والعمالية ، ومن أجل كفاح وانتصار كل القوى الثورية على الاستعمار وصيانة قضية السلم في العالم أجمع .

لقد خمدت نيران الحرب العالمية الثانية منذ أمد طويل ، ولكن تندلع هنا وهناك نتيجة دسائس الاستعماريين مواقد ما يسمى بالحروب المحليــة

المحدودة التي تنطوي كل واحدة منها على خطر نشوب حرب عالمية . ولذا فإن البلدان الاشتراكية تسعى إلى اخماد هذه المواقد الخطرة في بدايتها ،

النواحي ، على صد هجمات الاستعماريين العدوانية . وان الدعم والمساعدة الشاملين للشعب الفيتنامي البطل ، الذي يتعرض لهجوم قرصني من جانب الولايات المتحدة الأمريكية لدليل واضح على هذا .

ان النظام الاشتراكي العالمي ، إذ يناضل بدأب من أجل السلم والتعايش السلمي فانه في الوقت نفسه يشغل مركز الجذب لجميع القوى المحبة للسلم على وجه الأرض . انه يعبىء ويوحد قوى السلم والتقدم ضد قوى الرجعية والاستعمار ، ويمثل عقبة جديدة بوجه مطامع الاستعماريين العدوانية . وبظهور الاشتراكية ، ظهرت لأول مرة في التاريخ قوة مادية تساعد على حل أهم القضايا الدولية بالطرق السلمية . ان النظام الاشتراكي العالمي هو دعامة جبارة للسلم وأمن الشعوب .

وهكذا فإن تجربة تطور البشرية في العصر الراهن تدلل بشكل مقنع بأن النظام الاشتراكي العالمي بالذات يقف اليوم في مركز ، ليس جميع القوى الاشتراكية فحسب ، بل وفي مركز جميع القوى التقدمية في

كوكبنا . انه منار البشرية جمعاء في طريق حركتها التقدميـــة ، ويؤثر تأثيراً ثورياً عظيماً على مجرى التطور العالمي ، وهو في الوقت نفسه قوة مادية جبارة تتجسد فيها الأفكار الخالدة للماركسية اللينينية ، القوة التي تحمـــل العبء الرئيسي في النضال ضـــد الاستعمار والقسط الرئيسي من المسؤولية عن مصير التاريـخ العالمي .

الفَصلُ الثَالث

الرأسمالية المعاصرة

وحركة الطبقة العاملة الثورية

ان الطبقة العاملة المعاصرة ليست متماثلة بكل أجزائها : فهناك الطبقة العاملة في البلدان الاشتراكية والطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية والطبقة العاملة في البلدان المتحررة من الاستعمار والنامية . وان واحدة من أهم فصائل جيش العمل العظيم وأكثرها عدداً هي الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية التي تواجه الآن مهمة تحقيق رسالتها العظمى في تحرير الانسان. وفي هذا الفصل سنتحدث أولاً وقبل كل شيء عن هذه الفصيلة من العمال ، عن أهدافها ومهماتها ، عن ظروف ومصاعب نضالها المتفاني ضد الرأسمالية . ونظراً لأن نضال هذه الفصيلة من العمال قد اتسع في ظروف الرأسمالية المعاصرة فيتوجب علينا أولاً ان نبحث هذه الظروف ونبين ماذا تمثل الرأسمالية المعاصرة .

١ ـ أزمة الرأسمالية المعاصرة

جوهر الرأسمالية المعاصرة المعادي للانسانية

يجابه العالم الاشتراكي اليوم عالم آخر ، ذلك هو العالم الرأسمالي الذي تسيطر فيه الملكية الخاصة والاستغلال . ان العالم الرأسمالي لا أفق له ويعيش أزمة عامة عميقة ، هي نتيجة القوانين الموضوعية التي تلازمه ، نتيجة تطور تناقضاته الخاصة التي لا يمكن التوفيق بينهما . ان الأزمة العامة للرأسمالية هي حالة سقوطها وتفسخها ، الحالة التي تشمل جميع البلدان الرأسمالية ، وكل الرأسمالية العالمية من أعلى إلى أسفل : اقتصادها ونظامها الاجتماعي ، سياستها وايديولوجيتها وثقافتها . وكانعكاس للأزمة العامة للرأسمالية بات أصعب فأصعب على الرأسمال العالمي ان يحتفظ بالبلدان الدائرة في فلكه والتي صارت تنفصل عن الرأسمالية الواحدة تلو الأخرى وتنتقل إلى طريق التطور الاشتراكي .

لقد وضع انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية في روسيا بداية الأزمة العامة للرأسمالية ، بداية مرحلتها الأولى ، والتي بنتيجتها لم تعد الرأسمالية النظام الاجتماعي العالمي الموحد الشامل . ورغم جميع جهودها لم تستطع ان تعيق قيام أول دولة اشتراكية في العالم ـ الاتحاد السوفييتي . وقد صمدت هذه الدولة الجديدة لجميع هجمات الاستعمار ـ من حملات عسكرية وحصار اقتصادي وحملات لا نهاية لها من الأكاذيب وافتراءات الايديولوجية ، ودللت على حيويتها وقوتها التي لا تقهر .

وفي مجرى الحرب العالمية الثانية والثورات الاشتراكية التي اندلعت في العديد من بلدان أوروبا وآسيا بدأت المرحلة الثانية من الأزمة العامة للرأسمالية . ولم تعد الرأسمالية النظام العالمي الوحيد ، فقد خرجت

الاشتراكية من اطار بلد واحد وتشكل إلى جانب النظام الرأسمالي نظام عالمي اشتراكي .

المرحلة الجديدة الثالثة من الازمة العامة للرأسمالية

لقد دخلت الرأسمالية العالمية في المرحلة الحالية ، المرحلة الثالثة من أزمتها العامة خلال الخمسينات . وان خاصية هامة لهذه المرحلة من أزمة الرأسمالية هي التبدل الجذري الذي حصل في تناسب القوى على الصعيد العالمي لصالح النظام الاشتراكى العالمي . حيث تنفصل عن الرأسمالية بلدان جديدة وجديدة . ويتم في العالم كله تعاظم جبار للقوى المناضلة من أجل الاشتراكية والتقدم الاجتماعي . وتضعف باستمرار مواقع الاستعمار في المباراة الاقتصادية السلمية مع الاشتراكية . وان النهوض الذي لا سابق له في حركة التحرر الوطني أدى إلى انهيار نظام السيطرة الاستعمارية المباشرة .

وان السمة

المميزة للمرحلة الجديدة لأزمة الرأسمالية العامة هي ازدياد عدم الاستقرار الداخلي للاقتصاد الرأسمالي وتعفنه . فالوتائر القلقة لنمو الانتاج ، وعدم التشغيل الكامل المستمر للطاقات الانتاجية ، والأزمات الاقتصادية التي تهز العالم الرأسمالي دورياً ، إنما هي دليل ساطع على عجز الرأسمالية المتعاظم عن استغلال القوى المنتجة الموجودة استغلالاً كاملاً ناهيك عن استخدامها الواسع لأحدث منجزات العلم والتكنيك لصالح الشعب .

فالولايات المتحدة الامريكية مثلاً عانت بعد الحرب العالمية الثانية من أعراض الأزمة عدة مرات . ونتيجة لهذا نقص خلال عامي ١٩٥٧ — ١٩٥٨ مجموع المنتوج الصناعي بمقدار ٦٠ — ٦٥ مليار دولار ، وعاد

الانتاج الصناعي إلى مستوى عام ١٩٥٣ . وبلغت خسائر العمال من أجور العمل ١٩٧٦٨ مليار دولار .

وفي نهاية عام ١٩٦٠ جرى استخدام ٧٠٪ من طاقة الصناعة في كندا ، وفي اليابان ٨٠٪ . وفي عام ١٩٦١ بلغ عدد التشغيل بكل طاقة الصناعة في ألمانيا الغربية ١٢٪ ، وفي انجلترا وبلجيكا كانت النسبة أقل من ذلك . وتتقلص فروع صناعية بكاملها : بناء السفن في ايطاليا وفرنسا ، صناعة الأنسجة القطنية والسلك الحديد في بريطانيا ... الخ .

ولا تستطيع الرأسمالية ان تستخدم استخداماً كاملاً القوة المنتجة الرئيسية ألا وهي الشغيلة ، وتحكم على جماهير العمال بالبطالة وتحرمهم من وسائل العيش . وحسب المعطيات الاحصائية البورجوازية الرسمية يوجد في بلدان أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية واليابان واستراليا حوالي ٨ — ١٠ ملايين عاطل ، عطالة كاملة ، القسم الأعظم منهم في الولايات المتحدة الامريكية . وبدلاً من ان تخدم أعظم منجزات الفكر البشري — الاتمتة والمكننة — رخاء الناس ، تتحول في الرأسمالية إلى ما يضر الانسان العامل . فقد أزاحت المكننة والاتمتة في الولايات المتحدة الامريكية عن الانتاج ١,٨ — ٢ مليون عامل سنوياً .

ان كل هذا يدلل على أن التضاد بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج في الرأسمالية قد بلغ درجة من الحدة لم يسبق لها مثيل ، وان علاقات الانتاج الرأسمالية تقيد تطور القوى المنتجة المعاصرة .

وطبيعي ان هذا لا يعني بالمرة ان الاستعمار يراوح في مكانه في حركته الاقتصادية . فالطموح لكسب الصراع مع النظام الاشتراكي العالمي ، ومتطلبات التقدم العلمي — التكنيكي المعاصر ، وبصورة رئيسية صراع المزاحمة الضارية تحمل الرأسماليين على تحسين الانتاج واستخدام أحدث منجزات العلم والتكنيك . وليس صدفة ما حدث في العديد من

البلدان الرأسمالية المتطورة في سنوات ما بعد الحرب من وتائر عالية نسبياً في تطور الاقتصاد ، الأمر الذي ساعدت على تحقيقه أوضاع ، من قبيل ضرورة استبدال المعدات والآلات القديمة أو المحطمة ، والسيل الكبير من رؤوس الأموال الامريكية ووجود جيش جرار من العمال الاحتياطيين وغيرها . غير ان الوتائر العالميـة للتطور ليست ثابتة ، ولا تغير دورة تطور الانتاج الرأسمالي التي تترك فيها فترات النهوض الاقتصادي مكانها لفترات هبوط الفعالية الانتاجية .

ولقد بلغت كل تناقضات الرأسمالية الأخرى درجة من الحدة لم يسبق لها مثيل في المرحلة الجديدة من مراحل الأزمة العامة . فاشتد الصراع بين العمل ورأس المال ، ودخلت مصالح الأمم في صدام حاد مع المطامـع الأنانية لحفنة من الاحتكاريين الذين اخضعوا الجهاز الحكومي لاحتكاراتهم . وبالارتباط مع التطور المتفاوت اقتصادياً وسياسياً في البلدان الرأسمالية تبدل بسرعة تناسب القوى داخل النظام الرأسمالي نفسه واشتدت التناقضات بين الدول الرأسمالية وكتلها واحتدم صراع المزاحمة في السوق الرأسمالية .

ومن سمات المرحلة الثالثة لأزمة الرأسمالية العامة تعمق الأزمة في السياسة الداخلية والخارجية للاستعمار الذي يجد تعبيراً عنه في تفاقم الرجعية السياسية في جميع الميادين ، وفي التخلي عن الحريات البورجوازية واقامة أنظمة فاشية ارهابية في العديد من البلدان ، وفي الواقع ان الاستعمار يفقد دوره السابق في الشئون الدولية .

وتعاني الايديولوجية البورجوازية هي الأخرى أزمة عميقة ، فالتشاؤم والخوف من المستقبل والغيبية وعدم الثقة بالعلم وبقوى الانسان الخلاقـة وامكانياته ، وانكار التقدم والافتراء على الشيوعيـة والدفاع عن نظام عبودية الأجر والاضطهاد الممقوت من قبل الشعوب — تلك هي الصفات المميزة للايديولوجية البورجوازية . ولم تعد الايديولوجية البورجوازية منذ

أمد بعيد في وضع يمكنها من ان تقدم أفكاراً قادرة على جذب الجماهير العريضة ، فهي ايديولوجيـة طبقة تغادر مسرح التاريـخ . ولذا فإن افلاسها التام حتمي .

ان تعمق كل تناقضات الرأسمالية وأزمتها العامة يعني ان الثورة الاشتراكية المدعوة إلى تحطيم الرأسمالية بعلاقاتها الانتاجيـة القائمة على أساس الملكية الخاصة ودولتها الواقعة في قبضة مجموعـة من الاحتكاريين وسياستهـا وايديولوجيتها الرجعيتين ، إنما هي ضرورة تاريخية ملحة .

وكثيراً ما يطرح سؤال لماذا لا تزال الرأسمالية موجودة في العديد من البلدان وخصوصاً في البلدان الرأسمالية عالية التطور ، رغم ان تناقضاتهـا وقبل كل شيء الصدام بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج تجعـل من الثورة الاشتراكية ضرورة تاريخية ؟

القضية هنا هي ان الصدام في أسلوب الانتاج الرأسمالي يخلق امكانيـة موضوعية للثورة ، ولكن من أجـل تحويل الامكانية إلى واقـع ، من الضروري وجود قوة اجتماعيـة قادرة على تحقيق هذه الامكانية — وجود تحالف ثوري بين الطبقة العاملة وجماهـير الشغيلة غير البروليتارية يرأسه حزب ماركسي . وهذه القوة لم تتضح بعد في العديد من البلدان . ويعيق نضوجها انقسام الطبقة العاملة ومناورات البورجوازية التي تركن إلى سياسة العنف والخداع المعروفة منذ أمد طويل ، كوسيلة لابقاء قسم من الشغيلة أسرى الأوهام البورجوازية ، كما تسعى إلى شراء ارستقراطيـة العمال ، وتتخذ كل الاجراءات لتستطيع ان تخفف وتسوي بشكل ما التناقضات بين العمل والرأسمال . كما تلعب دورها في الحفاظ على رأسمالية الدولة البورجوازية بجهازهـا القمعي الهائل (الجيش ، البوليس ، المحاكم ، السجون) ، وكذلك بأجهزة التأثير الايديولوجي (المدرسة ، الكنيسة ، الصحافة ، الراديو ... الخ) .

وينبغي ان نضيف بأن الدول الاشتراكية بسبب من قصر الزمن الذي مر على قيامها ، وتأخرها السابق ، وتعقد ظروف التطور لم تتجاوز بعد أكثر البلدان الرأسمالية تطوراً من ناحية الانتاج بالنسبة للفرد الواحد من السكان . وطبيعي فإن بناء المجتمع الجديد في البلدان الاشتراكية لم يكن من الممكن ان يتم دون بعض الصعوبات والأخطاء ، الأمر الذي أعاق جزءاً من الشغيلة في البلدان غير الاشتراكية عن الانخراط في النضال من أجل الاشتراكية .

ادارة الدولة الاحتكارية والطبقة العاملة

كلما تعقدت الأزمة العامة للرأسمالية أكثر ، ازداد سعي ايديولوجييها وساستها أكثر لتزيين المجتمع الرأسمالي واخفاء جوهره المعادي للانسانية ، وتصوير ما يجري داخله من عمليات بألوان براقة خادعة . انهم يحاولون ان يبرهنوا بأن الرأسمالية قد بدلت طبيعتها ، وانه تجري الآن عملية اندماج بين الرأسمالية والاشتراكية في « مجتمع صناعي » موحد ، ذي مستوى استهلاك عالٍ . وان احدى علائم هذا الاقتراب للرأسمالية من الاشتراكية هي ان المجتمع الرأسمالي المعاصر إنما هو على غرار الاشتراكية مجتمع موجه تماماً ، وان هدف الانتاج الرأسمالي هو الانسان وضمان « أعلى مستوى استهلاك جماهيري » .

ان القوة المسيطرة على الرأسمالية هي السوق الرأسمالي وقوانين المزاحمة . وحتى وقت معين كانت هذه القوى هي الضابط للاقتصاد الرأسمالي . ولكن تحول الرأسمالية ما قبل الاحتكارية إلى رأسمالية احتكارية ، ودخول الرأسمالية في عصر الأزمة العامة أديا إلى ان يصبح هذا الضابط غير كاف للقيام بوظيفته على الوجه المطلوب ، ومن ثم فانه لا يخدم التطور اللاحق للرأسمالية . ولهذا اضطرت الاحتكارات إلى العمل على تحميل الدولة

البورجوازية وظيفة التدخـــل المباشر في عملية الانتاج الرأسمالي وفي مجرى الحياة الاجتماعية . ان هذا السبب الاقتصادي هو أحد أهـــم الأسباب ، لظهور رأسمالية الدولة الاحتكارية التي تندمج فيها قوة الاحتكارات الاقتصادية بقوة الدولة السياسية . وطبيعي ، فإن هذا ليس هو السبب الوحيد ، كما ان التدخل في الانتاج ليس المهمة الوحيدة لاتحاد قوة الاحتكارات بقوة الدولة . إن هذا الاتحاد يستهدف ضمان ثروات أعظم للاحتكارات وخنق الحركة العمالية والنضال الوطني التحرري وحمايـــة النظام الرأسمالي واشعال حروب عدوانية . غير ان هذه المهام لا يمكن ان تنجز دون المحافظة على مـــا هو رئيسي في الرأسمالية ألا وهو اقتصادها القائـــم على أساس الملكية الخاصة .

ان الدولة البورجوازية تحقق دورهـا الضابط (المبرمـج) قبل كل شيء في ميدان نشاط ملكية الدولة في « اقتصاد الدولة » ، الذي هو نتيجة للتأميم الرأسمالي والذي لا يعني سوى ملكية جماعية للاحتكارات . ان الدولة تقود بشكل مباشر المؤسسات التابعة لها وفروعاً بكاملها في الصناعة والنقل والبنوك وشركات التأمين وغيرها .

وفي نفس الوقت فإن الدور المبرمج للدولة البورجوازية لا يتحدد في إطار ملكية الدولة البورجوازية وهو يظهر بهذه الدرجة أو تلك في مجموع الإقتصاد والحياة الاجتماعية في الرأسمالية . وان أحد اهتماماته الرئيسية هو إزالة مظاهر أزمة الرأسمالية العامة ــ ولو جزئياً ــ وخصوصاً أزمات فيض الانتاج . ومن جملة الاجراءات المضادة للازمات يمكن ذكـــر : زيادة الطلبيات الحكومية ، الاعاقة المصطنعة لانتـــاج مواد الاستهلاك الشعبي ، وتخفيض العرض في السوق عن هذا الطريق ، اعطاء المساعدة الاقتصادية للاحتكارات وخصوصاً اعطاء مساعدات مالية مجانية للاحتكارات التي تعاني وضعاً مالياً صعباً ، زيادة الاحتياطيات الحكومية فوق العـادة عن طريق

شراء البضائع الزائدة لدى الاحتكارات و ... الخ . ان عبء هذه الاجراءات يقع على كاهل الطبقة العاملة وجماهير الشغيلة الواسعة من دافعي الضرائب الذين من أموالهم تتألف بصورة خاصة ميزانية الدولة التي تستخدمها لتمويل الاجراءات المضادة للأزمات ، بينما تضمن في الوقت نفسه للاحتكارات أعلى الأرباح .

ان ادارة الدولة الاحتكارية للاقتصاد في ظل الرأسمالية لا تقتصر اليوم على الاجراءات المضادة للأزمات فهي تتحقق أيضاً في فترة النهوض في الدورة الاقتصادية ، بهدف ضمان تطور الاقتصاد لمرحلة أكبر أو أصغر .

ان الدولة تنسق برنامج توظيف رؤوس الأموال الحكومية والشركات الخاصة ، وتنظم توزيع الطلبيات والمواد الأولية غير الكافية وسياسة الأسعار ، وتقوم بكل هذا لصالح الاحتكارات . ولصالحها أيضاً تقوم بتوزيع الدخل الوطني عن طريق السياسة الضرائبية ، وتوزيع القروض والمنح لتجديد المعدات . وتأخذ الدولة البورجوازية ، أكثر فأكثر ، دور مؤسس فروع جديدة للانتاج والتكنيك وتتحمل مخاطر توظيف رؤوس الأموال في هذه الفروع في المرحلة الأولى من تطورها ، التي لا تضمن للاحتكارات الخاصة أرباحاً كافية ، وتسيطر الدولة على الانتاج الحربي وأهم فروع البحث العلمي .

وسيكون من غير الصائب النظر إلى برمجة الدولة الاحتكارية كشيء مصطنع ، كنتيجة لرغبة ذاتية من لدن الاحتكارات . ان هذه البرمجة تفرضها الحياة نفسها وحاجات تطور الانتاج المعاصر والعلم والتكنيك . ان الثورة العلمية التكنيكية تتطلب رفع مستوى مركزة الانتاج وتوحيد الموارد المادية والمالية والبشرية وتوسيع مجالات البحث والتجربة التي لا تستطيع الاحتكارات الخاصة في كثير من الأحيان تحقيقها دون مساعدة الدولة . وان عاملاً هاماً جداً يحفز ادارة الدولة الاحتكارية هو « التحدي »

الاقتصادي من جانب النظام الاشتراكي العالمي ضد الرأسمالية . ومن أجل الصمود في الصراع بين النظامين تبحث الدولة البورجوازية وتجد وسائل لتنشيط الانتاج وللاسراع في تطويره .

ومع ذلك ، مهما كان دور الادارة الحكومية في الرأسمالية فليس هناك ما يجمعها بالادارة العلمية للاقتصاد ككل ، وبالتخطيط اللذين لا يمكن ان يتحققا مع وجود الملكية الرأسمالية الخاصة . وهي لا تبدل جوهر الاستعمار ولا تزيل الاستغلال ولا فوضى السوق وصراع المزاحمة وفوضى الانتاج .

وإلى هذا تشير بوضوح ظواهر من قبيل أزمـــات فيض الانتاج في الولايات المتحدة الامريكية بعد الحرب العالمية الثانية والأزمات الماليـة في انجلترا ، والتضخم والغلاء في العديد من البلدان ، وعجز الميزان التجاري وميزان المدفوعات وافلاسات البورصة وغيرهـــا من الافلاسات الكثيرة وخروج الذهب من الولايات المتحدة الامريكية و ... الخ . ان الادارة المذكورة لا يمكن ان تزيل العطل المزمن لجزء من الطاقات المنتجة والبطالة ولا أن تضمن النمو المستمر للانتاج .

ان رأسماليـــة الدولة الاحتكارية تكمل الادارة الاقتصاديـــة بالادارة الاجتماعية . فالادارة الاقتصادية بذاتها هي في الوقت نفسه ادارة اجتماعية ، ذلك انها لا تستهدف فقط ضمان أرباح طائلة للاحتكارات ، وإنما تحمي أيضاً الرأسمالية من الهزات السياسية والاجتماعية ، التي تلعب فيها الأزمات الاقتصادية والبطالة وغيرهـــا من قرح الاقتصاد الرأسمالي دوراً لا يستهان به . وتعير الدولة البورجوازية اهتماماً خاصاً للسيطرة على العلاقات بـــين العمل والرأسمال ، وتقوم بهذا بطبيعة الحال لصالح الرأسماليين . ان الدولة البورجوازية إذ تحقق الادارة الاجتماعية فانهـــا تحاول المهادنة ، في إطار الرأسماليـــة ، بين جانبين لا يمكن تحقيق المهادنة بينهما ألا وهمـــا الرأسمال والعمل ، وبهذه الطريقة تريد حماية نظام الاستغلال الرأسمالي . وأحيانـــاً

تضطر إلى التضييق ، إلى درجة ما ، على ميول الاحتكارات الفائقة عن الحد ، وتحملها على التراجع جزئياً أمام العمال ، وبذا تخفف أو تخمد الصدامات الملموسة بين العمال والرأسمال . انها تستخدم على نطاق واسع تاكتيك المناورة والتضليل الاجتماعي ، دون أن يعني ذلك تخليها عن نهب الطبقة العاملة ليس اقتصادياً فحسب بل بوسائل خارج نطاق الاقتصاد ، أي بطرق عنفية بحتة (الجيش ، البوليس ، المحاكم) ، وكذلك عن طريق التــأثير الايديولوجي ، من أجل حمل العمال على العمل لتحقيق الارباح للاحتكارات .

ومن الطبيعي أن رأسمالية الدولة الاحتكارية انما تعقد النضال الثوري للطبقة العاملة وتزيده صعوبة ذلك ان الطبقة العاملة تواجه هنا قوة الإحتكارات الموحدة مع قوة الدولة . ويجب أن لا يغيب عنا ، في الوقت نفسه ، أن التأميم وإقامة قطاع حكومي في الإقتصاد الرأسمالي والبرمجة الإقتصادية وغيرها التي تعكس المصالح البعيدة للإحتكارات وستراتيجيتها الإقتصادية والسياسية ، هي في الوقت نفسه دليل افلاس الرأسمالية الإقتصادي والسياسي . إن الإشتراكية تطرق أبواب العالم الرأسمالي بإلحاح وان الحياة نفسها وحاجات تطور الإقتصاد المعاصر تجبر البورجوازية على القيام بتراجعات معينة عن « حقها المقدس في الملكية الخاصة » ، وباقامة « اقتصاد حكومي مبرمج » . ورغم ان هذا الإقتصاد لا يزال اقتصاداً رأسمالياً فان مجرد واقع ظهوره يدلل على ان الرأسماليين لا حاجة لهم كمنظمين للإنتاج ، وانهم ليسوا سوى طفيليين في جسم المجتمع . وإلى جانب هذا فان « الإقتصاد الحكومي » هو مقدمة مادية مباشرة للإشتراكية ذلك انه يمكن تحويله بسهولة وبدون أية مصاعب إلى ملكية اشتراكية نتيجة الثورة الإشتراكية . ولذا فان الطبقة العاملة إذ تناضل ضد الاحتكارات فانها تلح على تطبيق برنامج للتأميم على أسس ديمقراطية وتناضل من أجل ادارة الإقتصاد وتوجيهه لصالح الشعب وتطالب بحقها في ادارة كل الاقتصاد والحياة الإجتماعية في المجتمع .

إن التوجيه الإقتصادي والاجتماعي لا يحل ، مطلقاً ، تناقضات الرأسمالية المعاصرة وخصوصاً التناقض بين العمال والرأسمال. بل على العكس فان هذه التناقضات تكتسب طابعاً أكثر حدة وعمقاً .

الرأسمالية تعادي الإنسان

يزعم ايديولوجيو وساسة البورجوازية ان الرأسمالية المعاصرة قد تحولت إلى « رأسمالية شعبية » وان هدفها هو الإنسان وحاجاته ، وانها تسير نحو مجتمع « الرخاء الشامل » و « الاستهلاك المرتفع » . وقد « نسوا » أن يحددوا بأي انسان وبأية حاجات وبأي رخاء تهتم الرأسمالية ، ففي الرأسمالية – كما هو معروف – يوجد انسان مالك لوسائل الإنتاج ؛ بورجوازي ، وإنسان شغيل : عامل ، مزارع ، فلاح .

ان أصحاب الملكيات الكبيرة هم أقلية تافهة ولكنهم الأسياد الحقيقيون للمجتمع الرأسمالي . وبهم على وجه التحديد ، برخائهم وبحاجاتهم يهتم ايديولوجيو البورجوازية . ففي أيدي أصحاب الملكيات الكبيرة تتركز مفاتيح الحياة الإقتصادية ومراكزها الحساسة ، وكذلك الحال بالنسبة للحياة السياسية والروحية ، وتتركز في أيديهم قيم مادية وثقافية هامة . وهكذا مثلاً تمتلك حفنة ضئيلة من الأغنياء لا تزيد عن ١٪ من السكان ٦٠٪ من الثروة الوطنية في الولايات المتحدة الأمريكية و٥٠٪ في بريطانيا . وفي بداية الستينات كان يوجد في الولايات المتحدة الأمريكية ٨٥ عائلة على أقل تقدير يزيد رأسمالها الشخصي عن ٧٥ مليون دولار . وطبيعي ان من يملكون الرأسمال يتمتعون بامكانيات غير محدودة لتأمين حاجاتهم التي تأخذ في كثير من الحالات طابع نزوات وشهوات جامحة لا ضابط لها . ان مليونيري أمريكا اليوم قد بزوا في تبذيرهم حتى ملوك وأمراء العصور الماضية . فهم يبددون أموالاً طائلة لبناء وادامة قصورهم ولصنع يخوت

وسكك حديد وقطارات وطائرات وسيارات بالغة الفخامة خاصة بهم وقد حولت أكثريتهم نساءهم إلى كنوز متحركة : ففي إحدى الحفلات المسائية في واشنطن كانت قيمة المجوهرات التي تزين احدى النساء المعروفات تبلغ عدة ملايين من الدولارات ، ولذا فقد كان في حراستها ١٥ حارساً خاصاً وفصيلة من البوليس .

فمن أين أخذت هذه الأموال الطائلة ؟ انها لا يمكن أن تكون نتاج عمل شريف . فقد حسب مثلاً انه لكي يتمكن عامل أمريكي ذو أجر حسن من الوصول إلى وضع آل روكفلر أو آل ميلون أو آل ديبـون يتوجب عليه أن يوفر كل أجوره لمدة مليون سنة ! ان المصدر الوحيد لثروة الاحتكاريين هو استغلال الشغيلة الذي هو في جوهره معاد للإنسان ويتنافى مع طبيعته وأهميته السامية ومكانته في الحياة .

إن رأسمالية الدولة الاحتكارية قد شددت استغلال العمال . ويكفي آن نذكر انه في السنوات الأولى التي أعقبت الحرب العالمية الثانية كان معدل القيمة الزائدة في الصناعة التحويلية في الولايات المتحدة الأمريكية ٢٦٠ — ٣٠٠٪ في حين كان عـام ١٩٣٩ — ٢٠٣,٣٪ وفي عام ١٩٢٩ — ١٨٦,٢٪ وفي عام ١٨٨٩ لا يزيد عن ١٢٢,٢٪ .

إن تشديد الاستغلال ينعكس بشكل سيء على وضع الطبقة العاملة . فعندما نتحرى وضع الطبقة العاملة يجب أن نأخذ بنظر الاعتبار تأثير ميلين متناقضين . الأول هو الميل الثابت لتردي وضع الطبقة العاملة في الرأسمالية . والثـاني الذي يعارض الميل الأول هو الميل الذي يرتبط بصورة رئيسية بنضال الطبقة العاملة الطبقي الذي يعيق هجوم الرأسمال على العمل . فنتيجة لنضال العمال الدؤوب بالذات ضد الرأسمال حقق العمال في العديد من البلدان الرأسالية تحسناً معيناً في أوضاعهم .

يزعم الاقتصاديون البورجوازيون انه لا يوجد في المجتمع الراسمالي

المعاصر أملاق للطبقة العاملة . ولكن الواقع هو غير هذا تماماً . ففي الرأسمالية يوجد إملاق مطلق – وهو ازدياد البؤس المادي للعمال في البلدان التي استغلت لآماد طويلة من قبل المستعمرين وللعمال في مناطق معينة في البلدان الرأسمالية المتطورة التي توجد فيها فروع متدهورة للصناعة مثلاً صناعة الفحم الحجري ، وكذلك بالنسبة للعمال العاطلين وغير القادرين على العمل والعمال الأجانب و ... الخ . ويوجد في الرأسمالية أيضاً إملاق نسبي للطبقة العاملة ويعني تردي وضعها بالنسبة لوضع البورجوازية التي تزداد غنى يوماً بعد يوم .

ويظهر الأملاق النسبي بصورة خاصة في ان ارباح الاحتكارات تزداد بينما حصة العمال من الدخل الوطني تنخفض باستمرار . فمثلاً ازدادات ارباح الاحتكارات في الولايات المتحدة الأمريكية من عام ١٩٢٤ حتى عام ١٩٥٢ – ٧,٧ مرات في حين انخفضت حصة العمال من مجموع المنتوج الاجتماعي من ٥٩,٧٪ عام ١٩٠٠ إلى ٤٥,٩٪ عام ١٩٥٦ . وليس من شك في أن هذه الحصة في تعبيرها المطلق ، أو لنقل المادي ، هي في العديد من البلدان الرأسمالية المتطورة (الولايات المتحدة الأمريكية ، ألمانيا الغربية ، انجلترا ، ايطاليا ، فرنسا وغيرها) عالية بما فيه الكفاية ، الأمر الذي يؤمن مستوى معيشة مرتفع لقسم معين من الشغيلة . ولكن يجب أن لا ننسى بأنه إلى جانب هذا المستوى المرتفع للاستهلاك لدى هذا القسم يوجد فقر القسم الآخر ، الأكثر عدداً من الشغيلة في هذه البلدان ، وكذلك البؤس المدقع والأمية للقسم الأعظم من سكان البلدان المتأخرة في تطورها لهذا السبب أو ذاك . وحتى في بلد غني كالولايات المتحدة الأمريكية يعيش ٣٢ مليون أمريكي في فقر باعتراف الحكومة الأمريكية نفسها . وماذا يمكن أن يقال عن مستوى المعيشة في البلدان ضعيفة التطور ، حيث معدل دخل الفرد الواحد من السكان يقل بعدة مرات عما هو عليه في الولايات المتحدة الأمريكية . ان ٥٥٠٠ انسان يموتون يومياً من الجوع والأمراض

والشيخوخة المبكرة في بلدان أمريكا اللاتينية. ويدخل جيوب الاحتكارات الأمريكية من هذه الأقطار يومياً أيضاً خمسة مليارات دولار. أي ألف دولار عن كل شخص يموت. وهكذا تدفع البشرية ثمن الاستعمار الباهظ من حياة أبنائها.

وفي الولايات المتحـــدة الأمريكية، في أرض الرأسمالية المحظوظة، يتعرض ملايين الزنوج لاستغلال وحشي ولاستعباد سياسي وروحي. وحسب معلومات تقريبية وغير كاملة فان الاحتكارات الأمريكية حصلت في سنوات الأربعينات من الاستغلال المضاعف للزنوج على أربعة مليارات دولار سنوياً.

وعلى غرار الزنوج في الولايات المتحدة الأمريكية يعيش ملايين العمال الأجانب في العديد من بلدان أوروبا الغربيـــة حياة بائسة، ممن تركوا أوطانهم مع عوائلهم وأقربائهم في أحيان كثيرة من أجل أن يؤمنوا لأنفسهم لقمة العيش فقط. وهم يتعرضون في البلدان التي جاءوا اليها للعمل لاستغلال وحشي وتمييز عنصري، محرومين من أي حق سياسي. ويقومون بأشق الأعمال وأخطرها ويستلمون عن نفس العمل أجوراً أقل مما يستلم العمال المحليون ويعيشون في بؤس وحرمان وجهل. وملايين العاطلين الذين أخرجهم الاستعمار من ميدان الانتاج وحرمهم من امكانية اظهـــار قدرتهم على العمل التي هي أعمق مظهر لجوهر الإنسان، ليس أمامهم سوى أن يحلموا بحياة انسانية حقيقية. إن البؤس المدقع وانحطاط القوى الجسدية والدمار الروحي – ذلك هو نصيب هـــؤلاء المنبوذين في مجتمع «الاستهلاك المرتفع».

ان الاحتكاريين، بهدف الحصول على أقصى الارباح يزيدون من حدة العمل ويسرعون معدلاته الأمر الذي ينعكس بشكل سلبي على الإنسان الشغيل، حيث يشيخ الجسم وتستنفد طاقاته قبل الأوان، وتزيد الإصابات

في العمل وتزداد الأمراض المهنية وكذلك الانهيارات النفسية التي أصبحت كارثة اجتماعية حقيقية . ففي الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً يقع سنوياً مليونا حادث مؤسف في الإنتاج منها ١٤ ــ ١٥ ألف حادث مميت ، ونصف أسرة المرضى في البلاد يشغلها المصابون بالأمراض النفسية ، ولا تؤمن المعالجة الصحية إلا بنسبة ٥٦٪ بالكاد .

ان الرأسمالية لا تبدي الرعاية اللازمة لصحة الشغيلة . فالمعالجـــة الطبية لا تقدم في العادة إلا مقابل أجور وتكاليف مرتفعة . إن عائلة أمريكية مثلاً تنفق للمعالجـــة الطبية سنوياً ، في المتوسط ، راتب شهر تقريباً . ويعاني الشغيلة في البلدان الرأسمالية حاجة ماسة للسكن ويعيش المتقاعدون بسبب الشيخوخة وضعاً محزناً .

ونظراً لاحتكار الطبقـــات المسيطرة لحق النشاط الفكري فقد استعبدت انسان العمل روحياً وسدت بوجهه منافذ العلم والمعرفة والثقافة . وإن هذه الطبقات تؤمن التطور الثقافي للشغيلة إلى الدرجة التي تنسجم مع مصالحها هي فقط ، وتسعى إلى الاقتصار على تعليم أولاد العمال والفلاحين تعليماً مهنياً فقط ليكون نصيبهم العمل للرأسمالي لا غير .

إن جوهر الإستعمار المعادي للانسانية يبدو بوضوح في واحـــد من المظاهر البشعة للرأسمالية المعاصرة الا وهو عسكرة الاقتصاد ، حيث تستخدم ثروات طائلة خلفتها أيدي وعقول الناس العاملين ، لا لصالح تحسين حياتهم وانما لإنتاج أسلحة رهيبة للموت والدمار . ان النفقات العسكرية في الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً خلال السنوات العشرين التي أعقبت الحرب العالمية الثانية فاقت بـ ٤٨ مرة نفقاتها العسكرية خلال العشرين سنة التي سبقت الحرب . وينفق العالم الرأسمالي لسباق التسلح مبلغاً هائلاً يفوق ١٠٠ مليار دولار سنوياً . وليس صعباً أن نرى أي تقدم عظيم في التطور الإقتصادي للبلدان ضعيفة التطور وفي رخاء الناس يمكن أن يتحقق ، لو

ان هذه المبالغ الطائلة كانت قد استخدمت لأغراض سلمية . ولا بد من القول هنا ان هذا لا يمكن ان يتحقق في ظل الاستعمار ، ذلك ان الطلبيات العسكرية هي أكبر الطلبيات وأضمنها بالنسبة للاحتكارات .

ان منجزات العلم والتكنيك المعاصرة تفتح آفاقاً لا سابق لها لرفع رخاء الناس المادي والثقافي . ولكن الاحتكارات ليس فقط تعيق استخدام منجزات العقل البشري لصالح الانسان ولكنها غالباً ما توجهها ضده ، محولة إياها إلى وسائل رهيبة للحرب الطاحنة المدمرة .

وتتركز في أيدي الاحتكارات معدات ووسائل البحث العلمي الحديثة المعقدة والغالية الثمن . ومن الطبيعي ان تعود للاحتكارات نتائج عملها التي تستخدمها لضمان الأرباح الاحتكارية والاستحواذ على الأسواق . وان السرية الشديدة في الأبحاث العلمية التي يسببها صراع المزاحمة تخلق صعوبات في تبادل المعلومات العلمية ، وتكراراً في الجهود وكل هذا يؤدي إلى تبديد لا فائدة فيه للأموال ولعمل العلماء الخلاق . وتحتفظ الاحتكارات في ادراجها بالألوف والألوف من أهم الاختراعات والاكتشافات انتظاراً لارتفاع « القيمة التجارية » .. فمثلاً بدىء بانتاج النايلون فقط خلال عامي ١٩٤٦ – ١٩٤٧ أي بعد أربعة عشر عاماً من اختراعه (١٩٣٢) .

ويشكل استخدام العلم والتكنيك خطراً خاصاً على الانسان . ان ما يزيد على ثلثي العلماء الامريكان وحوالي ثلاثة أرباع العلماء الانجليز يعملون في أبحاث ذات أهمية عسكرية . وان ٨٠٪ من المبالغ المخصصة لكل العلوم في الولايات المتحدة الامريكية تصرف لابحاث ذات طابع عسكري .

وهكذا فان الرأسمالية المعاصرة تعادي الانسان الشغيل . ومن الطبيعي فإن أناس العمل لا يمكن ان يسكتوا على اغتصاب حقوقهم الانسانية ودوس كرامتهم البشرية . ولذا فانهم يناضلون بدأب وثبات للتحرر من الاستعمار . وتقف على رأس هذا النضال ، الطبقة العاملة .

٢ ـ الخصائص الرئيسية لنضال الطبقة العاملة الثوري

رغم تأكيدات محامي الرأسمالية عن « زوال الطبقات » وعن « الانسجام الاجتماعي » في المجتمع الرأسمالي تتسع في العالم الرأسمالي معركة هائلة بين العمال والرأسمال ، وتتسع الحركة الثورية الجبارة للطبقة العاملة .

فما هي الخصائص الرئيسية لهذه الحركة ؟

سعة الحركة الاضرابية

ان التغيرات الاجتماعيـــة الكبيرة ، وتنامي الانتاج والتبدلات العميقة المرتبطة بأحدث المنجزات العلمية التكنيكية ، ما كان من الممكن ان لا تنعكس على وضع الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية : عددها وتركيبهـا وعلى ظروف وأهداف ومهمات نضالها . فقبل كل شيء ازداد عدد العمال بشكل كبير جداً . فبعد ان كانوا يعدون تسعة ملايين في أواسط القرن الماضي ، أصبح عدد العمال والمستخدمين في العـالم الرأسمالي اليوم ٣٥٠ مليوناً ، ٢٠٠ مليون منهم في البلدان الرأسمالية المتطورة .

وتبدل أيضاً تركيب الطبقة العاملة . فقد نما إلى حد كبير ، وخصوصاً في الفترة الأخيرة ، عدد شغيلة الادارة والمكاتب والتكنيكيين العاملين في ميدان الانتاج المادي . حقاً ان هؤلاء انصاف بروليتاريين ولكن وضعهم ودورهم في الانتاج يقربانهم إلى وضع ودور العمال الذين يقومون بعمل منتج مباشرة . وازداد ليس عدد أفراد الطبقة العاملة فحسب بل تنظيمها أيضاً .

وتكتسب الأحزاب الشيوعية أهمية ووزناً أكبر فأكبر في قيادة الطبقة العاملة . إن ملايين العمال والعاملات موحدون في الاتحادات النقابيـــة وفي

التنظيمات الديمقراطية للشباب والنساء وغيرها . وان منظمة جماهيرية مجاهدة واحدة للطبقه العاملة العالمية هي اتحاد النقابات العالمي تضم في صفوفها حوالي ١٤٠ مليون عضو[1] .

ولقد أصبح الوضع في البلدان الرأسمالية اليوم أكثر ملاءمة لنضال الطبقة العاملة . فإن ضعف الرأسمالية نتيجة أزمتها العامة وتوطد قوى الاشتراكية في العالم وخصوصاً نفوذ النظام الاشتراكي العالمي الذي يشيع الروح الثورية ، واتساع القاعدة الاجتماعية للحركة الثورية في البلدان الرأسمالية نفسها ، ان كل هذا يخلق امكانيات جديدة للحركة العمالية . وإلى جانب هذا فإن الحركة العمالية نفسها قد كدست تجربة هائلة في النضال ضد الرأسمالية وضد عملائها في صفوف الطبقة العاملة . لقد أصبحت الحركة الأكثر نضجاً من الناحية الايديولوجية ، وتتميز بتنظيم أكبر وبروح نضالية أعلى . وتعاظمت مكانة الأحزاب الشيوعية بين صفوف الشغيلة ، كما تعاظم دور النقابات . وتحت قيادة منظماتها ترد الطبقة العاملة بحزم على عنف البورجوازية ، وتظهر رجولة وصلابة وضبطاً أعلى ووحدة أمتن في النضال الثوري .

وتستخدم الطبقة العاملة في هذا النضال مختلف أنواع الوسائل : الاضرابات والمظاهرات ، الاجتماعات والمؤتمرات ، مناقشات البرلمان ، الصحافة والراديو و ... الخ .

وقد اكتسبت الحركة الاضرابية اليوم مدى واسعاً وتنظيماً كبيراً — وهي الوسيلة القديمة المجربة في نضال العمال ضد الرأسماليين . ويكفي ان نذكر ان عدد المساهمين في الاضرابات خلال السنوات العشر الأخيرة قد تضاعف وبلغ ٥٥ — ٥٧ مليون مضرب سنوياً .

---

١ كان هذا عند كتابة الكتاب ، أما اليوم فان هذه المنظمة تضم ١٨٠ مليون عضو .

ان النضال الاضرابي أصبح ليس أكثر شمولاً فحسب وإنما أكثر مرونة وتنوعاً أيضاً . ففيما عدا الاضرابات العامة يطبق العمال اضرابات انذارية ، اضرابات مع ضغط متزايد ، عندما تلتحق بالتدريج بالعمال المضربين فصائل عمالية جديدة ، اضرابات في المؤسسات الهامة لهذا الفرع من الصناعة أو ذاك ، اضرابات تتكرر دورياً (بين يوم ويوم ، بضع ساعات في اليوم و ... الخ) ، اضرابات على شكل موجة تنتقل من مؤسسة إلى أخرى و ... الخ ، ان استخدام مختلف أشكال الاضرابات يتيح للعمال ان يتجنبوا خسائر مادية هامة ، وفي الوقت نفسه يفسح المجال أمامهم للقيام بضغط جدي على أرباب الأعمال لتحقيق مطاليبهم . وفي مجرى النضال الاضرابي تظهر بوضوح أكبر فأكبر الميول نحو تعزيز وحدة الطبقة العاملة .

وهكذا فإن الاتساع الهائل والتنظيم والمرونة في النضال الاضرابي هي الخاصية الهامة للحركة العمالية المعاصرة .

التوحيد بين اشكال النضال الاقتصادية والسياسية

ان احدى الخصائص الهامة للحركة العمالية المعاصرة هي التوحيد بين أشكال النضال الاقتصادية والسياسية . وكثيراً ما تخرج مطالب العمال عن نطاق المطالب الاقتصادية وتكتسب طابعاً سياسياً . فبينما كانت نسبة العمال المضربين المساهمين في اضرابات سياسية عام ١٩٥٨ – ٤٤٪ من المضربين ، بلغت هذه النسبة عام ١٩٦٤ – ٦٤٪ .

وفي أيامنا هذه أصبح من الاعتيادي ان يقود النضال ، حتى من أجل مطالب اقتصادية صرفة ، الطبقة العاملة إلى ادراك ضرورة النضال السياسي . ذلك ان الدولة البورجوازية هي في العديد من البلدان مالك كبير يخدم مصالح الاحتكارات والدولة نفسها وهي بذلك تستغل بشكل مباشر جزءاً

هاماً من الطبقة العاملة ، الذي يعمل في المؤسسات الحكومية . ان الشغيلة يصطدمون بالدولة البورجوازية في ميدان الضمان الاجتماعي وفرض الضرائب ، والنشاط النقابي و ... الخ . انهم يرون ان هذه الدولة هي دوماً وفي كل مكان إنما تدافع عن مصالح الاحتكارات وفي أوقات الاضرابات والمظاهرات والاجتماعات تحدث صدامات مع البوليس ، وأحياناً مع قوات جيش الدولة البورجوازية . ان تطور رأسمالية الدولة الاحتكارية يؤدي إلى ان تظهر التناقضات الطبقية الآن كتناقضات بين الشغيلة من جهة والقوة الموحدة للاحتكارات والدولة من جهة أخرى . ونتيجة لهذا فإن زخم النضال الطبقي أصبح أكثر قوة ، وان دائرة القضايا التي يدور حولها الصراع أكثر اتساعاً .

في السابق كانت تطغى على مطالب المضربين شعارات يوم عمل ثماني ساعات ، والاعتراف بالحقوق البسيطة الأولية للمنظمات النقابية ، تطبيق الضمان الاجتماعي ، اعطاء الحقوق الانتخابية لكل المواطنين وغيرها . واليوم إلى جانب حل مثل هذه المهمات ، فإن الطبقة العاملة تناضل من أجل تحقيق مطالب أكثر أهمية وأكثر ايلاماً للرأسمالية . انها تناضل من أجل توسيع الحقوق السياسية للشعب كله وتوطيد وتطوير الديمقراطية ، وتناضل ضد التسابق في التسليح ومن أجل السلم والتقدم الاجتماعي . ويحتل مكاناً هاماً في فعاليات الطبقة العاملة النضال في سبيل تأميم أهم فروع الاقتصاد واشاعة الديمقراطية في ادارتها . وتوجه الطبقة العاملة وطليعتها الثورية – الأحزاب الماركسية – ضربتها الرئيسية ضد الاحتكارات الرأسمالية دعامة الرجعية والعدوان والمسؤول الرئيسي عن سباق التسلح والوضع السيء الذي تعاني منه الشغيلة .

وهكذا ، فإن نضال الطبقة العاملة من أجل المطالب الاقتصادية يرتبط أوثق فأوثق بالنضال من أجل التغييرات الجذرية الاجتماعية والسياسية وبالنضال لتصفية النظام الرأسمالي ككل .

اتساع القاعدة الاجتماعية

والخاصية الهامة الأخرى للحركة الثورية المعاصرة للطبقة العاملة هي اتساع قاعدتها الاجتماعية والاتجاه نحو اقامة جبهة موحدة لنضال القوى التقدمية ضد الاحتكارات الرأسمالية .

ان الاحتكارات تستغل بلا رحمة ليس العمال فحسب بل والقسم الأساسي من الفلاحين والحرفيين والتجار الصغار والفئات الدنيا والمتوسطة من المستخدمين والمثقفين الشغيلة . لقد نشر دعاة الرأسمالية منذ وقت طويل الأساطير عن استقرار الاستثمارة الفلاحية الصغيرة . ولكن الاحتكارات هنا أيضاً شغلت وضعاً مسيطراً . ففي أمريكا مثلاً ، انخفض عدد المزارعين منذ عام ١٩٣٤ حتى عام ١٩٥٤ بمليونين وثلاثين ألف مزارع ، وفي فترة ١٩٥٤ – ١٩٥٩ بمليون وثمانية وسبعين ألف آخرين . أي بنسبة ٢٣٪ . وهذا يعني ان واحداً من كل أربعة مزارعين قد أصابه الخراب . وعلى هذه الشاكلة نجد الوضع في بلدان رأسمالية أخرى ، حيث يترك الفلاحون القرى بشكل جماهيري ويزيدون عدد جيش الفقراء في المدن . اما فيما يتعلق بالاستثمارات الصغيرة التي نجت من الخراب فانها تعزز وجودها بحرمانات لا تصدق وباستهلاك غير كاف وجهود شاقة من جانب أصحابها .

ان اضطهاد الاحتكارات يحمل الفلاحين على الاتحاد والنضال من أجل الأرض ومن أجل حقوقهم . وقد حدثت اضطرابات فلاحية قوية في السنوات الأخيرة في فرنسا وايطاليا واليونان وألمانيا الغربية وغيرها من الأقطار . ويستعمل الفلاحون في نشاطاتهم ونضالاتهم أساليب بروليتارية على نطاق واسع (الاضرابات ، المسيرات ، المظاهرات ... الخ) . ويستفيدون من تجربة الفصائل الطليعية للطبقة العاملة . ويقدم العمال دعماً شاملاً للفلاحين في نضالهم ، وكثيراً ما تناضل المنظمات العمالية والفلاحية

كتفاً لكتف وتساعد بعضها البعض . وإلى جانب الفلاحين يطالب العمال باصلاحات زراعية جذرية ويناضلون لتحقيق شعار « الأرض لحارثها ! » .

وتدمر الاحتكارات أصحاب الملكيـــة الصغيرة في المدن . وتخرب الإنتاج الحرفي وتبتلع المؤسسات الصناعية الصغيرة والمتوسطة أو تجعلها تابعة لها . إن سياسة الاحتكارات والحكومات البورجوازية المرتبطة بها بقوة تدفع للنضال المستخدمين الصغار والمتوسطين من معلمين وأساتذة في المعاهـــد الدراسية العليا وأطباء وعلماء وكتاب وفنانين . وفي كل بلد رأسمالي تقريباً توجد الآن فعاليات لهذه الفئات من الشغيلة ضد ما تفرضه الاحتكارات .

وكما يبدو ، فان تصفية سيطرة الاحتكارات تهم بصورة حيوية ليس الطبقة العاملة فحسب وإنما أيضاً الفلاحين والحرفيين وقسماً من المثقفين والبورجوازية الصغيرة في المدن وقسماً من البورجوازية المتوسطة . وكل هذا يوسع إلى درجة هامة القاعدة الاجتماعية للحركة العمالية ويعطي امكانية لأن تتوحد كل القوى التقدمية في جبهة قوية معادية للاحتكارات . إن الطبقة العاملة مدعوة لقيادة هذه الجبهة وأن تكون طليعة للشعب كله وكل القوى المعادية للإحتكارات ، وان تعبئها في نشاط فعال ضد الاحتكارات . إنهـــا من خلال النشاطات الثورية ، تعلم كل الشغيلة وكل المستغَلين ، تعلمهم ليس بالقول بل بالعمل وبمثال « الفعاليات الثورية الجماهيرية ، وتوحد المطالب السياسية والاقتصادية » [1] .

الصلة الوثيقة بين المهمات الديمقراطية والاشتراكية

ان مؤسسي الشيوعية العلمية قد أوضحوا بشكل مقنع محدودية وضيق الديمقراطية البورجوازية ودللوا على أن الديمقراطيه البورجوازية في الواقع هي

---

١ لينين – المؤلفات ، ج ١٩ ، ص ٢١٨ .

دكتاتورية البورجوازية ، دكتاتورية جزء ضئيل من الأغنياء على الجزء الأعظم من الشغيلة . وأشاروا إلى أن الطبقة العاملة لا يمكن أن تقف موقف اللامبالاة تجاه الديمقراطية ، ذلك انها تعطي في الوقت نفسه « سلاحاً بيد البروليتاريا » [1] . ففي ظل ديموقراطية بورجوازية مبتورة ، ولكنها مع ذلك ديمقراطية تتسع امكانيات النضال الثوري للطبقة العاملة . لنأخذ مثلاً البرلمان البورجوازي . لا شك في انه يخدم البورجوازية ، ولكنه في الوقت نفسه يستخدم أكثر فأكثر من قبل الطبقة العاملة في النضال ضد سياسة الاستعمار الرجعية .

ان الاحتكارات في ظروف معاداة الديمقراطية ، ظروف الارهاب والقوانين الاستثنائية ونظام السلطة الفردية وغيرها – تستطيع بصورة أسهل ان تستغل الشغيلة وتكافح فعاليات الجماهير الثورية وتنفذ سياستها الرجعية . لقد ازداد الآن الاتجاه السياسي الرجعي للرأسمالية ، الاتجاه نحو التخلي عن الحريات الديمقراطية والبرلمانية والانتقال إلى دكتاتورية ارهابية مكشوفة للاحتكارات. وهكذا مثلاً ، اعلن الحزب الشيوعي في ألمانيا الغربية خارج القانون عام ١٩٥٦ ، وتزدهر في الوقت نفسه مختلف المنظمات الفاشية الجديدة والانتقامية التي بلغ عددها ، عام ١٩٦٤ – ١٢٣ مقابل ٨٦ في عـام ١٩٦١ . وفي عام ١٩٦٣ فقط اقيمت عشرة آلاف دعوى ضد المنظمات الديمقراطية . وفي الولايات المتحدة الأمريكية يمنع فعلاً ليس الحزب الشيوعي وحسب ، بل كل المنظمات الديمقراطية الأخرى ، وقد سنت سلسلة كاملة من القوانين المعادية للعمال . ومن جهة أخرى نجد علاقات عطف ، وفي أحيان كثيرة حماية من السلطات تمنح لمختلف المنظمات الرجعية على شاكلة كوكلاكس كلان .

ان انعدام الديمقراطية ، والرجعية السياسية ليسا فقط عقبة في طريق تطور الحركة الثورية بل ومساً أيضاً بكرامة الشغيلة الانسانية ، ومصادرة

---

[1] ماركس وانجلز – المؤلفات ، الجزء ١٦ ، ص ٧٨ .

لأبسط حرياتها وحقوقها . ولذا فان الطبقة العاملة إلى جانب سائر فئات الشعب الأخرى تناضل بحزم من أجل الديمقراطية . انها تنهض الجماهير للنضال ضد محاولات الاحتكارات لتصفية الحريات ، وضد بعث الفاشية بمختلف الأشكال .

التغلب على الانشقاق مهمة عامة امام الطبقة العاملة

لقد حققت الحركة العمالية المعاصرة نجاحات هامة . وفي الوقت نفسه يجب ان لا نغض النظر عن ان العمال في نضالهم ضد الرأسمالية قد عانوا الاخفاق والهزائم في بلدان عديدة ، وان القوى الرجعية تنجح ، تارة هنا وتارة هناك ، في الخروج ظافرة في الصراع الطبقي . ان أحد أسباب هذه الاخفاقات والهزائم هي الصعوبات الاستثنائية التي يتوجب على الطبقة العاملة أن تخوض النضال في ظلها في البلدان الرأسمالية . فمن المعروف ان عدو الطبقة العاملة — البورجوازية ، إنما هو عدو غني ومنظم بشكل جيد ، وإلى جانب هذا فإنه يمتلك جهاز دولة ، جهازاً للقمع وللتأثير الايديولوجي على الجماهير ، ولكن السبب الرئيسي لهزائم الطبقة العاملة وظروف نجاحات الرجعية هو انقسام الحركة العمالية ، الذي يتحمل مسؤوليته الانتهازيون على اختلاف ألوانهم . فمن المعروف أن البورجوازية تسعى بكل الصور إلى المحافظة على الانشقاق بين صفوف الطبقة العاملة وتعميقه بهدف اضعاف وشل فعاليتها الثورية .

وفي هذه الظروف يكتسب أهمية بالغة التغلب على الانشقاق في صفوف الحركة العمالية والوصول إلى وحدة صفوفها ، ووحدة جميع القوى المعادية للاستعمار في النضال العام ضد سيطرة الرأسمال .

ان النضال من أجل وحدة الحركة العمالية ، من أجل اقامة جبهة موحدة معادية للاستعمار هو جزء مكون هام من النضال ضد الاستعمار .

٣ ـ اشكال تحقيق الثورة الاشتراكية

في عصرنا الراهن ، عصر انتقال البشرية إلى الاشتراكية اكتسبت مسألة الأشكال الحسية لانتقال البلدان المختلفة إلى الاشتراكية أهمية بالغة . ما هي هذه الأشكال وبأي شيء تتعلق ؟

ان التجربة التاريخية تقول ان الطبقات الحاكمة لم تتخل يوماً طواعية عن سلطتها وعن ملكيتها الخاصة لوسائل الانتاج التي تعطيها امكانية استغلال الشغيلة ، ولا عن امتيازاتها المتعددة . ولذا فان الثورة الاشتراكية ترتبط بالضرورة بالعنف الثوري ، بالاطاحة بالعنف بالنظام الرأسمالي .

أن انتصار

الاشتراكية يرتبط في جميع الظروف والأحوال بالعنف المسلح والحروب .

ان التجربة التاريخية تتحدث بأن البورجوازية ، شأنها في ذلك شأن كل طبقة حكم عليها التاريخ بالزوال غير قادرة على أن تقدر بحكمة تناسب القوى ، ويدفعها اليأس لاستخدام كل الوسائل الممكنة للمحافظة على سيطرتها أو استعادتها ، ولكي تطيل وجودها . وأهم وسيلة بين هذه الوسائل هي السلاح الذي تلجأ اليه البورجوازية دائماً في العادة عندما تشعر ان سيطرتها في خطر ، وعندما يهدد المضطهَدون سلطتها وامتيازاتها . لقد اغرقت كومونة باريس بالدماء . وهل استكان الملاك الكبار والرأسماليون الروس أمام انتصار الكادحين في اكتوبر عام ١٩١٧ ؟ كلا ، لقد أشعلوا

الحرب الأهلية وطلبوا المساعدة من الرأسماليين في الأقطار الأخرى الذين حاولوا أن يعيدوا النظام الرأسمالي في بلادنا بالنار والحديد . ولكن الطبقة العاملة وكل الكادحين ردوا ، بقيادة الحزب ، على الهجــوم المسلح للبورجوازية وصانوا بقوة السلاح ، السلطة البروليتارية .

لقد دلل التاريـخ وتجربة تطور الحركة الثورية للطبقة العاملة ، بشكل مقنع على ان اتقان استخدام أساليب النضال المسلح هو شرط ضروري لانتصار الشـــورة الاشتراكية .

٤ ـ الحركة الشيوعية المعاصرة

على رأس القوى الثورية

ان القوة القيادية في نضال الطبقة العاملة الثوري هي الحركة الشيوعية

العالمية ، الحركة الأكثر عدداً والأقوى جبروتاً في عصرنا .

ان قوة الشيوعيين هي قبل كل شيء قوة السير الموضوعي للتاريخ نفسه ، قوة الحركة الضرورية للبشرية نحو المستقبل الاشتراكي الذي يعبر عنه ويقوده الشيوعيون . ان الشيوعيين المسلحين بنظرية الماركسية اللينينية يعكسون حاجات تطور المجتمع ، ويخدمون بتفان ونكران ذات مصالح الطبقة الأكثر تقدمية – البروليتاريا ، ومصالح الملايين من الجماهير الشعبية ، ولذا فانهم يتمتعون بثقتها ودعمها غير المحدودين . ففي ساعات الامتحان العسيرة والمعارك الضارية ، ساعات الهزائم المحزنة والانتصارات المسرة يظل الشيوعيون الأبناء الأوفياء لطبقتهم ولشعبهم وللبشرية التقدمية جمعاء . انهم بشر بأسمى وأنبل ما تعنيه الكلمة من معنى ، يعيشون ويعملون ويناضلون ، وإذا اقتضت الضرورة ، يموتون من أجل الكادحين .

ان التاريخ لا يعرف حركة سياسية أخرى تحملت من المحن والمصاعب ما تحملته الحركة الشيوعية . فلا المنافي والسجون الملكية ولا زنزانات ومعسكرات اعتقال الفاشست ، ولا التعذيب الرهيب والقتل الوحشي ، استطاعت ان تحطم ارادة الشيوعيين وثقتهم التي لا تتزعزع بعدالة قضيتهم وعزمهم الذي لا يلين في النضال من أجل انتصار هذه القضية . ولا يعرف التاريخ أيضاً حركة سياسية أخرى لا يمكن وقف نموها واتساعها حركة تحقق نصراً لامعاً بعد نصر ، كالحركة الشيوعية .

قبل ما يزيد على القرن بقليل قام مؤسسا الشيوعية العلمية باقامة أول تنظيم في العالم للشيوعيين الذي وحد مجموعة صغيرة من المناضلين . اما اليوم فإن الأحزاب الشيوعية ، التي هي ٨٨ حزباً ، تضم في صفوفها ما يقارب الخمسين مليوناً هم خيرة أبناء وبنات الشعب الكادح . لقد أصبحت الحركة الشيوعية القوة الأكثر نفوذاً في عصرنا وهذا النفوذ في ازدياد مستمر .

ان الأحزاب الشيوعية تعيش وتناضل في ظروف مختلفة وتواجهها مهمات مختلفة .

ان الأحزاب الشيوعية في البلدان الاشتراكية هي أحزاب حاكمة . وتحت قيادتها ألقت شعوب هذه البلدان عن عاتقها النير الرأسمالي ، وهي تقوم اليوم بالمهمة الجدية والصعبة مهمة بناء الاشتراكية والشيوعية . انها تقوم بعمل بناء كبير وتحمل مهمات معقدة في تطور الاقتصاد وفي ايجاد علاقات اجتماعية جديدة وفي تربية الجماهير تربية شيوعية وتؤمن الدفاع عن منجزات الاشتراكية ، وتقدم مساعدات شاملة في نفس الوقت ، لشعوب البلدان في العالم غير الاشتراكي في نضالها الثوري . ان العمل البناء الذي تقوم به الأحزاب الشيوعية في البلدان الاشتراكية له أهمية تاريخية ، ذلك انه يوطد المواقع العالمية للاشتراكية ، ويزيد من قوة جذب أفكارها في العالم كله .

والأحزاب الشيوعية في البلدان الرأسمالية تناضل في الظروف الصعبة في ظل الأنظمة الاستعمارية ، وفي كثير من الأحيان في ظروف السرية والملاحقة والارهاب بل التنكيل الجدي من جانب الرجعية البورجوازية . وهي تواجه اليوم مهمة قيادة شعوبها نحو الانتصار على الرأسمالية ، نحو الاشتراكية ودكتاتورية البروليتاريا . وهي إذ تترأس نضال الجماهير ضد الاحتكارات في المعارك الطبقية الضارية ، تكوّن جيش الثورة السياسي ، وتناضل من أجل توسيع نفوذها بين أوساط الجماهير لصالح الطبقة العاملة وكل الكادحين . ان الشيوعيين هم أنشط المناضلين من أجل وحدة الطبقة العاملة وأشد المعادين للسياسة الخيانية التي ينتهجها القادة اليمينيون للاشتراكية الديمقراطية ، والتي تستهدف الدفاع عن الرأسمالية والإبقاء على الانشقاق في صفوف الطبقة العاملة .

والأحزاب الشيوعية في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية التي ولدت في

نار الثورات الوطنية التحررية ، تجمع قواها وتبدي تأثيراً متزايداً على حياة البلدان الفتية ، حديثة التطور ، وتساهم في النضال ضد نظام السيطرة الاستعمارية والاستعمار الجديد . ان مهمتها الرئيسية هي انجاز الثورات الوطنية التحررية بنجاح وتوطيد الاستقلال الوطني وقيادة الشعوب في طريق التقدم والاشتراكية والسلام .

ورغم اختلاف الأهداف والمهمات الحسية ، فإن الأحزاب الشيوعية تنجز قضية واحدة موحدة هي توجيه حركة البشرية المعاصرة من الرأسمالية إلى الاشتراكية .

الستراتيجية والتاكتيك

ان الماركسية اللينينية هي الأساس النظري لسياسة الأحزاب الشيوعية ، ذلك انها تدرس القوانين العامة التي بدونها لا يمكن ان تنجز الثورة الاشتراكية ولا ان تبني المجتمع الاشتراكي . وتتميز الماركسية اللينينية في الوقت نفسه بتناولها التاريخي – الملموس لظواهر الواقع موضحة بأن القوانين العامة لبناء الاشتراكية تظهر بأشكال خاصة ، متميزة في كل بلد على حدة . وان الانسجام مع هذه الظروف الخاصة هو شرط ضروري لنجاح القضية التي يناضل من أجلها الشيوعيون في العالم أجمع .

ان الأحزاب الشيوعية في نضالها في سبيل الاشتراكية والشيوعية تضع خطاً سياسياً معيناً يجد انعكاسه الملموس في الستراتيجية والتاكتيك .

ولا بد من القول بأنه في المرحلة التي سبقت ثورة اكتوبر من تطور الحركة الشيوعية لم يجر في الواقع استعمال مفهوم الستراتيجية وكان يفهم من كلمة تاكتيك كل سياسة الحزب . ففي كتاب « تاكتيكان للاشتراكية الديمقراطية في الثورة الديمقراطية » كتب لينين عن التاكتيك باعتباره خط

الحزب السياسي خلال كل مرحلة التحضير للقيام بالثورة البورجوازية الديمقراطية في روسيا . وبعد ثورة اكتوبر استعمل لينين في بعض مؤلفاته مفهوم الستراتيجية فيما يخص خط الحزب السياسي دون ان يميزه تمييزاً دقيقاً عن مفهوم التاكتيك .

ويفهم من كلمة الستراتيجية في الحركة الشيوعية المعاصرة الاتجاه الرئيسي وهدف الحركة العمالية في عصر تاريخي معين من التطور الاجتماعي ، أو كما قال لينين « المهمات العامة والأساسية » للطبقة العاملة وحزبها . ان تحديد الستراتيجية يعني ان نحدد الهدف الأساسي للحركة ، ان نجد العدو الطبقي الرئيسي الذي يتوجب ان توجه ضده الجهود الثورية وان نجد الحلفاء في النضال ضد هذا العدو . أما التاكتيك فانه يعني مجموع الأشكال والطرق والوسائل لتحقيق الهدف الأساسي في الظروف التاريخية الملموسة . ان التاكتيك يشمل مجموعه متنوعة من القضايا : قضايا اشكال النضال (الاقتصادي ، السياسي ، الايديولوجي ، المسلح ، السلمي) ، قضايا التوحيد بين مختلف الأشكال ، قضايا الهجوم ، الدفاع ، التراجع ، قضايا المساومات والاتفاقات لاستغلال التناقضات والصدامات والخصومات في معسكر العدو ، قضايا الجبهة الموحدة مع الجماهير غير البروليتارية و ... الخ . وهذه حسب تعبير لينين عمل الحزب « اليومي » الاعتيادي في تثقيف وتنظيم الطبقة العاملة والشغيلة بهدف جرهم إلى النشاطات الثورية وتحقيق الهدف الأساسي للحركة . كتب لينين « ان التاكتيك الماركسي يكمن في توحيد مختلف أساليب النضال ، في الانتقال الماهر من واحد إلى آخر وفي الرفع المستمر لوعي الجماهير وزيادة سعة نشاطاتها الجماعية .. » [1] .

ان الشيوعيين يقولون بوحدة الستراتيجية والتاكتيك وضرورة اخضاع المهمات التاكتيكية للأهداف الستراتيجية ويقومون بتبديل التاكتيك عندما يفقد محتواه الثوري ويشوه الهدف التاريخي للبروليتاريا . انهم يقفون بحزم

---

١ لينين – المؤلفات ، ج ٢٠ ، ص ٢١٠ .

ضد الانتهازيين اليمينيين الذين يتناسون الأهداف الثورية للنضال ، وكذلك ضد الانتهازيين اليساريين الذين يخلطون المهمات الستراتيجية أالتاكتيكية ويجمدون على هذه أو تلك من أشكال النضال الشائعة بسبب تبدل الظروف التاريخية الملموسة .

ان الستراتيجية ثابتة نسبياً ، ولا تتبدل الا تبعاً لدرجة التطور التي توجد فيها هذه الفصيلة أو تلك من الحركة الشيوعية العالمية في هذا البلد أو ذاك . وفي العادة توضع المهمات الستراتيجية الجديدة عندما يتم انجاز السابقة وتدخل البلاد في مرحلة جديدة من التطور . فمثلاً ، إذا ما انجزت مهمات الثورة البورجوازية الديمقراطية فإن الحزب يعلن ستراتيجية جديدة — ستراتيجية تحضير انجاز الثورة الاشتراكية . اما فيما يتعلق بالتاكتيك فانه أكثر حركة وديناميكية إلى حد كبير ، من الستراتيجية : فأشكال وأساليب النضال تتبدل بتبدل تناسب القوى الطبقية ، والظروف الملموسة لتطور هذا البلد أو ذاك ، وتطور الوضع العالمي . وكما قال لينين فإن المهارة في « البحث والعثور وفي معرفة ما هو خاص في الحركة الموضوعية نحو الشيوعية بالنسبة لمختلف الأقطار ومختلف فصائل الشيوعيين ، من المهمات الأساسية للتاكتيك الثوري للطبقة العاملة » .

ان سياسة الحزب الماركسي وقيادته الستراتيجية والتاكتيكية هي مهمة صعبة جداً ومعقدة . انها علم وفن . ان السياسة علم ، يستهدف اعداد خط سياسي يستند إلى تحليل علمي عميق للواقع ولتناسب القوى الطبقية في الظرف التاريخي الملموس . ولكن المهم ليس فقط وضع الخط السياسي الصحيح ، وإنما تحقيقه بنجاح أيضاً . ولهذا الهدف من الضروري توفر مهارة كبيرة وموهبة وفن حقيقي . وبدون هذا الفن فإن كل خط سياسي حتى إذا كان صحيحاً مئة بالمئة ، سوف لن يكون سوى بيان لا نفع فيه . لهذا نقول ان السياسة فن .

ان فن تجسيد السياسة في واقع حي يتحقق قبل كل شيء في تطبيقات النضال الطبقي . فبدون اجتياز مدرسة النضال العلمي ، بتناقضاتها ومصاعبها ، وبدون معاناة آلام الفشل والهزيمة وتجربة فرحة النجاح والانتصار لا يمكن استيعاب فن القيادة الستراتيجية والتاكتيكية . غير ان هذا لا يعني مطلقاً بأن كل حزب يتوجب عليه حتماً ان يتعلم من تجربته الذاتية فحسب ، وان يعيش سلسلة كاملة من الاخفاقات والأخطاء والهزائم . فما له أهمية بالغة في استيعاب فن القيادة السياسية دراسة وتجربة الأحزاب الأخرى وكل الحركة الشيوعية العالمية .

ان الفن السياسي متعدد الجوانب ، انه القدرة على العمل بين الجماهير ، وتوحيد جهود الأحزاب ، واختيار أشكال النضال ، والقدرة على تبديلها تبعاً لتبدل الوضع الملموس ، (الهجوم ، عندما تستدعي الظروف ، والانسحاب بشكل صحيح وفي الوقت الملائم ، وتشخيص المهمة الأساسية ، الرئيسية بين سلسلة المهام التي تواجهها الحركة وتركيز جهود الحزب لحل هذه المهمة و ...) الخ .

ومن بين أهم قضايا الستراتيجية والتاكتيك هي قضية إقامة وتوطيد تحالف الطبقة العاملة مع جماهير الكادحين غير العمالية ، وقبل كل شيء مع الفلاحين ، في ظروف الرأسمالية .

يوجد بين العمال والفلاحين الكثير مما هو مشترك في أوضاعهم وأهدافهم ومهماتهم . فكلاهما مستغل من قبل الرأسمال ، ومن الطبيعي ان يكونا ذوي مصلحة في التحرر من سيطرة البورجوازية الاقتصادية والسياسية . ان هذا هو ما يخلق الأساس الموضوعي لتحالف دائم بين الطبقة العاملة والفلاحين . غير ان هذا التحالف لا يقوم من تلقاء نفسه ، عفوياً ، وإنما تقيمه الأحزاب الشيوعية في مجرى نضالها ضد الرأسمالية ، من أجل نظام اجتماعي جديد .

إن فكرة تحالف الطبقة العاملة مع الفلاحين هي احدى الفكر الأساسية للماركسية اللينينيــــة والشيوعية العلمية . وإن هذه الفكرة تنطلق أولاً من واقع ان الطبقة العاملة وحدها هي القادرة على حل القضية الزراعية المزمنة لصالح الفلاحين ، وعلى اعطاء الفلاح امكانية العمل على أرض تعود ملكيتها له أو للمجتمع ككل ، وثانياً لأن الطبقة العاملة لا تستطيع أن تحطم الرأسمالية وان تبني الاشتراكية الا بدعم الجماهير الفلاحية ومساهمتها الفعالة في الثورة .

إن تحالف العمال والفلاحين وسائر فئات الشغيلة غير البروليتارية هو القوة الاجتماعية — السياسية للثورة ولذا فإن اقامة وتوطيد هذا التحالف مهمة من أهم مهمات الحزب الشيوعي .

لقد تصور لينين الثورة كنتيجة للإبداع النشيط من جانب الجماهــير الشعبية الواسعة ، ولكن من أجل اقناع الجماهير بضررووة الثورة ، وبضرورة مساهمتها الفعالة فيها ، يتوجب على الحزب أن يحذق العمل بين صفوف الجماهير . إن القدرة على العمل بين الجماهير ومعها هي الأمر الرئيسي في الفن السياسي للحزب ، وهذا لا يعني الحذق في الدعاية والتحريض فحسب بل وجر الجماهير أيضاً ، على أساس من تجربتها السياسية الخاصة ، نحو حل المهمات التي تواجه الحزب .

« الصلة بالجماهير ،
العيش بين صفوف الشعب ،
معرفة مزاجه ،
معرفة كل شيء ،
فهم الجماهير ،
والقدرة على الانسجام معها ،
والنجاح في كسب ثقتها المطلقة ،

عدم انقطاع القادة عن الجماهير المقودة ، وان يكونوا طليعة لجيش العمل كله » — تلك هي المبادىء الرئيسية التي أعدها لينين عن فن توجيه الجماهير والتي يسترشد بها الشيوعيون في سياستهم .

الخط العام

ان الأحزاب الشيوعية ، مستندة إلى الماركسية اللينينية ومعممة تجربة ما يزيد على قرن من نضال البروليتاريا الطبقي ، أعدت بشكل جماعي في اجتماعيهـــا العالمين في موسكو ١٩٥٧ و١٩٦٠ ، خطاً عاماً للحركة الشيوعية والعمالية العالمية انعكست فيه أهدافها الستراتيجية .

إن الخط ينطلق من تحليل طابع العصر الراهن ، من واقع ان في مركز عصرنا ، الذي يشكل الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية محتواه الرئيسي ، تقف الطبقة العاملة العالمية ووليدها — النظام الاشتراكي العالمي . هذا النظام يتحول يوماً بعد يوم إلى عامل حاسم في تطور البشرية . ان الشعوب ، التي تبني الاشتراكية والشيوعية ، تشكل مع الحركة الثورية للطبقـــة العاملة في البلدان الرأسمالية ؛ وحركة التحرر الوطني ، ومختلف الحركات الديمقراطية ، تياراً معادياً للاستعمار يقوض الرأسمالية

ان الخط العام للحركة الشيوعية العالمية هو خط النضال الطبقي والثورة الاشتراكية . ان الشيوعيين يعتبرون ان التحطيم الثوري للرأسمالية واقامة دكتاتورية البروليتاريا هو وسيلة للانتقال إلى الاشتراكية

ان الأحزاب الشيوعية كانت ولا تزال خصماً للكولونيالية . انها تدعم الحركة الوطنية التحررية ، وتسعى لدفع الثورة الديمقراطيـــة

المعادية للاستعمار حتى النهاية من أجل استقلال وطني حقيقي والسير في طريق التطور الاشتراكي .

ان الشيوعيين في كل زمان ومكان ينشطون بوصفهم مناضلين فعالين ضد الرجعية الاستعمارية ، من أجل الحريات الديمقراطية وحقوق الكادحين . انهم ينظرون إلى كل حركة ديمقراطية معادية للاستعمار كحليف لهم في النضال العام ضد الرأسمالية ، ومن أجل الاشتراكية والتقدم الاجتماعي .

ان الحركة الشيوعيـــة هي الحركة الأكثر انسانية في عصرنا . وليس من قبيل الصدفة ان تضع في مقدمة مهامها النضال من أجل السلم

ولانجـــاز هذه المهمة يوحد الشيوعيون جهود كل القوى المحبة للسلم والمعادية للاستعمار .

هـذا هو الخط العام للحركة الشيوعية العالمية . وباختصار نقول هذا هو خط النضال الثوري ضد الرأسماليـــة ، من أجل الانتصار التام للاشتراكية والشيوعية في العالم أجمع ، خط النضال من أجل الاستقلال الوطني والديمقراطية . انه
الخط الذي يتجاوب مع المصالح الأكثر حيوية للانسان الشغيل ومع أسمى المثل الانسانية .

ومن الخطأ تماماً أن نتصور بأن الحركة الشيوعية تتطور في أيامنا دون تناقضات وصعوبات . فاليوم – كما هو الحال قبل عشرات السنين ، فرض على الشيوعيين أن يشنوا نضالاً جدياً ليس فقط ضد البورجوازية ونظرييها ودعاتها النشطين ، وانما ضد التيارات الانتهازية في صفوفها ، ضد التحريفية والجمود العقائدي .

وكما جرى في السابق فان التحريفيين المعاصرين ، شأنهم شأن قادة

الاشتراكيـــة الديموقراطية يتخلون عن الثورة الاشتراكية ودكتاتوريـــة البروليتاريا ، وعن الاشتراكية والشيوعية ويطمسون تناقضات الرأسمالية .

واستناداً إلى ان الماركسية ظهرت في القرن التاسع عشر ونحن الآن في القرن العشرين يثرثر التحريفيون المعاصرون قائلين بأن الماركسية قـــد شاخت ، وانه لا بد من « مراجعتها » و « تصحيحها » وتحت ستار مراجعة الماركسية يتخلى التحريفيون ، كما هو الحـــال في السابق ، عن جوهرها الثوري . فهم يصورون مثلاً بأن مظاهر الواقع الرأسمالي المعاصر المرتبطة بتنامي رأسمالية الدولة الاحتكارية ، والتأميم الرأسمالي ، ومحـــاولة الدولة البورجوازية تنظيم التطور الاقتصادي ، يصورون هـــذه المظاهر ، كما لو انها ، قد بدلت أسس الرأسمالية ، وان الرأسمالية تقترب أكثر فأكثر من الاشتراكية وتتحول بهدوء إلى اشتراكية .

وليس من الصعب ان ندرك ان القول بالتحول التلقائي (الاوتوماتيكي) للرأسمالية المعاصرة إلى الاشتراكيـــة ليس سوى تخل عن النضال الطبقي والثورة الاشتراكيـــة وعن دكتاتورية البروليتاريا ، وعن الاشتراكيـــة الحقيقية . لأنه ليس سراً بأن جميع هذه المظاهر الجديدة في الرأسماليـــة المعاصرة التي يجري الحديث عنها الآن لا تمس بأي مقدار كان أسس الرأسمالية ألا وهي الملكية الخاصة والاستغلال . ان الرأسمالية تظل رأسمالية ولا يمكن تحويلها إلى اشتراكية إلا عن طريق ثورة اشتراكية ودكتاتورية البروليتاريا .

يبدو بأن جوهر الجمود العقائدي يكمن في عدم القدرة وعدم الرغبة في أخذ الظروف التاريخية الملموسة والتبدلات التي شهدتها البشرية المعاصرة بالحسبان . ولكن أليس هذا هو جوهر التحريفية التي لم يفهم ممثلوها لا يريدون ان يفهموا جوهر التغيرات في الرأسمالية المعاصرة ؟ ان عدم القدرة على استيعاب الوضع الجديد والعجز عن تقدير جميع جوانبه وخصائصه ، والقيام بوضع التاكتيك دون مراعاة تنوع الواقع ، ان هذا هو ما يميز كل أنواع الانتهازية – التحريفية والجمود العقائدي .

وهم بهذا يسببون أضراراً جدية لقضية الثورة أرادوا أم لم يريدوا . وهكذا فان التحريفية والجمود العقائدي همـــا وجهان لعملة واحـــدة .

ان الخلافات بين الشيوعيين خلافات جدية ، ولكن هـــذا لا يعني مطلقاً انها لا يمكن ان تسوى . انها يمكن ويجب ان تسوى : لأن تحقيق الوحدة في الحركة الشيوعية العالمية شرط هام لنجاح النضال ضد الرأسمالية ومن أجل الاشتراكية والشيوعية .

ان الخلافات بين الشيوعيين في المسائل النظريـــة والتطبيقية يمكن ان تسوى فقط على الأسس المبدئية للماركسية اللينينية والأممية البروليتاريـة . وان الاخلاص للماركسية اللينينية ولقضية الثورة الاشتراكية العالمية وقضية الطبقة العاملة وكل الكادحين — هو الأساس لوحدة الشيوعيين في العـــالم أجمع التي يناضل من أجلها بدأب الشيوعيون وكل الماركسيين اللينينين المخلصين .

كتب لينين يقول ان التطبيق « وتطور الحياة السياسية نفسها » وسيلة هامة جداً لحل الخلافات . ان هذه الخلافات غالباً ما تستنفد بـ « الانتقال الفعلي من قبل من يناقشون بشكل خاطىء إلى طريق النضال الصائب ... تحت ضغط مجرى الأحداث نفسها الذي ... ينبذ جانباً ، ببساطة ووضوح ، وجهات النظر الخاطئة ... ويفرغها من محتواها ... ويجعلها غير ذات بال بالنسبة لأي أحد » . وقـــد طالب لينين بالاكثار من تدقيق القرارات

المتخذة ، على أساس الأحداث السياسية الجديدة ، كلما كان ذلك ممكناً » [1] .

ونظراً لأن الحركة الشيوعية العالمية توحد أحزاباً مستقلة ومتساوية ، ولا يمكن ان يكون حزب ما في هذه الحركة حزباً مسيطراً ، وخاضعاً بالنسبة لحزب آخر ، فلا يمكن ان يكون هناك سوى أسلوب واحد لحل المسائل المختلف عليها ألا وهو مناقشتها بشكل جماعي ، مشترك .

ان طريق التغلب على الخلافات هو ان تجري مناقشة القضايا ، وان تطرح وجهات النظر المختلفة وتسمع ، وان تظهر وجهة نظر الأكثرية ، وان تصاغ وجهة النظر هذه بقرار ، وان يجري تنفيذ هذا القرار بنزاهة . وبهذا الطريق بالذات تسير الاجتماعات العالمية للشيوعيين ، التي نوقشت فيها القضايا الملحة في عصرنا وأعدت القرارات المتفق عليها حول أهم قضايا النضال الثوري .

وطبيعي فإن الخلافات بين الأحزاب الشيوعية لا يمكن ان تحل دفعة واحدة ، وان هذا يتطلب وقتاً وصبراً . ولذا

فإن من المهم تركيز الانتباه ليس على الخلافات ، وإنما على الأمور التي توحد جميع الأحزاب الشيوعية على ايجاد الطرق لنشاطات مشتركة منسقة لجميع الأحزاب الشقيقة ضد العدو المشترك ومن أجل الوصول إلى الهدف المشترك بأسرع ما يمكن .

---

١ لينين – المؤلفات ، ج ٩ ، ص ١٤١ .

الفَصْلُ الرّابع

الثورات الوطنية التحررية

تعني الاشتراكية المحو التام لاستغلال الانسان للانسان ، وإزالة كل أنواع الاضطهاد وبضمن ذلك الاضطهاد القومي الكولونيالي . ان النضال ضد سيطرة الرأسمالية العالمية ومن أجل نظام جديد اشتراكي يفترض حتماً القضاء على نظام السيطرة الاستعمارية والنضال من أجل الاستقلال وبعث وازدهار الشعوب التي كانت مستعبدة من قبل الاستعمار في السابق . ان بحث الثورات الوطنية التحررية وطابعها ، ومهماتها الأساسية وأهميتها هو موضوع هذا الفصل . وسنبحث أولاً مسألة انهيار نظام السيطرة الاستعمارية (الكولونيالية) وأهمية هذا الانهيار .

١ ـ انهيار نظام الاستعمار الكولونيالي وأهميته

افلاس النظام الكولونيالي سمة مميزة للعصر الراهن

ان استعماريي حفنة من البلدان المتطورة يستغلون ليس شعوبهم فحسب ،

وإنما شعوب بلدان أخرى كثيرة العدد . استعبدوها وسيطروا عليها عن طريق العنف الدموي المسلح والخداع والتهديد والرشوة والغدر . وقد شمل ذلك قارات بأكملها – أفريقيا ، أمريكا اللاتينية وجزءاً هاماً من آسيا ، مؤلفين بذلك نظاماً هائلاً للسيطرة الاستعمارية كانت تنوء بعبئه حتى وقت قريب شعوب ما يزيد على نصف البشرية .

ان نظام الاستعمار الكولونيالي هو واحد من أكثر صفحات التاريخ البشري قتاماً . قتل الناس بالجملة ، استغلال لا انساني ، بؤس وجوع ، أمراض وجهل – هذا ما أعطاه الاستعماريون لشعوب البلدان المستعمرة . ويكفي ان نذكر ان في أفريقيا وحدها وفي ظروف العبودية نهب ما يزيد على المئة مليون انسان وأبيدوا من قبل الرأسماليين .

ان الاستعماريين وايديولوجييهم كثيراً ما تحدثوا ويتحدثون الآن عن رسالتهم الانسانية التمدينية وعما حملوه للشعوب المتأخرة من حضارة وتكنيك حديث ، وثقافة وحياة جديدة و ... الخ . ولكن الشعوب المضطهَدة لا يمكن ان تخدع بأمثال هذه الثرثرات . ذلك انها تعرف جيداً الوجه الوحشي الحقيقي للكولونيالية . وتعرف أيضاً ان المستعمرات بالنسبة للاستعماريين ليست الا ميداناً مربحاً لتوظيف رؤوس الأموال ، ومصدراً للمواد الأولية الرخيصة واليد العاملة الرخيصة وأسواقاً للتصريف وقواعد عسكرية واسعة . ان الكولونيالية هي استغلال الشعوب المستعبَدة من أجل هدف وحيد هو تحقيق أقصى الأرباح الرأسمالية .

ومن الطبيعي تماماً ان الشعوب لم تستطع ان تهادن سيطرة المستعمرين . وانها شنت ولا تزال تشن نضالاً بطولياً ضد الوحوش الاستعماريين من أجل الحرية والاستقلال الوطني .

لقد أعطت ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى زخماً هائلاً لحركة التحرر الوطني ذلك انها ايقظت الشعوب المضطهَدة وألهمتها النضال ،

وجرتها إلى التيار العام للحركة الثورية العالمية . وكان الاتحاد السوفييتي – الدولة الاشتراكية الأولى – معيناً لا ينضب للدعم السياسي والمعنوي للشعوب المضطهَدة .

ان انتصار الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي التي انتزعت من الاضطهاد الاجتماعي والكولونيـــالي ما يزيد على المئة من الشعوب والأمم ، وتحطيم الفاشية الألمانية والاستعمار الياباني ، والتناسب الجديد بين القوى على الصعيد العالمي بعد الحرب العالمية الثانية ، وقيام النظام الاشتراكي العالمي ، ونمو حركة الطبقة العاملة الثورية ، واشتداد نفوذ الأحزاب الشيوعية.. ان هذا كله قد خلق ظروفاً ملائمة لنضال الشعوب الوطني التحرري الناجح . فبينما ألغى الاستعمار الاستقلال الوطني لأكثرية الشعوب وصادر حريتهـــا وقيدها بسلاسل العبودية الاستعمارية ، سجل انبثاق الاشتراكية بداية عصر تحرير الشعوب المستعبدة . وقد كنست الموجة العظيمة من ثورات التحرر الوطني النظـــام الكولونيالي وقوضت أسس الأمبريالية . وعلى انقاض المستعمرات وأشباه المستعمرات السابقة ظهرت وتظهر دول فتية ذات سيادة .

لقد تبدل وجه آسيا كلياً ، حيث تحررت من نير السيطرة الاستعمارية والسيطرة الشبيهة بالاستعمارية شعوب الصين والهند واندونيسيا وبلدان أخرى . وانهار النظام الكولونيـــالي في أفريقيا . وتخفق اليوم على أرض القارة الافريقية الواسعة الاعلام الوطنية لعشرات الدول ذات السيادة . وخلال السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية قامت حوالي ستين دولة مستقلة ، حصلت أكثريتها على استقلالها خلال الـ ١٠ – ١٥ سنة الأخيرة . ونهضت للنضال ضد الاستعمار والكولونيالية ، شعوب أمريكا اللاتينية التي سيطر عليها الاستعماريون الأمريكان عشرات السنين . وأصبحت كوبا البطلة ، التي انتصرت فيها الثورة الشعبية ، علماً لشعوب أمريكا اللاتينية في نضالها العادل من أجل الحرية الوطنية والتقدم الاجتماعي .

وليس بعيداً ذلك اليوم الذي تطفى فيه السيطرة الاستعمارية إلى الأبد ، وتمحى لطخة العـــار هذه من تاريخ البشرية . إن انهيار الكولونية أمر حتمي ، ذلك انها تناقضٌ مع المجرى الموضوعي للتاريخ ، وتناقض مع متطلبات التقدم الاجتماعي ومصالح الجماهير الشعبية . ان الشعوب المضطهَدة وشعوب العالم كله سوف لن تهدأ ما لم يجر اجتثاث الدعائم المتبقيـــة من الكولونيالية من أساسها .

اهمية حركة التحرر الوطني

ان حركة التحرر الوطني ذات أهمية عظيمة لتطور التاريـخ المعاصر ، فهي عامل هام في التقدم الاجتماعي . إن حركة التحرر الوطني جزء مكون من العملية الثورية الموحدة في عصرنا .

إن شعوب الدول الفتية المستقلة التي قامت على انقاض الأمبراطوريات الاستعمارية ، قد شرعت تنشىء حياة جديدة وتساهم بنشاط في السياسة العالمية .

هذه الشعوب تشكل مع شعوب البلدان الاشتراكية ثلثي البشرية ، وهي قوة عظيمة قادرة على كبح جماح المعتدين الاستعماريين .

إن أهمية حركة التحرر الوطني تكمن بالذات في انها توجة ضربات قوية إلى مواقع الاستعمار السياسية والاقتصادية والعسكرية ــ الستراتيجية .

إن انهيار النظام الكولونيالي قد أثر تأثيراً سلبياً على الوضع الاقتصادي في البلدان الاستعمارية ، اذ أدى إلى خسارة محسوسة للميادين الملائمة جداً لتوظيف رؤوس الأمـــوال ؛ والأسواق الواسعة الثابتة نسبياً للتصريف ، ومصادر المواد الخام والأيدي العاملة الرخيصة .

كما أن لانهيار النظام الكولونيالي أهمية كبيرة بالنسبة للبلدان المتحررة نفسها ، فانها بحصولها على الاستقلال السياسي حصلت على امكانية تطوير اقتصادها وثقافتها ، وامكانية اختيار طريق تطورها الأجتماعي . وقد عبرت شعوب العديد من البلدان المتحررة عن طموحها في الانفصال كلياً عن الرأسمالية وسلوك طريق التطور الاشتراكي .

وهكذا فان حركة التحرر الوطني وانهيار السيطرة الاستعمارية لها أهمية عظيمـــة في تطور البشرية المعاصرة . ذلك انها ، اذ تقوض الاستعمار وتحطم مؤخرته ، تساعد مسيرة البشرية في الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية . ولذا فان الأحزاب الشيوعية والعمالية قد ثمنت انهيار النظام الكولونيالي باعتباره ثاني ظاهرة من حيث أهميتها التاريخية بعد قيام النظام الاشتراكي العالمي .

خطر الاستعمار الجديد (نيو كولونياليزم)

رغم أن أكثرية المستعمرات والبلدان التابعـــة قد أحرزت الاستقلال السياسي فان الشعوب المتحررة لا يمكن أن تشعر انها في أمان . ذلك ان المستعمرين يحاولون إحياء النظام الكولونيالي من جديد ويسعون ليس للحفاظ عليه فحسب ، بل وتشديد استغلال الدول المستقلة الفتية . ولا تزال عشرات ملايين الناس (شعوب جنوب أفريقيا وأنغولا وموزامبيق وروديسيا الجنوبية وغيرها من البلدان) تنوء بعبء النير الكولونيالي . ان الاستعمار لا يزال العدو الرئيسي لحركة التحرر الوطني . ولذا فان الشعوب المحبة للحرية قررت النضال بلا هوادة ضد الاستعمار ومن أجل حرية واستقلال حقيقيين . ان النضال ضد الأشكال الجديدة للاضطهاد الاستعماري وضد الاستعمار الجديد واجب هام على شعوب أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية .

ان الاستعمار الجديد هو مجموعة من الاجراءات الاقتصادية والسياسية والعسكرية يتخذها الاستعماريون بهدف الحفاظ على سيطرتهم ولضمان أقوى رقابة سياسية واستغلال اقتصادي للدول النامية. ويمثل الاستعمار الجديد حملة اقتصادية سياسية ــ عسكرية وايديولوجية من جانب المستعمرين ضد الشعوب التي تحررت من النير الكولونيالي أو التي تناضل من أجل تحررها.

ان الدول الاستعمارية، مثلاً، تحافظ على سيطرتها الاقتصادية على هذا البلد أو ذاك وتسعى لتشديد استغلالها الاقتصادي له. ورغم ان أغلبية بلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية قد حصلت على استقلالها السياسي، فان الكثير منها لا يزال في حالة تبعية اقتصادية للدول الاستعمارية. إن جزءاً هاماً من المصانع والجزء الأكبر من الموارد الطبيعية في هذه البلدان تتركز في أيدي الاحتكارات الأجنبية. وهذا ما يعطي الاحتكارات امكانية الاستحواذ على ارباح طـــائلة من استغلال البلدان التابعة اقتصادياً. ان الاستعماريين يبتزون من هذه البلدان الآن، على شكل ارباح فقط، حوالي ستة مليــــارات دولار سنوياً. وليس من الصعب علينا أن نتصور التقدم الذي يمكن أن تحققه هذه البلدان في اقتصادها الوطني وزخاء سكانها لو انها تمتعت بهذه المبالغ الطائلة.

ان الاستعمار الجديد ينعكس في «المساعدة» الاقتصادية من جانب الاستعماريين للبلدان الضعيفة التطور. ان هذه «المساعدة» غير النزيهة، على عكس ما يصوره ايديولوجيو وساسة الاستعمار الجديد، تستهدف هدفاً محدداً تماماً، ذلك هو أن تفرض عن هذا الطريق معـــاهدات اقتصادية تعطي الاحتكارات الأجنبية امكانية الحفاظ على مواقعها الاقتصادية وتوطيدها لتضمن اخضاع تطور هذه البلدان السياسي والاقتصادي لصالح الاحتكارات الأشعبية. إن هذه المساعدات تقدم في العادة مشفوعة بشروط تمس الكرامة الوطنية للبلدان التي تستلمها، ولا تعطيها امكانية اختيار

طريق تطورها بارادتها هي ، كما تستخدم وسيلة للضغط على سياستها الداخلية والخارجية . وفي اتفاقات « المساعدة » كثيراً ما يشترط على البلدان التي تحصل عليها ان تقبل وجود عدد كبير من « المستشارين » الاقتصاديين والماليين الذين هم جسور لسياسة الاستعمار الجديد . إن الاستعماريين يصورون أنفسهم وكأنهم أنصار لازدهار البلدان المتحررة اقتصادياً ، ويفرضون عليها طريق التطور الرأسمالي الذي سيتيح لهم بالتأكيد ابقاء هذه البلدان في قيود العبودية الاستعمارية .

ومن وسائل استعباد البلدان ضعيفة التطور ، الشكل الجديد للاستغلال ، ذو الطابع الكولونيالي ، شكل الأحلاف العسكرية — السياسية العدوانية (المعاهدة المركزية — السنتو ، حلف جنوب شرقي آسيا — السياتو) التي جر الاستعماريون اليها العديد من بلدان آسيا وأفريقيا .

ولا يمتنع الاستعماريون في صراعهم ضد الشعوب المتحررة عن تصدير الثورات المضادة والتدخل المسلح المباشر في الشئون الداخلية للبلدان المتحررة . فقد حاول الاستعماريون الانجليز والفرنسيون والاسرائيليون أن يخضعوا مصر بقوة السلاح عام ١٩٥٦ ، وقام استعماريو الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦١ بعدوان ضد كوبا واليوم يشنون حرباً اجرامياً ضد الشعب الفيتنامي .

ويحتل الهجوم الايديولوجي ضد قوى التقدم والاشتراكية والسلم مكاناً هاماً في سلسلة اجراءات الاستعماريين الجدد . وقد وضعت الايديولوجية البورجوازية الرجعية في خدمة المحاولات الدؤوبة من جانب الاستعماريين للمحافظة على استغلالهم للبلدان النامية ، وتشديد هذا الاستغلال .

ان ايديولوجي البورجوازية يفعلون كل شيء لوقف تطور الوعي الفكري للشعوب ولعرقلة تغلغل الأفكار التقدمية في تجويد حركة التحرر الوطني من السلاح . انهم يسعون لرد اعتبار الكولونيالية ويسلطون أضواء مزوقة على التاريخ المخجل للنهب والعنف الكولونياليين ، ويحاولون تجميل وتستير

الجوهر الاستغلالي لعلاقاتهم بالبلدان الضعيفة التطور لكي يعيقوا شعوب هذه البلدان عن التخلص نهائياً من العبودية الاستعمارية. فهم يزعمون المرة تلو الأخرى ان شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ليست قادرة على تقرير مصيرها بشكل مستقل، وان رسالة الاستعمار هي رسالة تمدينية وان من الضروري أن تتحد المستعمرات السابقة اقتصادياً وسياسياً بأسيادها المستعمرين السابقين.

ان الاستعماريين من أجل أن يفرقوا بين الشعوب ويضعفوا وحدة جبهة الديمقراطية والتقدم ويحافظوا على سيطرتهم، يستخدمون سلاحاً مجرباً من قبل الرجعية الا وهو التعصب القومي. إن الماركسية اللينينية والاشتراكية العلمية إذ ترفضان كل مظاهر التعصب القومي البورجوازي تتطلبان في الوقت نفسه التفريق بين قوميـة الأمم المسيطرة (شوفينية الدولة الكبرى والعنصرية) وقومية الأمم المضطهَدة. إن شوفينية الدولة الكبرى والعنصرية التي تبرر سيطرة أمة على أخرى انما هي رجعية صرفة ترفضها الاشتراكية العلمية كلياً. أما قومية الأمم المضطهَدة التي تحوي اتجاهات للنضال من أجل الاستقلال وضد الاستعمار فانها تقدمية ولهذا تحظى بدعم البروليتاريا. وقد كتب لينين يقول: «ان في كل قومية بورجوازية لأمة مضطهَدة محتوى ديمقراطياً عاماً موجهاً ضد الاضطهاد، وهذا المحتوى بالذات هو الذي ندعمه بدون قيد أو شرط[1]. ومن هذا القبيل مثلاً قومية العديد من البلدان الافريقية والآسيوية التي تظهر ميولها التقدمية في النضال ضد الاستعمار والكولونيالية، وضد الرجعية الاقطاعية والتخلف والتي توقظ في مجرى نضالها وعي الشعب وخصوصاً ملايين الجماهير الفلاحية.

وفي الوقت نفسه يكمن في القومية باستمرار خطر اضمحلال المحتوى الديمقراطي فيها وتحولها إلى شوفينية للدولة الكبرى والعنصرية. ولذا فأن

---

١ لينين – المؤلفات، ج ٢٠، ص ٤٢٥.

الشيوعيين إذ يدعمون الاتجاهات التحررية في قومية الشعوب المضطهدة فانهم في الوقت نفسه أنصار ثابتون للأممية البروليتارية التي ترسخ التضامن الأممي والصداقــة بين الكادحين من جميع العروق والشعوب . ان الماركسيين اللينينيين إذ يشيرون إلى الدور الحــاسم للنضال الطبقي في كل حــركة اجتماعية ، دون استثناء الحركة القومية ، وإذ يدعون إلى وحـدة الشغيلة من جميع البلدان ، فانهم يتغلبون على ايديولوجية القومية البورجوازيــة ويرسخون الأممية البروليتارية في وعي الجماهير الشعبية .

٢ ــ طابع حركة التحرر الوطني وقواها المحركة

ان الثورة الوطنية التحررية هي مرحلة عليا للنضال الوطني التحرري . والمسألة المركزية لكل ثورة ، بما في ذلك الثورة الوطنية التحررية ، هي مسألة السلطة . وان انتقال سلطة الدولية من أيدي الاحتكارات الأجنبية أو عملائهــا إلى أيدي القوى الوطنية القوميــة للشعب الذي كان يعاني الاضطهاد ، هو علامة أساسية للثورة الوطنية التحررية .

وكأية ثورة أخرى فان الثورة الوطنية التحرريــة تنبثق وتتطور على أساس اجتماعي واقتصادي محدد وتحمل مهمات خاصة وتلازمها قوى محركة معينة ، أي تلك الطبقات والفئات الاجتماعية التي تساهم فيها مساهمة فعالة .

طابع الثورة الوطنية التحررية

لقد سيطر الاستعمار الأجنبي على الحياة الاقتصادية والسياسية في البلدان المستعمرة ، وخنق كل مظاهر الاستقلال السياسي والاقتصادي . وأعاقت

الاحتكارات التي سيطرت في المستعمرات كل تطور في اقتصادها ، وأعطت لهذا الاقتصاد طابعاً مشوهاً وحيد الجانب وحولت هذه البلدان إلى تابع لتجهيزها بالمواد الخام .

ان المستعمرات والبلدان التابعة تنفذ دور الاحتياطي الستراتيجي الأقرب للاستعمار ، ونقاط ارتكاز له ضد قوى الاشتراكية المتعاظمة . كما تقوم بدور قواعد عسكرية في مخططاته العدوانيــة . بعد ان كانت مصدراً لا ينضب للمواد الخام الرخيصة وقوة العمل المجانية وسوقاً واسعاً ومربحــاً للتصريف .

لقد كانت الاحتكارات الاستعمارية السيد المطلق في الحيــاة السياسية للمستعمرات والبلدان التابعة . وكانت تعين الحكام وتعزلهم وفقاً لاهوائها ، وتملي القوانين وتقمع بوحشية كل محاولات المقاومة التي تبديهــا الشعوب المضطهدة . ولم يكن من الممكن حتى التفكير بأبسط الحقوق الديمقراطية . فالعنف القاسي الذي ليس له حدود ، والتحكم التام ، والحرمان الكلي من أبسط الحريات الديمقراطية ، والاعتداء على الكرامة الانسانية والتطلع القومي — تلك كانت لوحة الحياة السياسية والفكرية في المستعمرات والبلدان التابعة .

لقد نشط الاستعمار في المستعمرات والبلدان التابعة ليس فقط كمضطهد مباشر لشعوب هــذه البلدان وخانق لكل مظاهر الاستقلال في حياتهــا الاقتصادية والسياسية ، وإنما أيضاً كقاعدة رئيسية للقوى الرجعية الداخلية وقبل كل شيء لحماة العلاقات الاقطاعية وما قبل الاقطاعية من ملاكين كبار ورؤساء قبائل .

ولذا فإن الاستعمار والاحتكارات الأجنبية هما العدو الرئيسي للشعوب المضطهدة ، ولذا أيضاً فإن للثورات الوطنيــة التحررية طابعاً معاديــاً للاستعمار ، واضحاً .

ان تصفية السيطرة السياسية والاقتصادية للاستعمار الأجنبي ، واحراز الاستقلال السياسي والاقتصادي ، وخلق دولة وطنية ذات سيادة هو المهمة الرئيسية للثورات الوطنية التحررية .

غير ان تحطيم نير الاحتكارات غير ممكن بدون تصفية بقايا الاقطاعية والعلاقات الاقطاعية والقبلية التي كان حملتها القاعدة الاجتماعية الرئيسية للاستعمار في المستعمرات والبلدان التابعة نفسها . ولذا فإن للثورات الوطنية التحررية طابعاً معادياً للاقطاع . وان تصفية بقايا العلاقات ما قبل الرأسمالية التي تعيق تطور الحياة الاقتصادية والسياسية هي أيضاً مهمة هامة أخرى للثورات الوطنية التحررية .

ان حل مثل هذه المهمات الكبيرة والمعقدة لا يمكن التفكير به دون جذب الجماهير الشعبية الواسعة التي هي المبدع الحقيقي للمجرى التاريخي . ولذا فإن استئصال بقايا السيطرة الاستعمارية في الحياة السياسة الداخلية ، واشاعة الديمقراطية في الحياة الاجتماعية ، هما المهمة الثالثة الهامة التي تواجه الثورة الوطنية التحررية التي تكتسب بالتالي طابعاً ديمقراطياً .

ولذا فان الثورة الوطنية التحررية هي ثورة معادية للاستعمار والاقطاعية ، وديمقراطية بطابعها . وهي ، كما كتب لينين ، تحل « مهمات ديمقراطية ، مهمات إزالة الاضطهاد الأجنبي » [1] .

ان الطابع الديمقراطي العام المعادي للاستعمار الذي تحمله الثورات الوطنية التحررية نابع ليس فقط من المهمات التي يتوجب على الثورة انجازها ، وإنما أيضاً من القوى الاجتماعية المدعوة لتحقيق هذه المهام أي القوى المحركة للثورة .

---

١ لينين – المؤلفات ، ج ٢٣ ، ص ٥٤ .

القوى المحركة في الثورة الوطنية التحررية

قبل الحديث عن القوى المحركة في الثورة الوطنية يجب ان نشير إلى ان البلدان المستعمرة والتابعة كانت في مستويات مختلفة من التطور الاقتصادي والسياسي . فبعضها يمكن تصنيفه بين البلدان الزراعية – الصناعية وبعضها الآخر بلدان زراعية متأخرة ، دون صناعة ما متطورة ، وقسم ثالث (وهو الأكثرية) بلدان زراعية متأخرة جداً فيها بقايا قوية من العلاقات الاقطاعية وما قبل الاقطاعية (البطرياركية – الأبوية) . وتبعاً لهذا فإن تركيب السكان في هذه البلدان شديد الاختلاف أيضاً .

ومع ذلك ، ففي جميع هذه البلدان ، توجد ، وان كان بحجم ووضع متباينين ، طبقة عاملة ، وفلاحون ، وبورجوازية وطنية ، وبورجوازية صغيرة في المدن ؛ ومثقفون وطنيون (مدنيون وعسكريون وطلاب) واقطاعيون وبورجوازية عملية للاستعمار (كومبرادورية) . ان كل هذه الطبقات والقوى الاجتماعية ، باستثناء البورجوازية العملية للاستعمار والاقطاعيين ، تعاني من اضطهاد الاحتكارات الأجنبية ، ولذا فانها تساهم ، بهذا المقدار أو ذاك ، في الثورة الوطنية التحررية . وطبيعي ان كلاً من هذه الطبقات والفئات الاجتماعية يتميز بفهم مختلف لمهمات الثورة ويسعى لتحقيق أهدافه الاجتماعية الخاصة إلى جانب الأهداف العامة .

ان احدى القوى المحركة الأساسية للثورة هي الطبقة العاملة ، التي يزداد عددها باستمرار . وهنا تجب ملاحظة ان عدد أفراد الطبقة العاملة والتحامها التنظيمي ومستوى وعيها ليس واحداً في مختلف الأقطار . ولذا فإن دورها وأهميتها في الثورات الوطنية التحررية يختلف في ثورة عنه في أخرى . ففي بعض البلدان نجد ان البروليتاريا تبلورت ليس فقط كطبقة والتحمت صفوفها من وجهة تنظيمية وفكرية ، بل وتقودها أحزاب ماركسية كسبت دوراً قيادياً في الثورة الوطنية التحررية ، وضمنت تطورها

إلى ثورة اشتراكية (البلدان الاشتراكية في آسيا) . بينما في أقطار أخرى نجد ان البروليتاريا قوة محركة هامة جداً في الثورة توحد كل الفئات التقدمية في الأمة والفلاحين قبل كل شيء . وفي أقطار ثالثة رغم ان الطبقة العاملة قد تبلورت كطبقة فانها لم تكسب بعد دوراً قيادياً في المجتمع ، ولم تلف حولها القوى التقدمية في الأمة . وتوجد أخيراً مجموعة من البلدان (الافريقية بصورة رئيسية) بدأت فيها البروليتاريا الآن بالتكون كطبقة وبدأت تنتظم . وبسبب من قلة عددها وضعفها التنظيمي والفكري فانها لم تستطع حتى الآن أن تؤثر تأثيراً حاسماً على مجرى ونتائج النضال الوطني التحرري .

ولكن البروليتاريا في جميع البلدان التابعة دون استثناء ، وبسبب من حالتها الموضوعية في المجتمع فانها القوة الاجتماعية الأكثر ثورية والأكثر مصلحة في انجاز الثورة الوطنية التحررية حتى النهاية . وهذا مفهوم بذاته : فالخلاص من نير الاحتكارات الأجنبية ، وأشاعة الديمقراطية في كامل حياة المجتمع والدولة يخلقان امكانيات طيبة لشن النضال لتحقيق الهدف التاريخي للبروليتاريا — الذي هو الاشتراكية .

ان الطبقة العاملة تعزز صفوفها في مجرى النضال الوطني التحرري وتنظم نفسها وتكتسب تجربة سياسية . ويزداد وعيها الطبقي ويقوم ويتوطد تحالفها مع فئات الشغيلة غير البروليتارية ، وتتنظم وتتعزز منظماتها النقابية ومنظمات الشبيبة وغيرها . ان الثورة التحررية تخدم الطبقة العاملة باعتبارها مدرسة جيدة للمعارك الاجتماعية المقبلة من أجل الاشتراكية .

وان القوة المحركة الأكثر جماهيرية ، وفي العديد من البلدان القوة المحركة الأساسية في الثورة الوطنية التحررية هي الفلاحون .

ان الفلاحين في البلدان المستعمرة والتابعة في وضع غاية في الصعوبة ولا مخرج منه . انهم محرومون من الأرض ويضطرون لاستئجار الأرض

بشروط عبودية من الاقطاعيين الذين يملكون أراضي شاسعة ، ويدفعون لهم ربما مبلغ ٤٠ – ٨٠٪ من الحاصل .

وبالاضافة إلى هذا فان الفلاحين ينوءون تحت عبء الاحتكارات الأجنبية التي سيطرت على مساحات شاسعة من الأراضي وتنهب ، بالتحالف مع الاقطاعيين المحليين ، الفلاحين وتدفعهم إلى الخراب ، وتحقق ارباحاً طائلة من استغلالها لهم . إن الفلاحين إذا لحقهم البؤس والخراب حرموا من قطع الأرض الصغيرة العائدة لهم ، وأضافوا اعداداً جديدة إلى جيش المعدمين العرمرم في الريف .

إن المسألة الزراعية في المستعمرات والبلدان التابعة هي أكثر المسائل الاجتماعية حدة . والفلاحون هنا ذوو مصلحة حيوية في تصفية ملكية الاحتكارات والاقطاعيين المحليين والأرستقراطية العشائرية للأرض وذلك لكي يحصلوا على امكانية فلاحة هذه الأرض والتمتع بخيراتها . ومن الطبيعي أن يمثل الفلاحون قوة معادية للاستعمار والاقطاع ، وذات مصلحة في تصفية السيطرة السياسية والاقتصادية للرأسمال الأجنبي وكذلك سيطرة طبقة الاقطاعيين وكبار الملاكين والأرستقراطية العشائرية . كما انها ذات مصلحة في انجاز اصلاحات زراعية عميقة .

أما وضع البورجوازية في هذه البلدان فانه متناقض جداً .

فمن المعلوم ان تطور الاقتصاد الوطني هنا قد عرقل بمختلف الوسائل سواء من جانب الاحتكارات الأجنبية أو الاقطاعيين المحليين . ولذا فان ذلك الجزء من البورجوازية ذا المصلحة في تطور اقتصاد البلاد ، يساهم بفعالية في الثورة الوطنية التحررية ، وخصوصاً في النضال من أجل الاستقلال السياسي ويسمى البورجوازية الوطنية ، تمييزاً له عن البورجوازية الممالئة للاستعمار ، اللاوطنية (التي تسمى أحياناً الكومبرادورية) ، والتي ترتبط بشكل وثيق بالاحتكارات الأجنبية وتخون المصالح الوطنية العامة .

ان البورجوازية الوطنية إذ تناضل في صفوف الثورة الوطنية التحررية من أجل مصالحها الطبقية بخاصة ، وقبل كل شيء من أجل تطوير الاقتصاد الرأسمالي الوطني ، ومن أجل سيطرتها السياسية في المجتمع فانها تعبر في ذات الوقت عن بعض المصالح الوطنية العامة ، ذلك أنها تستطيع تحقيق أهدافها الطبقية فقط في حالة التحرر من سيطرة الاستعمار الأجنبي والاقطاعية المحليـــة . وإن مطامح البورجوازية الوطنية المعادية للاستعمار والاقطاع تؤدي إلى انطبـاق مصالحها هي مع مصالح مجمـوع الأمة والجماهير الشعبية الواسعة .

ومما يجب أن نأخذ بنظر الاعتبـــار تناقض وازدواجية البورجوازية الوطنية . فبوصفها ذات مصلحة بالنضال ضد الاستعمار الأجنبي والقوى الداخلية التي تدعمه وقبل كل شيء قوى الاقطاع والأرستقراطية العشائرية ، تسير البورجوازية الوطنية مع الشعب ، مع جماهير الكادحين وتستند اليها وتستفيد من طاقاتها الثورية لتحقيق أهدافها ، وهي في الوقت نفسه تخاف من الطبقة العاملة الثورية والفلاحين ، لأنها ترى فيهما تهديداً لمصالحهـــا الاستغلالية ولذا فانها تسعى لحبس الثورة في إطار ضيق لمصالحها ولاعاقة تطورها ومن أجل توجيهها في طريق رأسمالي .

وتوجد في البلدان المستعمرة والتابعة وخصوصاً البلدان الافريقية ، بعدد كبير جداً وذات نفوذ ما يسمى بالفئات الوسطية (البورجوازية الصغيرة) – منتجون صغار في البيوت ، حرفيون ، تجار صغار و .. الخ .

وبسبب من تأخر التطور الاقتصادي فان الفئات الوسطية تحتل مكانـاً حساساً جداً في الاقتصاد ، ذلك انها تنتج في مؤسساتها الصغيرة كميـــة كبيرة من المواد الضرورية للسكان . وتتركز في أيديها الخدمات المعيشية وتجارة المفرق و .. الخ . ونظراً لدورها في الاقتصاد يلمس دورها في الحياة السياسية أيضاً . ولذا فان مصير الثورة الوطنية التحررية يتعلق إلى

درجة كبيرة بمواقف الفئات الوسطية وبميلها إلى هذه الجهة أو تلك ، إلى جانب القوى التقدمية أو إلى جانب القوى الرجعية .

إن هـذه الفئات من حيث جوهرها الاجتماعي متناقضة جداً . وهذا ما يقربها : إلى درجة معينة ، من البورجوازية . ومن جهة أخرى فهي مضطرة إلى العمل وكسب عيشها بعملها ، وهذا ما يقربها جداً من العمال وأكثر من هذا من الفلاحين . وهكذا فان الفئات الوسطية ، شأنها في ذلك شأن فئات الكادحين الأخرى ، تستغل بلا رحمة من قبل الاستعماريين الأجانب والأثرياء المحليين .

ويلعب المثقفون الوطنيون الديمقراطيون دوراً مرموقاً وقيادياً أحياناً في الثورة الوطنية التحررية ، وهؤلاء هم رجال العلم والثقافة وجزء من الموظفين والضباط التقدميين والطلاب والمستخدمين وغيرهم . وإن دورهم كبير خصوصاً في تلك البلدان التي لم تتبلور فيها الطبقة العاملة كقوة مستقلة ، وتكون البورجوازية الوطنية فيها اما ضعيفة أو تنهج سياسة موالية للاستعمار كما يحصل في العديد من البلدان الافريقية . وفي هذه الظروف يقف ممثلو المثقفين في أحيان كثيرة على رأس الثورة والدولة

تلك هي على العموم القوى المحركة للثورة الوطنيــة التحررية . ان تناسب هذه القوى ودورها في الثورة ليسا متشابهين في البلدان المختلفة نظراً لاختلاف تاريخها ومستوى تطورها الاقتصادي والاجتماعي . ويتبدل توازن القوى بتطور الثورة في كل بلد على حدة . ولذا فعند تحليل القوى

المحركة للثورة في هذا البلد أو ذاك يجب أن ننطلق بشكل تاريخي ملموس آخذين بنظر الاعتبار الظروف الداخلية والعالمية .

٣ ـ احراز الاستقلال الاقتصادي
مهمة هامة للثورة

ان احراز الاستقلال السياسي والتحرر من سيطرة الاستعمار السياسية هو محتوى المرحلة الأولى البدائية من الثورة التحررية . وفي هذه المرحلة التي انتهت بنجاح في العديد من البلدان النامية انتقلت سلطة الدولة من أيدي البوزجوازية الاستعمارية الأجنبية والطغمة الاقطاعية أو الأرستقراطية العشائرية المحلية إلى أيدي القوى الوطنية في الأمة . إن تحقيق الاستقلال السياسي وتشكيل الدول الوطنية ذات السيادة في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية هو نتيجة سياسية هامة لسقوط النظام الكولونيالي للامبريالية .

غير ان إحراز الاستقلال السياسي ليس المهمة الوحيدة للثورة الوطنية التحررية . فمن المهم توطيد المكتسبات المحققة وتصفية التبعية للاحتكارات الأجنبية إلى الأبد ، هذه التصفية التي لا يمكن بدونها التفكير بالاستقلال الاقتصادي . كتب لينين يقول ان ايديولوجيي الاستعمار في العادة « يتحدثون عن التحرر القومي ... تاركين في الظل التحرر الاقتصادي في حين ان هذا الأخير هو الرئيسي » [١] .

مرحلة جديدة في تطور الثورة

ان الاستعماريين لم يدخروا جهداً لتخليـــد سيطرتهم في المستعمرات

---

١ لينين ـ المؤلفات ، ج ١٨ ، ص ٤٠٢ .

والبلدان التابعة ، ولربطها إلى الأبد بنظامهم الخاص الاقتصادي والسياسي ، وعرقلوا كل محاولات الشعوب المضطهَدة لتطوير اقتصادها الوطني وصناعتها على وجه الخصوص .

ان الاستعمار قد أعاد إلى الوراء عشرات البلدان في آسيا وأفريقيا اللاتينية التي لا تزال حتى الآن في مستوى منخفض جداً من التطور ، مع بعض الاستثناءات القليلة . ففي هذه البلدان التي يعيش فيها أكثر من ثلثي سكان العالم غير الاشتراكي ينتج بالكاد حوالي ٢٠٪ من منتجات الصناعة التحويلية ، وحوالي ٣٪ من المكائن والمعدات و٥٪ من المعادن من مجموع الانتاج في العالم الرأسمالي ، مع العلم أن جزءاً هاماً من المؤسسات الصناعية في البلدان النامية تعود ملكيته للاستعمار الأجنبي . ومن الطبيعي تماماً أن شعوب البلدان النامية تستطيع أن تستثمر لصالحها مواردها الطبيعية الضخمة ، وأن تعمل لمصالحها هي وليس لتكديس الارباح للاستعماريين الأجانب ، فقط عندما تحرر اقتصادها من أخطبوط الاحتكارات الأجنبية . ولأجل هذا يوجد طريق واحد ، طريق تطوير الاقتصاد الوطني الخاص . وأن شعوب البلدان المتحررة اذا ما ظلت تابعاً اقتصادياً للاستعمار فانها لا تستطيع أن تسير في طريق التقدم الاجتماعي والاقتصادي وأكثر من هذا فان التبعية الاقتصادية هي خطر دائم وجدي على استقلالها الساسي .

ان إحراز الاستقلال الاقتصادي هو محتوى المرحلة الجديدة ، المرحلة الثانية في تطور الثورة الوطنية التحررية .

وان احدى الوسائل الأكثر جذرية للتحرر من التبعية الاقتصادية هي التأميم أي نقل المؤسسات الصناعية والمواصلات والبرق والبريد والتلفون والبنوك والمؤسسات التجارية والعامة والمدارس ومؤسسات التعليم إلى ملكية الدولة . وإن حصيلة التأميم هي تشكيل القطاع الحكومي في الاقتصاد .

ان التأميم وتشكيل قطاع حكومي في الاقتصاد أعطى امكانيــة للبلدان المتحررة لأن تحل بشكل مستقل بعض قضايا الحيــاة الاقتصادية ، وان تؤثر فيهــا وان تشرع في تنظيم وتخطيط الاقتصاد . وبهذا وجهت ضربة جدية للاستغلال الاستعماري وقوضت إلى درجة كبيرة امكانيات الرأسمال الأجنبي في التأثير بشكل حاسم على التطور الاقتصادي في هذه البلدان .

ونظراً لأن الظروف غالباً ما لا تسمح لهذه الدولة النامية أو تلك ان تؤمم فوراً كل ملكية الاحتكارات الأجنبية أو جزءاً هاماً منها ، فإن الدولة تطبق إلى جانب التأميم ، ولأمد معين ، رقابة على نشاط هذه الاحتكارات وتحد من امكانياتها لاستغلال السكان والثروات الطبيعية في البلاد . وكثيراً ما تؤسس مشاريع مختلفة يكون مالكوها الدولة والرأسمال الخاص وبضمنه الرأسمال الأجنبي .

ان الطبيعة الاجتماعية لقطاع الدولة ليست واحدة في مختلف البلدان ، وهي تتعلق بتناسب القوى الطبقية في هذا البلد أو ذاك وبماهيــة القوى الاجتماعية التي في السلطة . ان القطاع الحكومي يمكن ان يكون أساســاً لتطور الاقتصاد الوطني وعاملاً هاماً لتصفية تبعيته للاحتكارات الأجنبية فقط عندما تكون السلطة بأيدي القوى الوطنية الديمقراطية وعندما تنجز التأميمات لمصلحة الأمة والجماهير الشعبية الواسعة .

ان احراز الاستقلال الاقتصادي ممكن فقــط عن طريق خلق اقتصاد وطني عالي التطور بواسطة التصنيع .

ان التصنيـع يؤمن إعادة بناء جميـع فروع الاقتصاد في البلدان الضعيفة

التطور ، بما في ذلك الزراعة ، على أساس قاعدة تكنيكية عصرية تضمن انتاجية عمل عالية . والتصنيع أساس لتوطيد دفاع البلاد ، وقاعدة لتقدم العلم والتكنيك والثقافة . وعن طريق التصنيع فقط يمكن التغلب على التأخر الذي تعاني منه البلدان المتحررة ، والخلاص من الدور الذي لا تحسد عليه كتابع للبلدان الاستعمارية يؤمن لها المواد الزراعية والخامات ، والحصول على استقلال حقيقي . ان التصنيع شرط ضروري لرفع رخاء الشعب .

ان أقطاراً متحررة عديدة تخطو أولى خطواتها في طريق التصنيع وهي تستخدم الموارد الداخلية ومساعدات الآخرين ، وخصوصاً البلدان الاشتراكية ، لخلق قاعدة للطاقة وفروع عصرية للصناعة وتطوير تلك الفروع التي لها أهمية خاصة للبلاد وتساعد على تحقيق الاستقلال الاقتصادي .

ومن الأجزاء المكونة العامة في برنامج تحقيق الاستقلال الاقتصادي للبلدان المتحررة هو حل المسألة الزراعية لصالح الشعب والقيام باصلاحات زراعية عميقة . من المعروف انه في أكثرية البلدان المتحررة كانت أخصب الأراضي ، ولا تزال حتى الآن في العديد منها ، تعود إلى الاحتكارات الأجنبية والاقطاعيين المحليين والارستقراطية القبلية . ان سيطرة الاحتكارات ووجود العلاقات الاقطاعية وما قبل الاقطاعية يعيقان بصورة جدية تطور الاقتصاد نظراً لأن الزراعة ذات المحصول الواحد والوحيدة الجانب لا يمكن ان تضمن الخامات للصناعة والمواد التموينية للسكان .

وارتباطاً بهذا فإن جوهر المسألة الزراعية في البلدان المتحررة يكمن في تصفية العلاقات الاقطاعية وما قبل الاقطاعية في الزراعة ، وتصفية الملكية الاقطاعية وما قبل الاقطاعية وملكية الاحتكارات الأجنبية للأرض ، واعطاء الفلاحين امكانية فلاحة هذه الأرض ومساعدتهم على استثمارها .

وكما تدلل التجربة المكدسة حتى الآن فإن الطرق الملموسة للتحولات

الزراعية يمكن ان تكون مختلفة . ففي العديد من البلدان المتحررة
جرت اصلاحات زراعية عميقة تستهدف
تحديد ملكية الأرض بشدة واعطاء الأراضي المصادرة من كبار الملاكين والاستعماريين الأجانب إلى الفلاحين . ان الشكل الأكثر جذرية للتحولات الزراعية هو اشاعة التعاونيات في الزراعة الذي بدأ تطبيقه في بعض البلدان المتحررة .

وينبغي ان نذكر ان المسألة الزراعية في العديد من البلدان المتحررة لا تزال بعيدة عن الحل ، ولذا لا تزال مهمة حلها من أهم مهام الثورة الوطنية التحررية .

ان التطور الاقتصادي لا يمكن التفكير به بدون اشاعة الديمقراطية على نطاق واسع في الحياة الاجتماعية والدولية ، بدون جذب الجماهير الشعبية الواسعة للمساهمة في البناء ، بدون رفع مستوى تعليمها وثقافتها .

ان حل أهم المهمات الاجتماعية – الاقتصادية للثورة الوطنية التحررية يجري ضمن صراع حاد بين القوى الاجتماعية . فبينما يتم احراز الاستقلال السياسي ، الذي هو محتوى المرحلة الأولى من الثورة ، بجهود كل القوى الوطنية للأمة في النضال ضد الاستعمار الأجنبي ، فإن مهمة احراز الاستقلال الاقتصادي ، التي هي محتوى المرحلة الثانية من الثورة ، تحل ليس فقط بالنضال ضد الاستعمار بل وبالصراع بين مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية في البلد نفسه . وان هذا الصراع في جوهره ، صراع حول طرق وأساليب التخرر الاقتصادي ، طرق وأساليب التطور اللاحق للمجتمع .

الفَصلُ الخامِسُ

العملية الثورية العالمية

والتعايش السلمي

١ ـ الماركسية اللينينية والحروب العادلة وغير العادلة

أسباب الحروب

ان ايديولوجيي الطبقات المستغِلة يغذون منذ أمــد بعيد لدى الجماهير الشعبية فكرة ان أسباب الحرب تكمن في طبيعة الناس ، التي تلازمهــا منذ القدم ـ على مــا يزعمون ـ نوازع الصدام والاقتتال . وإذ يوحي المستغلون بهذه الفكرة الباطلة بطلاناً كلياً للناس حاولوا ويحاولون ان يرموا عن كواهلهم مسؤولية الحرب والكوارث والفظاعات التي احاقت بالناس الذين زجوا في الحروب الدموية بسبب السياسة الخرقاء للطبقات المسيطرة .

ان الماركسية اللنينية وحدها هي التي كشفت الأسباب الواقعية للحروب وجوهرها . ان الحرب ليست ظاهرة توجد دائماً ، انها ظاهرة تاريخية ، وهي تنشأ عن ظروف اجتماعية ـ اقتصادية معينة . ففي نظام المشاعيــة البدائيــة حيث لم تكن توجد طبقات ولا دول وعندما كان الانتاج في درجة واطئة جداً من التطور ولم يكن من الممكن ان يقوم تملك خاص ، توجد الحروب .

ان تطور الانتاج ادى إلى ظهور الملكية الخاصة والطبقات .

ان أسباب الحروب تكمن بالضبط في طبيعة المجتمع الطبقي المتناحر

وفي أساسه الاقتصادي – الملكية الخاصة ، وفي التناقضات المستعصية التي تلازمه . لقد كتب لينين : « ان الحرب لا تتناقض مع أسس الملكية الخاصة ، وإنما هي التطور المباشر والحتمي لهذه الأسس » [1] .

ان المجتمعات الطبقية المتناحرة ومصالح الطبقات المستغلة فقط هي التي تولد الحروب . ان الحروب استمرار لسياسة الطبقات المسيطرة . فالمستغلون يضطهدون بوحشية جماهير الشغيلة ، وغالباً ما يلجأون إلى السلاح لهذا الغرض . وهم في سعيهم المحموم وراء الأرباح يلجأون إلى القتال والنهب واستعباد الشعوب ، وخصوصاً في البلدان المتخلفة ، ويخوضون صراعاً دائماً فيما بينهم . وما دام المجتمع تحت سيطرة المستغلين وما دام هؤلاء يتحكمون بمصائر السياسة الدولية فإن المآسي الدموية ملازم حتمي للبشرية .

وهذا ما تتحدث عنه الوقائع . فلقد أحصى العالم السويسري جاك بابل ١٤٥١٣ حرباً عاشتها البشرية خلال ٥٥٥٩ عاماً ، مات فيها ٣٦٤٠ مليون نسمة ، وهو رقم يزيد على عدد نفوس العالم الآن .

ان البشرية سارت إلى أمام في تطورها ، ولم تقف اسلحة الحرب في مكانها ، فلقد أصبحت أكثر افناء وتدميراً . ونتيجة لهذا أضحت الحروب تكلف البشرية أغلى فأغلى ، وتتطلب ضحايا بشرية وقيماً مادية أكثر فأكثر .

الحروب العادلة وغير العادلة

ان للحروب طابعاً طبقياً . والطبقات في المجتمع ليست متشابهة وكثيراً

---

١ لينين – المؤلفات ، ج ٢١ ، ص ٣٤١ .

ما تكون متناقضة . لذا فإن جوهر الحرب ليس واحداً ، وكذلك أهداف الحروب وأسبابها الجذرية ودوافعها فانها ليست واحدة أيضاً .

ان الحروب تكون اما عادلة ثورية ، أو حروب غزو غير عادلة . ومن الحروب العادلة حروب الشغيلة الذين ينهضون للثورة الاشتراكية ضد المستغلين إذا ما لجأ هؤلاء إلى استعمال السلاح ضد المضطهَدين ، والحروب الوطنية التحررية التي تخوضها الشعوب ضد العبودية الاستعمارية ؛ والحروب التي تستهدف الدفاع عن هذه الدولة أو تلك ضد عدوان خارجي و ... الخ . وبانبثاق الاشتراكية أصبحت للحروب العادلة أهمية كبيرة في الدفاع عن الدول الاشتراكية والنظام العالمي .

ان الحروب العادلة لهـا طابع تقدمي ثوري . وهي تساعد التطور التاريخي لأنها تشن دفاعـاً عن مكتسبات الاشتراكيـة ، وضد الأنظمة الاجتماعية التي فات زمانها ، وضد الاستغلال والنير الكولونيالي ، وتساعد على توطيد النظام الاجتماعي الجديد التقدمي .

ألم تساعد انتصارات الشعب السوفييتي في الحرب الوطنية العظمى على الفاشية الالمانية أو حروب التحرر الوطني في السنوات الأخيرة ، التقدم الاجتماعي ؟ بالتأكيد ساعدت ، ذلك لأنها موجهة ضد الاستعمار ولأنها نضال من أجل التقدم الاجتماعي والاشتراكية . ولذا فإن الشيوعيين المناضلين الأشد دأباً وثباتاً من أجل التقدم دعموا ويدعمون الحروب العادلة الثورية .

اما الحروب غير العادلة فهي الحروب التي تشن ضد بلدان الاشتراكية ، حروب المستغلين ضـد الشغيلة وضد الحركات الثورية والديمقراطيـة ، والحروب الكولونيالية التي يشنها الاستعماريون لاستعباد الشعوب المتأخـرة في تطورها الاقتصادي ؛ والحروب التي يشنها المستغلون ضد بعضهـم البعض من أجل النفوذ السياسي والاقتصادي في العالم .

ان الحروب غير العادلة لهـا طابع رجعي . انها استمرار للسياسـة

الرجعية التي تنتهجها الطبقات المستغلة ولذا فانها تتناقض وحاجات التطور الاجتماعي وتعيق التقدم الاجتماعي . انها تشن من قبل الطبقات الرجعية التي يتوجب عليها مغادرة مسرح التاريخ ضد الطبقة الجديدة ، الثورية ، الوليدة . ان هذه الحروب تستهدف حماية القديم البالي ، وصيانة وتشديد النير الاجتماعي والقومي . ومن هذه الحروب مثلاً حرب الأربع عشرة دولة استعمارية ضد الجمهورية السوفييتية الفتية ، والعديد من الحروب الكولونيالية التي شنها المستعمرون والتي لا يزالون يشنونها حتى الوقت الحاضر .

ان الشيوعيين خصوم الداء للحروب غير العادلة ، حروب الغزو ولكنهم يربطون بشكل وثيق النضال ضد حروب الغزو بالنضال الاجتماعي ، بالنضال ضد الاستغلال ، ومن أجل انتصار الاشتراكية . ان الشيوعيين على اقتناع تام بأن انتصار الاشتراكية على الأرض هو الذي سيخلص البشرية إلى الأبد من الحروب وإبادة الناس وتدمير القيم التي لا حصر لها ، التي خلقها عمل الانسان وفكره . لقد كتب ماركس وانجلز في « بيان الحزب الشيوعي » ان العداء بين الأمم سيزول بزوال التناحر بين الطبقات . وبدلاً من المجتمع الرأسمالي القديم وجنونه السياسي سيقوم مجتمع جديد يكون « مبدأه الدولي السلام لأن مبدأ واحداً سيسود جميع الشعوب هو العمل »[1] .

---

١ ماركس وانجلز – المؤلفات ، ج ١٧ ، ص ٧ .

٢ ـ سياسة التعايش السلمي

المبدأ اللينيني عن التعايش السلمي

ان مبدأ التعايش السلمي بين الدول ذات الأنظمة الاجتماعيــة المختلفة كان قد وضع ودعم بشكل متكامل من قبل لينين . فمنذ الأيام الأولى للسلطة السوفيتية أعلن في خطابه أمام المؤتمر الثاني للسوفيات قائلاً : « اننا ننبذ جميع بنود النهب والعنف وسنقبل بارتياح جميع البنود التي تتضمن شروط حسن الجوار والاتفاقات الاقتصادية ولا يمكن ان ننبذها »[١] .

لقد كان لينين على اقتناع راسخ بأن الاشتراكية ستنتصر في العــالم أجمع ان عاجلاً أو آجلاً . ولكن هذا الانتصار كما كتب ، لا يمكن الوصول اليه في وقت واحد ومرة واحدة في جميع البلدان . وانه تبعاً لمستوى الاقتصاد ، ودرجة حــدة الصراع الطبقي وتناسب القوى بــين البورجوازية والبروليتاريا ولظروف أخرى فإن بعض البلدان ستصل إلى الاشتراكية قبل الأخرى . وانطلاقاً من هذا استنتج لينين بأنــه في ظل مرحلة تاريخية معينة ستوجد في العالم إلى جانب الدول الاشتراكيــة دول رأسماليــة . وكان لينين نصيراً للتعايش السلمي .

١ لينين – المؤلفات ، ج ٢٦ ، ص ٢٤٨ .

ان التعايش وفق أسس معقولة ، أي التعايش السلمي ، يفترض : التخلي عن الحرب كوسيلة لحل الخلافات بين الدول ، وحل هذه الخلافات عن طريق المفاوضات ؛ والتساوي في الحقوق والتفاهم والثقة المتبادلة بين الدول ، والاحترام المتبادل للمصالح ؛ وعدم التدخل في الشؤون الداخلية ، والاعتراف بحق كل شعب في ان يحل ، بصورة مستقلة ، جميع القضايا التي تخص بلاده ؛ والاحترام التام للسيادة وحرمة أراضي جميع البلدان ؛ وتطوير التعاون الاقتصادي والثقافي على أساس من المساواة التامة والمنافع المتبادلة .

ان سياسة التعايش السلمي تستند إلى تحليل علمي ثابت للقوى المحركة لتطور المجتمع المعاصر . قال لينين ان العلاقات الاقتصادية العالمية العامة أقوى من رغبة وإرادة وقرارات أي من الحكومات أو الطبقات المتعادية . وان هذه العلاقات بالذات تجبرها على السير في طريق العلاقات السلمية مع البلدان الاشتراكية .

ان مبدأ التعايش السلمي لا يعني التخلي عن الكفاح المسلح في حالة ما إذا خرق الاستعماريون السلم بقوة السلاح ، وإذا مـــا سعوا لفرض سيطرتهم على هذا الشعب أو ذاك . ان هذا المبدأ لا يمكن تطبيقه في العلاقات بين المضطهِدين والمضطهَدين ولا بـــين المستعمِرين وضحايا السيطـــرة الاستعمارية . ان الدفاع عن الاستقلال والحريـــة والنضال بالسلاح ضد العدوان واضطهاد المستعمِرين ، إنما هو حق مقدس لكل شعب .

ان الرجعية الاستعمارية السوداء لم تتخل عن خططها المعادية للانسانية ، وهذا يعني بأن التعايش السلمي بين الدول ذات الأنظمة الاجتماعية المختلفة لا يمكن الحفاظ عليه وضمانه إلا بنضال متفان دؤوب من جانب جميع الشعوب ضد مطامع الاستعماريين العدوانية .

الصراع الطبقي في ظروف التعايش السلمي

ان التعايش السلمي لا يعني بالمرة المهادنة بين تناقضات الاشتراكية والرأسمالية ولا التخلي عن النضال الطبقي. ان الماركسيين اللينينيين كانوا دوماً وسيظلون انصاراً ثابتين للنضال الطبقي ، لنضال البروليتاريا وجميع الشغيلة ضد البورجوازية ويعتبرون ان الصراع بين الطبقات وشكله الأعلى - الثورة الاشتراكية - انما هو وسيلة لتحطيم وترسيخ المجتمع الجديد ، الاشتراكي .

الصراع الايديولوجي في ظروف التعايش السلمي

ان التعايش السلمي لا يشمل الميـــدان الايديولوجي ذلك انه من غير الممكن المهادنة بين الايديولوجيتين الشيوعية والبورجوازية .

ان الايديولوجيا الشيوعية هي ايديولوجيا الطبقة العاملة والشغيلة . وإن هدفها هو البرهنة على حتمية انتصار الاشتراكية والشيوعية . والارشاد إلى الطريق الموصل إلى هذا الانتصار ، والكشف عن جوهر المجتمع الجديد ، وإظهار أفضالياته وأمكانياته . أما الايديولوجيا البورجوازية فانهـــا تضع لنفسها هدفاً آخر هو البرهنة على خلود ورسوخ مجتمع الملكية الخاصة والاستغلال — المجتمع الرأسمالي .

ان الصراع الايديولوجي ليس من تلفيق الشيوعيـــين ، كما يزعم ايديولوجيو الطبقة البورجوازية ، انه موجود منذ أمد طويل ، منذ تلك الأزمنة السحيقة التي ظهرت فيها الملكية الخاصة والطبقات . وسيظل موجوداً ما دامت توجد الطبقات المتعارضة المصالح .

واليوم ، في النضال الضاري ضد الرأسمالية ينتصر المجتمع الجديد ، مجتمع الاشتراكية . وان انعكاس الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية في أذهان الناس هو الصراع بين الايديولوجيا الشيوعية والايديولوجيا البورجوازية .

ان الشيوعيين على ثقة راسخة بالانتصار النهائي لايديولوجيتهم . هذه الايديولوجيا التي يظهر الواقع نفسه قوتها وحيويتها في كامل مجرى تطور البشرية المعاصرة .

ان قوة جذب الأفكار الشيوعية والاهتمام العظيم بها في جميع أرجاء كرتنا الأرضية الواسعة ، يفسر بأن هذه الأفكار ، تتجاوب مع حاجات تطور البشرية ، وتستجيب لأكثر مصالح النـــاس جوهرية . الأمر الذي يضطر للاعتراف به اليوم غير الماركسيين . فقد كتب الفيلسوف والكاتب

الفرنسي المعروف جان بول سارتر مثلا ان الفلسفة الماركسية « هي الايديولوجيا الوحيدة التي تتجاوب مع عصرنا ومع التطور المعاصر للتاريخ » . وارتباطاً مع هذا تبدو مزاعم ايديولوجيي الأمبريالية بائسة جداً عندما يقولون بأن الأفكار الشيوعية قد أدخلت بالعنف في أذهان الناس .

وكثيراً ما تسمع في العالم الرأسمالي دعوات للتوفيق بين الايديولوجيات ووقف الصراع الايديولوجي . ويناقش أصحاب هذه الدعوات قائلين ما دام هناك مبدأ للتعايش السامي بين الدول ذات الأنظمة الاجتماعية المختلفة فلماذا لا يطبق في ميدان الايديولوجيا ؟ وهم يعتبرون ان الصراع الايديولوجي يتنافى مع مبدأ التعايش السلمي ولذا فليسقط الصراع الايديولوجي !

في الواقع ان الصراع الايديولوجي لا يتناقض مطلقاً مع مبدأ التعايش السلمي .

أما فيما يتعلق بمحاولات اقامة الهدنة بين الايديولوجيات فان هذه المحاولات محكومة مسبقاً بالفشل . إذ لا يوجد ولا يمكن أن يوجد سلام بين الأفكار الشيوعية والأفكار البورجوازية ، ذلك لأنه لا يمكن أن يوجد سلم طبقي ، سلم بين الطبقات التي تعكس هذه الأفكار مصالحها . ان السلم في الميدان الايديولوجي يعني بالنسبة للشيوعيين التخلي عن المبادىء

الأساسية للماركسية اللينينية وعن المصالح الجذرية للطبقة العاملة وكل الشغيلة ، وهو أمر مرفوض لا يمكن التفكير به بالمرة . وينبغي أن نفترض بأن ممثلي العالم البورجوازي ، رغم انهم يلقــون أحيانــاً ببعض الكلمات عن السلم الايديولوجي ، فانهم من الناحية العملية غير ميالين إلى التخلي عن مبادئهم الفكرية . وليس من قبيل الصدفة انهم يتخذون كل الاجراءات للحيلولة دون انتشار الأفكار الشيوعية ولمنع وصولها إلى الجماهير الشعبية الواسعة . ولذا فان دعوات ساسة وايديولوجيي الأمبريالية للسلم الأيديولوجي ينبغي أن لا تحمل محمــل الجد . إنها في الحقيقة دعوات للاستسلام لصالح ايدولوجيتهم التي لا يمكن للماركسين أن يوافقوا عليها ابداً .

إن أية محاولات لإعادة الصراع الايديولوجي أو وقفه لا معنى لها ذلك أن الأفكار لهــا خصائصها في التأثير على الناس ، ولها قوانينها الخاصة للانتشار ، فلا توجد بالنسبة للأفكار حدود دولية ، وهي لا تخاف القواعد العسكرية ولا الغواصات الذرية . وبوجود الوسائل العصرية للاعلام والاتصالات فان الأفكار تستطيع ان تتغلب على المسافات الهائلة . فاذا ما كانت هذه الأفكار صائبة وتتجاوب مع المصالح الجوهرية فانها ستسيطر من غير شك على عقولهم وقلوبهم .

وطبيعي أن الصراع الايديولوجي ينبغي أن يشن بطرق عقلانية . ولا علاقة له مطلقاً بـ « الحرب النفسية » التي تستهدف التأثير على مشاعر الانسان مثيرة غرائزه المنحطة من يأس وخوف وأنانية وعدم ثقة وحقد . ان الأمر الرئيسي في « الحرب التفسية » هو أسلوب اخافة الناس بخطر حرب موهومة من جانب الدول الاشتراكية ، لتسعير حمى حربية وهستيريا ذرية . أما الصراع الايديولوجي فانه شيء آخر : ان أسلوبه الأساسي هو أسلوب الشرح والاقناع والتأثير على عقل الانسان . انه يجب أن لا يشوه الحقائق وسياسة وأهداف البلد الخصم ، وأن لا يستخدم الأكاذيب والتهجمات

وان لا يثير لدى الانسان مطامع وأهواء ونزوات غير سليمة . ان الصراع الايديولوجي صراع من أجل كسب عقول الناس وقلوبهم دون استخدام القوة ، وبدون استخدام السلاح من باب أولى . ولخوض هذا الصراع ليست هناك أية حاجة لسباق التسلح أو لتوتير العلاقات بين الدول .

ان الصراع الايديولوجي ينسجم تماماً مع مبادىء التعايش السلمي ، ولا يعيق والتبادل العلمي – التكنيكي والعلاقات الثقافية بين هــذه البلدان . ان الشيوعيين يقفون بثبات في مواقع الماركسية اللينينية وهم على اقتناع راسخ بأفضلية النظام الاشتراكي وانتصاره الحتمي . انهم لا يخفون نواقصهم ويعرفونها جيداً ويعملون بدأب من أجــل إزالتها . ان الشيوعيين أنصار للصراع الايديولوجي ولا يخافون منه لأنهــم يؤمنون بعدالة قضيتهم وبمبادئهــم الفكريــة .

لندافع عن مكتسبات الاشتراكية

إن الدول الاشتراكية تهتم دوماً بتعزيز دفاعها وتزويد قواتها المسلحة بأسلحة من أحدث طراز لتستطيع عند الضرورة الرد بصورة حازمة على المعتدين الاستعماريين .

ان جيوش البلدان الرأسمالية تدافع عن مصالح البورجوازية ، وهي أداة لتحقيق مطامع القوى الامبريالية الرجعية ، ولتحطيم الحركة الثورية للشغيلة . وعلى الضد من جيوش الدول البورجوازية فإن القوات المسلحة

للاتحاد السوفييتي أداة للدفاع عن المكتسبات الاشتراكيـــة والسلم . وهي تقوم برسالتها النبيلة هـــذه بوحدة وثيقة مع جيوش البلدان الاشتراكيـــة الأخرى .

ومن أجل مواجهة العدوان الامبريالي بصورة أفضل ، وخصوصاً حلف شمال الأطلسي العدواني ، توحدت جيوش البلدان الاشتراكية الاوروبية في معاهدة وارشو . وهي إذ تتعاون فيما بينهـــا في التزود بالتكنيك الحربي الحديث والتمكن من الأساليب الحديثة في القتال ، فانها تواجـــه العدوان الامبريالي بنجاح وتشكل دعامة جبارة لشعوب البلدان النامية في نضالهـــا ضد تصدير الثورة المضادة والكولونيالية . انها عامل قوي يوقف المطامع العدوانية للامبرياليين ، ودعامة هائلة لجميع القوى الثورية المحبة للسلم .

ان القوات السوفييتية المسلحة تحوز كل ما هو ضروري للقيام بمهماتها . انها تملك أسلحة نووية صاروخية ذات أهمية ستراتيجية وتاكتيكية . أسلحة باستطاعتها ان تدمر مختلف الأهداف البرية والجوية والبحرية . ان الصواريخ التي تحمل أسلحة نووية أصبحت أساس القوة النارية في الجيش السوفييتي والاسطول السوفييتي وتتزود القوات الجوية بأحدث الطائرات ذات السرعة الهائلة ووسائل القتال القوية . ويضم الاسطول السوفييتي غواصات ذريـــة مسلحة بصواريـــخ وطوربيدات تحمل رؤوساً نووية ، قادرة — وهي تحت الماء — على تحطيم أهداف تبعد عنها مئات وألوف الكيلومترات . وتطبق على نطاق واسع في التكنيك الحربي وسائـــل الاتمتة والمكننة التي تعطي القوات المسلحة امكانية السيطرة بصورة فعالة في البر والجو ، وفوق الماء وتحته ، من أجل تحقيق أحسن تعاون فيما بينها .

ان هذا التكنيك الجبار يوجد في أيـــدي مقاتلين يعرفون بعمق فن الحروب ومن ذوي الأعداد العالي ، مثقفين ومفعمين بالاخلاص لقضية

الشعب والحزب ، مقاتلين هم على استعداد في كل لحظة للدفاع بتفانٍ عن مكتسبات الاشتراكية العظيمة .

إذا

ما أشعل الامبرياليون حرباً عالمية جديدة فانها ستنتهي بفناء الرأسماليـــة ، هذا النظام الاجتماعي الذي تكرهه الشعوب كرهاً شديداً .

الفَصْلُ السَّادِسُ

الاشتراكيـــة

الطور الأول في المجتمع الشيوعي

المرحلة الانتقالية ، لماذا هي ضرورية ؟

كما ان عمارة أو بناية ما يمكن ان تبنى فقط بالمواد التي تتوفر للبناة ، كذلك هي الاشتراكية ، هذا البناء الاجتماعي ، تبنى بالمواد التي يحصل عليها الناس من الرأسمالية . ان الاشتراكية تبنى على أساس منجزات الانتاج والتكنيك ، منجزات العلم والثقافة في الرأسمالية ، وبالناس الذين ترعرع القسم الأكبر منهم وتربى في ظروف الرأسمالية . وفي الوقت نفسه فإن الاشتراكية نظام اجتماعي جديد نوعياً .

ان الاقتصاد القائم على الملكية الخاصة والاستغلال ، والعلاقات الاجتماعية والثقافة الروحية للرأسمالية تخدم مصالح حفنة ضئيلة من الناس هم مالكو وسائل الانتاج ، في حين أن الاشتراكية التي تبنى على أساس الملكيـــة الاجتماعية وعلاقات الصداقة والتعاون المتبادل بين الناس هي مجتمع الشغيلة وللشغيلة .

ان الرأسمالية مجتمع تطور بصورة عفوية ، اما الاشتراكية فانها مجتمع يدار بصورة واعية . ومن الطبيعي ان الاشتراكية لا يمكن ان تبنى بدون تحولات جذرية نوعية لجميع نواحي الحياة الاجتماعية .

ومن المهم ان نشير هنا إلى ان انجاز هذه التحولات يصطدم بمقاومة ضارية من جانب الطبقات المستغلة المسقطة ، وفي مقدمتها البورجوازية .

ومن أجل التغلب على مقاومة الطبقات المستغلة ولانجاز التحولات الاشتراكية في الاقتصاد والعلاقات الاجتماعية والحياة الفكرية ولغرض وضعها في خدمة الانسان الكادح ، من أجل إقامة مجتمع يدار بصورة واعية لصالح الشغيلة ، من الضروري ان توجد مرحلة انتقالية من الرأسمالية إلى الاشتراكية .

ان المرحلة الانتقالية من الرأسمالية الى الاشتراكية هي المرحلة التي تكون فيها البورجوازية مسقطة ، ولكن الرأسمالية لم تضف بعد نهائياً ، والطبقات الاستغلالية التي فقدت السلطة لم تكف عن النضال ضد الطبقة العاملة المنتصرة ، وحيث تتم تحولات اشتراكية عميقة ، ولكن الاشتراكية لم تبن بعد .

كتب لينين يقول : « ان حالة الانتقال من القديم إلى الجديد هي حالة نمو هذا الجديد » . ان المرحلة الانتقالية هي بالضبط مرحلة خلق وبناء المجتمع الاشتراكي ، مرحلة الصراع بين الرأسمالية المحتضرة والاشتراكية الوليدة .

١ ـ القوانين العامة لبناء الاشتراكية وتنوع أشكال هذا البناء

ان تجربة بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي وفي البلدان الاشتراكية

الاخرى تسمح بالتأكيد على ان الطرق والوسائل الاساسية لبناء المجتمع الجديد لها أهمية ثابتة لا تزول . فهذه الطرق والوسائل تكررت وستتكرر كقانون في المستقبل أيضاً في الظروف الخاصة بالبلدان الأخرى التي تسير في طريق البناء الاشتراكي . وهي بهذا تكسب اهمية قوانين عامة للانتقال من الرأسمالية نحو الاشتراكية .

وفي نفس الوقت فان هذه القوانين العامة لا تظهر مطلقاً بصورة واحدة في مختلف الأقطار ، ذلك ان لكل قطر يبني الاشتراكية ظروفه الخاصة التي تختلف عن ظروف البلدان الأخرى — مستوى تطور الاقتصاد والثقافة ، تاريخه الخاص ، الظروف الطبيعية واحتياجات الثروات الطبيعية ، وخصوصاً توازن القوى الطبقية والخصائص القومية ولا سيما التكوين النفسي والتقاليد الشعبية و .. الخ . وفيما عدا هذا فان الظروف العالمية التي تبنى فيهـا مختلف البلدان الاشتراكية ليست متشابهة .

ومن هنا فان لكل بلد خصائصه المميزة للانتقال من الرأسماليـة إلى الاشتراكية . كتب لينين يقول :

« ان جميع الأمم ستصل إلى الاشتراكية ، هذا أمر حتمي ، ولكنها لن تصل بصورة واحدة تماماً ، فان كل أمة ستجلب شيئاً خاصاً بها في هـذا الشكل من الديمقراطية أو ذاك ، في هذا النوع من دكتاتورية البروليتاريا ، أو ذاك ، بهذه الوتيرة أو تلك للتحولات الاشتراكية في مختلف نواحي الحياة الاجتماعية » . وبالتالي فان خصائص بناء الاشتراكية في هذا البلد أو ذاك لا تمس جوهر ، بل أشكال وطرق وسرعة ووتائر وحدة التحولات الاشتراكية . انها لا تلغي مطلقاً القوانين العامة .

والآن لنبحث بتفصيل أكبر وحدة القوانين العامة والأشكال المتنوعـة لبناء الاشتراكية في مختلف البلدان .

دكتاتورية البروليتاريا شرط حاسم لبناء الاشتراكية

ان الشرط الحاسم لبناء المجتمع الاشتراكي هو دكتاتورية البروليتاريا. ان وجود دولة دكتاتورية البروليتاريا هو القانون الأهم لبناء الاشتراكية.

ان دكتاتورية البروليتاريا تنبثق نتيجة الانقلاب الاشتراكي الناجح، على أساس التحطيم التام لماكنة الدولة البورجوازية. انها تمثل دولة من طراز جديد نوعياً، تختلف جذرياً عن جميع الدول السابقة من حيث طبيعتها الطبقية وأشكال التنظيم الحكومي من حيث الدور المدعوة لتنفيذه.

ان جميع انواع الدول السابقة كانت اداة بيد الطبقات المستغِلة، اداة لاخضاع الشغيلة واستهدفت توفير النظام الاستغلالي وتخليد انقسام المجتمع إلى مضطهَدين ومضطهِدين. ان دكتاتورية البروليتاريا هي سلطة الطبقة العاملة، التي تقوم، بالتعاون مع جميع الشغيلة بتحطيم الرأسمالية وبناء مجتمع جديد — مجتمع بدون طبقات متعادية وبدون استغلال.

ما هي المهمات الأساسية التي تقوم بها دكتاتورية البروليتاريا؟

ان الصراع الطبقي لا يتوقف في المرحلة الانتقالية. ذلك ان الطبقات المستغِلة، وفي مقدمتها البورجوازية، التي حرمت من سيطرتها السياسية لا يمكنها ان تقر بهزيمتها وبفقدانها السلطة والامتيازات. ولذا فانها تقاوم بضراوة السلطة الجديدة.

وبالتالي فان دكتاتورية البروليتاريا ضرورية قبل كل شيء، لتحطيم مقاومة الطبقات المستغِلة المخلوعة، ولتعطي الشعب وسائل الانتاج ولتصون وتعزز المكتسبات الثورية ضد مؤامرات الاعداء الداخليين والخارجيين.

تلك هي المهمة الأولى لدكتاتورية البروليتاريا المرتبطة بالعنف تجاه المستغِلين.

غير أن تحطيم البورجوازية ليس هدفاً لذاته بالنسبة للبروليتاريا . ان المهمة الرئيسية هي بناء الاشتراكية ، المجتمع الاشتراكي وقبل كل شيء الاقتصاد الاشتراكي . ان الصعوبة في تنفيذ هذه المهمة تكمن في ان الثورة الاشتراكية تبـــدأ في وقت لا توجد فيه أشكال جاهزة لنظام اقتصادي اشتراكي . ان دكتاتورية البروليتاريا مدعوة بالذات لقيادة الحياة الاقتصادية في المجتمع ، لخلق طراز جديد من الاقتصاد — اقتصاد الاشتراكية القائم على الملكية الاجتماعية ، لخلق طراز جديد من العلاقات الاجتماعية وان تربي الشغيلة بروح الاشتراكية . وليس فقط ان تبني المجتمع الاشتراكي وان تقوده وفق خطة مرسومة سلفاً وانما ان تدافع أيضاً عن منجزاته ضد مؤامرات واعتداءات العناصر الرجعية داخل البلاد والاستعمار العالمي خصوصاً .

تلك هي المهمة الثانية لدكتاتورية البروليتاريا مهمة البناء والادارة .

وفيما عدا هاتين المهمتين الوطنيتين فان على دكتاتورية البروليتاريا أن تقوم بمهمة هامة : أن تقوم بكل الوسائل ، وقبل كل شيء بما تقدمه من مثال للبناء الإقتصادي الناجح ، بمساعدة النضال الثوري لشغيلة البلدان الرأسمالية ، وأن تبدي لها دعماً سياسياً ، مادياً ومعنوياً . وبهذه الطريقة تساعد الدولة البروليتارية تطوير العملية الثورية العالمية من أجل تحطيم الرأسمالية وتوطيد الاشتراكية في العالم أجمع .

ان دكتاتورية البروليتاريا هي طراز نوعي جديد راق من الديمقراطية . ان ديمقراطية الغالبية العظمى من الشعب ، ونستثني من الديمقراطية المستغلين والمضطهدين . ان طراز الديمقراطية الجديد نوعياً في ظروف دكتاتورية البروليتاريا ينبع من نفس طبيعة الدولة البروليتارية ، من الأهداف والمهمات التي تضعها لنفسها . ان البروليتاريا تستطيع أن تحطم مقاومة الطبقـــات المستغلة وان تمسك بالسلطة وتبني الاشتراكية وتؤمن عن هذا الطريق حياة

سعيدة للشعب ، فقط على أساس تحالف متين مع جميع الشغيلة والقوى الديمقراطية وبدعم من الجماهير الشعبية الواسعة . ولذا فان تحالف الطبقة العاملة مع الفئات شبه البروليتارية في المدينــة والقرية ، وقبل كل شيء الفلاحين ، مع ضمان الدور القيادي للطبقة العاملة؛هو المبدأ الاساسي الأسمى لدكتاتورية البروليتاريا ، التعبير الأكمل والأشمل للديمقراطية الحقيقية للدولة البروليتارية .

ان دكتاتورية البروليتاريا تمثل مجموعة من التنظيمات حكوميــة وغير حكومية (حزبية واجتماعية) . وفي مركز هذه المجموعة يقف الحزب الشيوعي الذي يقود عملية بناء الاشتراكية . ان الحزب يقود خلال المرحلة الانتقاليــة ، استناداً إلى معرفة قوانين التطور الاجتماعي ، واعتماداً على التنظيمات الحكومية والاجتماعية ، نضال الشعب ضد الطبقات المستغِلة وينجز التحولات الاشتراكية .

وتتطور صلات الحزب الواسعة الــتي انبثقت في مجرى النضال من الرأسمالية ، بالجماهير الشعبية إلى وحدة بين الحزب والشعب . وفي وحدة الحزب والشعب يكمن السبب الرئيسي لنجاح بناء المجتمع الاشتراكي .

ان وجود دكتاتورية البروليتاريا ودور الحزب الماركسي في الدولة ، كما رأينا الآن ، هما أهم قانون للانتقال من الرأسمالية إلى الإشتراكية . ولكن تبعاً للظروف التاريخية الملموسة لتطور هذا البلد أو ذاك فان أشكال دكتاتورية البروليتاريا يمكن أن تكون مختلفة . ففي البلاد السوفييتية تحققت دكتاتورية البروليتاريا على شكل مجالس مندوبي الشغيلة (السوفييتات) ، وفي العديد من البلدان الاشتراكية على شكل ديمقراطية شعبية .

وخلافاً للدولة السوفييتية حيث وجد نظام الحزب الواحد ، توجد في ظروف الديمقراطية الشعبية عدة أحزاب تتعاون مع الحزب الحاكم ، الحزب الشيوعي ، في بناء الإشتراكية . ان نظام الحزب الواحد في جمهورية

السوفييتات قد أقيم في الظروف الصعبة لوجود دكتاتورية البروليتاريا في بلد واحد ، وفي ظل التطويق الرأسمالي المعادي ، وفي ظروف رفضت فيها الأحزاب البورجوازية الصغيرة (المنشفيك والاشتراكيــون الثوريون « الأيسيريون ») التعاون مع الشيوعيين في بناء المجتمع الجديد وتحولت علناً إلى جانب القوى المعادية للثورة .

ان الفوارق بين السوفييتات والديمقراطية الشعبية لا تبدل جوهر السلطة السياسية ذلك أن السلطة في النظامين تعود للطبقة العاملة . وما من شك في أن التاريخ سيعطي في المستقبل أشكالاً سياسية أخرى للمرحلة الانتقالية من الرأسمالية إلى الاشتراكية . وان طرق توطيد دكتاتورية البروليتاريا يمكن أن تكون مختلفة . ففي البلاد السوفييتيــة توطدت دكتاتورية البروليتاريا مثلاً بقوة السلاح . حيث قامت الحرب الأهلية . وقد حدث هذا لأن البورجوازية المسقطة لم تبادر فقط إلى حمل السلاح ضد السلطة الجديدة بل دعت كذلك الاستعماريين الأجانب للتدخل المسلح . وفي مثل هذه الظروف لم يبق أمام الطبقة العاملة وجماهير الشغيلة غير أن تدافع عن مكتسباتها والسلاح في أيديها .

ولكن وضعاً آخــر نشأ في البلدان الاشتراكيــة الاوروبية . فالقوى الأساسية للثورة المضادة (الفاشست والعناصر المرتبطة بهم) كانت قــد سحقت في مجرى الحرب العالمية الثانية . ولذا لم تكن البورجوازية المسقطة تملك قوى كافية للقيام بمقاومة السلطة الجديــدة مقاومة مسلحة . كما لم تجازف الدول الاستعمارية باشعال نار التدخل العسكري ضد البلدان المتحررة ، ذلك ان هذه البلدان كانت تتمتع بدعم الجيش الأحمر الجبار . ولهذا فإن اقامة دكتاتورية البروليتاريا في هذه البلدان قد تمت دون حرب أهلية .

وقد أوجد شكل خاص لدكتاتورية البروليتاريا في كوبا . فهنــاك لم توجد انتخابات عامة بالمعنى المعروف للكلمة ، ولا توجد أجهزة منتخبة

للسلطة كمجالس مندوبي الشغيلة (السوفييتات) أو أجهزة الديمقراطية الشعبية . ان التحولات الاشتراكية تقوم بها الحكومة الثورية لكوبا التي يقودها الحزب الشيوعي . ان هذا النظام لسلطة الدولة قد انبثق تحت تأثير الظروف الخاصة لتطور الثورة الكوبية وضرورة الدفاع عن الوطن تجاه عدوان الاستعمار الامريكي .

ان القوانين الأساسية والوثائق السياسية لجمهورية كوبا تتخذ نتيجة مناقشة شعبية عامة وكثيراً ما يتم هذا عن طريق التصويت في اجتماعات جماهيرية . ويلتقي رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزراء باستمرار مع الشعب وان كل المسائل الهامة بهذه الدرجة أو تلك تناقش في الصحف والراديو والتلفزيون .

وان مثال كوبا يدل بوضوح على انه لا توجد في الثورة مخططات ثابتة توجد وتبقى حتى الأبد ، وان الثورة هي قضية ملموسة ، حية وخلاقة .

التحولات الاقتصادية

ان الاقتصاد هو أساس الحياة الاجتماعية ولذا فإن التحولات الاقتصادية ، وقبل كل شيء تحويل الملكية الخاصة إلى ملكية اجتماعية ، تكتسب أهمية حاسمة في المرحلة الانتقالية .

ان أهم وسيلة لتوطيد الملكية الاجتماعية هي التأميم الاشتراكي .

ان التأميم الاشتراكي هو انتزاع وسائل الانتاج الأساسية : المصالح ، السكك الحديد ، المراكز الكهربائية ، النقل البحري ، المؤسسات الزراعية والتجارية الضخمة و .. الخ من البورجوازية وجعلها ملكية للدولة البروليتارية . وبهذه الطريقة الثورية تجري إزالة الملكية الكبيرة ، وخلق

الملكية العامة الاشتراكية مكانها . وتوجد أهمية خاصة كبيرة لتأميم الصناعة الكبيرة ، البنوك ، التجارة الخارجية ، ذلك ان الدولة تأخذ عن هـذا الطريق ، بين يديها ، المراكز الحاسمة التي تعطيها امكانيـة التأثير على التطور الاقتصادي في البلاد لصالح الشغيلة ، وتنظيم ادارة الاقتصاد وسائر العمليات الاجتماعية ، وإقامـة انتاج مبرمج ورقابة توزيع للمنتجات ، وضمان الاستقلال الاقتصادي للبلاد عن الرأسمالية .

ونتيجة التأميم يظهر في اقتصاد البـلاد قطاع اشتراكي مؤسس على الملكية الاجتماعية ، قطاع تميزه علاقات انتاجية تسودها الصداقة والعون المتبادل وكذلك أشكال التوزيع الاجتماعية . وفي إطار هذا القطاع يصفى الاستغلال ويجري التغلب على التناقض بين الطابع الاجتماعي للانتاج وشكل التملك الخاص الملازم للمجتمع الرأسمالي ، ويجري التغلب على العفوية في التطور التي تترك مكانهـا تدريجياً لقيادة وتخطيط الاقتصاد . ان الدولة البروليتارية تجد في المؤسسات المؤممة أساساً اقتصادياً متيناً يتوسع ويتوطـد في التقدم نحو الاشتراكية .

وتبعاً للظروف الملموسة فإن التأمـيم يمكن ان يتم بصورة مباشرة أو غير مباشرة عن طريق عدد من الخطوات الانتقالية .

ومن جملة الخطوات الانتقالية نحو التأميم رأسمالية الدولة . ان أشكال رأسمالية الدولة يمكن ان تكون متعددة . فهي تشمل الامتيازات واعطاء المؤسسات بالايجار للرأسماليين ، وإقامة مؤسسات مختلفة تعود للدولة وللمالكين خاصين في نفس الوقت و .. الخ . وفي هذا تكون طبيعتها الاجتماعية الاقتصادية واحدة : انها مؤسسات مكلفة بجذب رأس المال الخاص ، ولكنها توجد دائماً تحت رقابة الدولة البروليتارية وتنفذ رغباتها وتستخدم من قبلها بالتالي لصالح بناء الاشتراكية .

ومن جملة الأشكال الانتقالية نحو التأميم مختلف أنواع الرقابة العماليـة

المفروضة على المؤسسات الرأسمالية من قبل مجموع العمال والمستخدمين العاملين فيها . إن الشغيلة يمارسون الرقابة على تنظيم وادارة الانتاج ، وعلى تشغيل العمال والمستخدمين وانهاء خدماتهم ، وعلى نوعية المنتجات وتوزيعها ، وعلى نظام أجور العمل و .. الخ .

وفي مجرى ممارسة الرقابة العمالية ينهى الشغيلة مدرسة جيدة لادارة الانتاج والتوزيع ويكتسبون خبرة التمويل والرقابة وغيرها .

لقد فرض الشغيلة في روسيا أشكالاً مختلفة من الرقابة على المؤسسات الرأسمالية . واستفاد الشغيلة في البلدان الاشتراكية الأخرى من تجربة الشغيلة الروس الذين نظموا مجالس عمالية ولجان انتاجية في المعامل كانت خطوة هامة في طريق التأميم .

وفي المرحلة الانتقالية أممت أيضاً (بصورة تامة أو جزئية) الأرض العائدة لكبار ملاكي الأراضي والاقطاعيين . فقد أممت في الاتحاد السوفييتي الأرض بكاملها وأعطي الجزء الأكبر منها للفلاحين للاستثمار المجاني الدائم . أما الجزء الآخر فقد استخدمته الدولة لتنظيم المؤسسات الزراعية الحكومية (سوفخوزات) . وفي البلدان الأخرى كانت الأرض قد أممت جزئياً وأعطي جزء منها كملكية للفلاحين .

ان الانتصار التام للنظام الاشتراكي وخلق اقتصاد الاشتراكية يفترضان حتماً تحويل اقتصاد المنتجين الصغار — الفلاحين .

فبأي طريقة يتم توحيد الملكية الاشتراكية في القرية ، في الاقتصاد الزراعي ؟

لأول وهلة تبدو المهمة بسيطة جداً : نقرر تأميم الاستثمارات الزراعية الصغيرة بأن نجعلها ملكاً للدولة ككل . امـا في الواقع فينبغي تجنب القيام بمثل هذا العمل تماماً ، ذلك ان المستثمر الصغير ، الفلاح ،

رغم كونه مالكاً فانه ليس مستغِلاً . انه شغيل ويكسب خبزه بعرقه وجهده .

وطبيعي ان ملكيته يجب ان لا تنتزع ، كما هو الحال مع الرأسمالي الكبير والاقطاعي . وهنا يجب أخذ نفسية الفلاح بنظر الاعتبار ، حيث انه ذو تعلق شديد بقطعة أرضه .

يساهم في الثورة بفعالية فلاحون يملكون أرضاً صغيرة أو بدون أرض وعمال زراعيون بأمل الحصول على أرض وبأمل ان يصبحوا مستثمرين أكثر يسراً ولا يمكن للثورة الظافرة ان تخيب آمالهم . في مجرى الثورة يعطى في العادة جزء هام من أراضي المالكين الكبار السابقين (الاقطاعيين والرأسماليين) كملكية أو للانتفاع ، لاولئك الذين يفلحونها أي للعمال الزراعيين والفلاحين الفقراء والمتوسطين الأمر الذي ينتج عنه ليس تكبير الاستثمارات بل على عكس تفتيتها . ولذا فإن عدد المنتجين الصغار في الزراعة ، ليس فقط لا يقل بعد الثورة ، بل انه يزيد .

وفي كل هذه الظروف فإن الطريق الوحيد الممكن اتباعه لاجراء التحولات الاشتراكية في الريف هو اشاعة التعاونيات في الزراعة عن طريق توحيد الاستثمارات الزراعية الصغيرة الخاصة في القرية اختياراً في استثمارات كبيرة جماعية تسمى « تعاونيات » .

ان الخاصية الأهم للتعاونيات هي جعل العمل ووسائل الانتاج الأساسية اجتماعية . وتبعاً لدرجة اجتماعية العمل ووسائل الانتاج يمكن ان تكون للتعاونيات أشكال مختلفة وان تجربة الزراعة في الاتحاد السوفييتي وسائر البلدان الاشتراكية تعطى ثلاثة أشكال أساسية للتعاونيات :

١ ـ التعاون في فلاحة الأرض فلاحة مشتركة . وهذا هو الشكل الاوطأ ، البدائي للتعاونيات . حيث لا تصبح الأرض ووسائل الانتاج

اجتماعية ، ويقتصر الأمــر على جعل العمل مشتركاً فقط : إذ يتعاون الفلاحون على انجاز هذا أو ذاك من الأعمال الزراعية .

٢ — التعاونية التي يجري فيها جعل العمل ووسائل الانتاج اجتماعيــة في حين تبقى الأرض ملكية خاصة بالفلاحين . ووفقاً لهذا يجري توزيع الدخول حيث يعطى القسم الأكبر للعمل والجزء الأصغر تبعاً لمساحة الأرض التي يملكها عضو التعاونية .

٣ — الارتل الزراعي . هنا تصبح الأرض والعمل ووسائل الانتاج مشتركة والتوزيع حسب العمل هو الشكل الوحيد للتوزيع . وهذا شكل أرقى للمزرعة التعاونية التي تسمى في الاتحاد السوفييتي (كولخوز) .

ونتيجة اشاعــة التعاونيات في الزراعــة تصفى بشكل تدريجي الملكية الخاصة الصغيرة . ومن حيث الجوهر تشبه هذه الملكية ، الملكية الاشتراكية الحكومية ، ذلك انها تلغي الاستغلال وتضمن مبدأ التوزيع حسب العمل . ولكن الملكية التعاونيــة تعود ليس للشعب كله كما هو حال الملكيــة الحكومية ، وإنما لمجموعة من الناس هم أعضاء التعاونية . انها ملكيــة جماعية اشتراكية .

ان جعل العمل ووسائل الانتاج اجتماعية في التعاونية لا يعني تصفية الاستثمارات الشخصية . إذ يبقى كملكية لعضو التعاونية بيته ، وأمتعتــه الخاصة ، والماشية المنتجة ، وبعض أدوات العمل تمكنه من ادارة استثمارية شخصية في منطقة أرض تعطى له لفلاحتها سواء للانتفاع الشخصي أو كملكية .

ان خطة اشاعة التعاونية في الزراعة في الاتحــاد السوفييتي كان قد اقترحها لينين . وكان المبدأ الاساسي في هذه الخطة مبدأ الدخول الطوعي من قبل الفلاحين في التعاونيات . ان لينين والحزب وقفا ضد التشكل الاداري والاجباري للتعاونيات دون رغبة الفلاحين ،وأوضحا اكثر من مرة بأن

جذب الفلاحين إلى التعاونيات يجب أن يتم بطرق الاقناع والتدليل الملموس على أفضليات الاقتصاد التعاوني على اقتصاد الملكية الخاصة ، البضاعي الصغير .

ان الخطة اللينينية للتعاون الاشتراكي تفترض التدرج في التحولات الاشتراكية للقرية والانتقال من الاشكال الواطئة للتعاونيات نحو الاشكال الاعلى ، وتتطلب ان تؤخذ بالحسبان الظروف الملموسة (الجغرافية والاقتصادية والقومية وغيرها) . وتفترض التطبيق الدائب لمبدأ الديمقراطية في ادارة التعاونيات والتوفيق بين المصالح الشخصية والعامة .

وقد أبدى لينين اهتماماً خاصاً بتقديم العون للتعاونيات من جانب الدولة البروليتارية وبتوطيد وتطوير التحالف بين الطبقة العاملة والفلاحين . وذلك بمساعدة التعاونيات بتجهيزها بالتكنيك والاستفادة من منجزات العلم الزراعي وفي تنظيم اعمار الارض وارروائهـا وغير ذلك من الاجراءات وبالتطوير الشامل للتجارة الحكومية والتعاونية بين المدينة والقرية تساعد الدولة البروليتارية على زيادة الانتاج الزراعي وتحسين اوضاع الفلاحين . والفلاحون اذ يتحسسون المساعدة اليومية والدعم من جانب الطبقة العاملة الموجودة في السلطة ، فانهم سيؤيدونها باقتناع عميق وبثقة ويصبحون مساهمين فعالين في بناء الاشتراكية .

لقد كان لاشاعة التعاونية تأثير ايجابي جداً على تطور الاقتصاد الزراعي . فقد دعمت الزراعة واعطت مجالاً لتزويدها بالمكائن والتكنيك والاستفادة من منجزات العلم وخلقت امكانية الاستخدام الاكثر عقلانية لقوة العمل ولتوحيد وسائل الانتاج . وفيما عدا هذا ونظراً لتطور الملكية الاشتراكية اصبح الاقتصاد الزراعي منظماً وانخرط في ميدان التخطيط والقيـادة التي تشمل مجموع البلاد . اذ لا يمكن عملياً ان تدار بوعي الاستثمارات الزراعية الفردية الصغيرة المتطورة بشكل عفوي ، ولا ان يخطط نشاطها . ونتيجة لاشاعة التعاونية زاد انتاج المحاصيل الزراعية . فاذا اخذنا مثلاً مجموع الانتاج الزراعي في روسيا عام ١٩١٣ على اعتباره ١٠٠٪ فسنجد انه اصبح

عام ١٩٤٠ في الاتحاد السوفييتي (بعد الانتهاء من اشاعة التعاونيات) ١٤١٪ . مع ان عدد العاملين في الزراعة من سكان الريف قد قل بشكل ملحوظ نتيجة التطور العاصف في الصناعة .

والى جانب الجمعيات التعاونية (الكولخوزات) نظمت في القرى مزارع حكومية كبيرة (سوفخوزات) تعود ملكيتها للشعب كله .

وبتجميع الاستثمارات الزراعية في تعاونيات وتنظيم السوفخوزات سد الطريق على التمايز الاجتماعي بين الفلاحين الذين كان يحولهم الى فلاحين فقراء ومتوسطين واغنياء (كولاك) وانتفى وجود وحتى امكانية ظهور عناصر ذات ملكية رأسمالية في الريف كالكولاك والتجار . وبهذه الطريقة تعززت الاشتراكية في القرية ايضاً أي في الزراعة . ان طريقة الانتاج الاشتراكية لم تعد قطاعاً واحداً في الاقتصاد بل تحولت الى نظام اقتصادي اشتراكي وحيد يشمل جميع فروع الاقتصاد ، وجرى التوصل الى احراز نصر اقتصادي كامل للاشتراكية .

ومما له أهمية بالغة باعتباره شرطاً ملزماً وأساساً لبناء الاشتراكية ، وخصوصاً في البلدان ذات التطور الصناعي الضعيف او غير الكافي هو التصنيع الاشتراكي أي اقامة صناعة كبيرة حديثة مبنية على احدث منجزات العلم والتكنيك .

ان التصنيع وتطوير الصناعة الثقيلة هو القاعدة الاساسية لبناء المجتمع الاشتراكي الذي يقام في المرحلة الانتقالية من الرأسمالية الاشتراكية . كتب لينين يقول : « ان الاساس المادي الوحيد للاشتراكية يمكن أن يكون الصناعة الكبيرة للمكائن القادرة على اعادة تنظيم الزراعة أيضاً .

ان التصنيع الاشتراكي يضمن التطور العلمي – التكنيكي المستمر للاقتصاد والارتفاع الدائم لانتاجية العمل ، وارتفاع تزوده بالتكنيك وتحسين ظروف النشاط العملي . انه يضمن اعادة بناء جميع فروع الاقتصاد الوطني على

أحدث قاعدة تكنيكية ، وتقدم العلم والتكنيك والثقافة ، وتحقيق وتوطيد قدراتها الدفاعية ضد القوى الرجعية الامبريالية .

كما ان للتصنيع الاشتراكي أهمية سياسية داخلية كبيرة . فبتطور الصناعة الكبيرة تنمو الطبقة العاملة ، ويتعاظم دورها وأهميتها في الحياة الاجتماعية وتأثيرها على الطبقات والفئات الاجتماعية الاخرى . وهذا يعني ان التصنيع يوسع ويوطد ليس الاقتصاد فحسب بل والقاعدة السياسية للدولة البروليتارية ويعزز مواقع القوى الاجتماعية الاشتراكية .

ومن المهم أن نبين أن التصنيع الاشتراكي يختلف جذرياً من حيث أشكاله وطرقه عن التصنيع الرأسمالي . ان التصنيع الرأسمالي يتحقق عن طريق استغلال الشغيلة وسرقة شعوب البلدان الاخرى الضعيفة التطور . أو عن طريق أخذ الغرامات الحربية من الشعوب المغلوبة . أما التصنيع الاشتراكي فيتم قبل كل شيء عن طريق التراكم الداخلي الذي يحقق عن طريق زيادة انتاجية العمل ، وادارة الاقتصاد بشكل مبرمج والاقتصاد الشديد في النفقات والاستخدام العقلاني للموارد المادية والبشرية والمالية .

كما أن أهداف التصنيع الاشتراكي تختلف بشكل مبدئي . فبينما يستهدف التصنيع الرأسمالي حصول الرأسماليين على أكبر الارباح الممكنة ، يخضع التصنيع الاشتراكي في النهاية للهدف الانساني وهو خدمة الانسان الشغيل وتأمين حاجاته وتطوره الشامل .

وطبيعي أن التصنيع ليس بالأمر السهل . اذ يتطلب من الشعب جهوداً هائلة وموارد كبيرة وكثيراً ما يرتبط بصعوبات معينة وحرمانات . وقد كان صعباً ، بوجه خاص ، بالنسبة للناس السوفييت الذين كانوا أول من مهد طريق الاشتراكية أمام البشرية . لقد كانت البلاد متأخرة ، ومحطمة جراء الحرب العالمية الأولى . يحيطها الاعداء من كل جانب ، ويحاولون اعاقة البناء الاشتراكي بكل الطرق ، من الحصار الاقتصادي حتى التدخل

المسلح . وقد كانت روسيا السوفييتية محرومة من امكانية أخذ القروض ، لأن الاستعماريين معتـادون على تقديم النقود فقط مقابل فقدان الاستقلال السياسي ، الأمر الذي لم يكن من الممكن أن يوافق عليه العمال والفلاحون . فما لهـذا طردوا رأسمالييهم ، ولا لكي يقعوا تحت عبودية رأسماليي ما وراء البحار .

لقد كان هناك مخرج واحد : هو أن نعتمد على أنفسنا فقط ، على ارادة وحيوية وعمل الشعب الثوري . لقد كان صعباً على الناس السوفييت ، واضطروا أحياناً للحرمان من أشياء كثيرة ، ولكنهم تحملوا وأقاموا صناعة من الدرجة الأولى واستمروا في تطويرها وتحسينها .

ان التصنيع بدل وجه البلاد السوفييتية إلى درجة هائلة . فقد أنشئت فروع صناعية جديدة بكاملها ، وشبكة كثيفة من السدود والمعامل والمحطات الكهربائية تغطي البلاد . ان المنتوج العام للصناعة كلها زاد عام ١٩٤٠ ٨,٥ مرة بالنسبة لعام ١٩١٣ أما الصناعة الثقيلة فقد زادت ما يقارب ١٢ مرة ، وانتاج الطاقة الكهربائية ٢٢٥ مرة . وبدأت البلاد التي كانت تستورد المكائن من الخارج ليس فقط بانتاج المكائن والمعدات الحديثة بل وبتصديرها أيضاً . ان نجاحات التصنيع مكنت من اقامة اقتصاد زراعي تعاوني كبير وضمان تزويده بتكنيك عصري وزيادة رخاء الشعب وتقوية دفاع البلاد .

كما حققت البلدان الاشتراكية الاخرى نجاحات هامة في طريق التصنيع . فقد تطور الانتاج الصناعي في هذه البلدان ، وتطورت بشكل خاص الفروع التي هي أساس الاقتصاد الوطني والتي تضمن التقدم التكنيكي (الطاقـة الكهربائية بناء المكائن الصناعية الكيميائية وغيرها) . ان الحصة النسبية لهذه الفروع في انتاج الصناعة بمجموعها من عام ١٩٥١ حتى عام ١٩٦٥ قد زاردت : في بلغاريا من ١٣,٧٪ إلى ٢٢,٣٪ ، وفي المانيا الديمقراطية من ٣٨,٣٪ إلى ٥١,٢٪ ، وفي منغوليا من ٤,٦٪ إلى ١١,٧٪ ، وفي

بولونيا من ١٤,٤٪ إلى ٣٥,٩٪، وفي رومانيا من ١٨,٦٪ إلى ٤٠,٨٪ ، وفي هنغاريا من ٣٢,٥٪ إلى ٣٨,٣٪ ، وفي جيكوسلوفاكيا من ٢٣,٢٪ إلى ٤١,١٪ .

وكقوانين عامة في بناء الاشتراكية فان التأميم واشاعة التعاونية في الزراعة وكذلك التصنيع قد تمت بطرق مختلفة في البلدان التي سارت في طريق التطور الاشتراكي . ففي الاتحاد السوفييتي جرى التأميم في فترة قصيرة جداً – حيث جرى تأميم جميع وسائل الانتاج خلال بضعة اشهر (من كانون أول (ديسمبر) ١٩١٧ حتى حزيران (يونيو) ١٩١٨) .

ولم تنتشر هنا الاشكال الانتقالية على نطاق واسع ، خصوصاً رأسمالية الدولة . وذلك بسبب ان البورجوازية لم ترغب في قبول هذه الاشكال وخربت بكل الطرق اجراءات السلطة السوفييتية . اما في بلدان الديمقراطية الشعبية فقد جرى التأميم في بحر عدة سنوات . فقد صودرت في هـذه البلدان قبل كل شيء المشاريع العائدة للمتعاونين مع المحتل النازي ، ومن ثم أممت بالتدريج المشاريع الاخرى . وقد انتشرت هنا بكثرة أشكال متعددة لرأسمالية الدولة وخصوصاً المشاريع المختلطة . وفي العديد من البلدان اعطيت لأصحاب المؤسسات السابقين تعويضات عن المشاريع المصادرة ، في حين لم يعط شيء من هذا القبيل في البلاد السوفييتية .

وقد تنوعت ايضاً أشكال التحويل الاشتراكي للريف في البلدان المختلفة . ففي جيكوسلوفاكيا مثلاً أقيمت أربعة أشكال للتعاونيات الزراعية تختلف من حيث درجة اشاعة الجماعية في وسائل الانتاج والعمل . وفي كوبا ، حيث تنتشر كثيراً الزراعة الكبيرة لقصب السكر والمحاصيل الاخرى ، أقيمت مزارع حكومية كبيرة ، ملكاً للشعب ، تعطي اليوم أكثر من ثلاثة ارباع محصول قصب السكر وكل انتاج المحاصيل الفنية ونصف الماشية الكبيرة ذات القرون .

ان ظروف بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي ، وخصوصاً واقع أن هذا البناء قد تم في بلد واحد ، مطوق من قبل الدول الاستعمارية المعادية ، تطلبت من النـــاس السوفييت ان يزيدوا وتائر التصنيـع وان يطوروا كل الفروع الأساسية في الصناعة . لأنه فقط بالتغلب على التأخر بخلق صناعة حديثة ، وتقوية دفاع البلاد على هذا الأساس أمكن مواجهة قوى الاستعمار العدوانية . وبالارتباط مع هذا ، كما قلنا سابقــاً ، توجب على الناس السوفييت أن يعانوا مصاعب جدية وحرمانات . اما بلدان الديمقراطية الشعبية فقد كانت بعيدة عن هذه المصاعب إلى حد كبير . فلم يتوجب عليهــا ان تزيد وتائر التصنيع ، ولا ان تطور كل فروع الصناعة ، ذلك انها كانت تستطيـع الاستفادة من أفضليات التوزيـع الاشتراكي للعمل وتجربة الاتحاد السوفييتي ، وان تعتمد على مساعدته والمساعدة المتبادلة فيما بينها .

اعادة بناء العلاقات القومية

ان احدى المهمات الهامة في المرحلة الانتقالية هي إعادة بناء العلاقات القومية اشتراكياً . ان حل هذه المسألة في بلد متعدد القوميات ، حيث توجد إلى جانب القومية المسيطرة قوميات خاضعة ومضطهدة له أهميــة كبيرة جداً . هكذا كان الحال في روسيا التي كانت تعيش فيها عشرات القوميات الكبيرة والصغيرة .

ان المجتمع الرأسمالي القائم على أساس الملكية الخاصة والاستغلال هو في الوقت نفسه مجتمع الاضطهـــاد القومي ، مجتمــع استعباد بعض الأمم لأمم أخرى . ومن هنا تنبثق مهمة الثورة الاشتراكية في القضاء ليس على الاضطهاد القومي الذي هو مــلازم حتمي للاضطهـــاد الاجتماعي . ان الاشتراكية إذ تضع حداً نهائياً للاستغلال والعداء بين الطبقات تضع نهاية للاضطهاد القومي والعداء بين القوميات وتضمن ازدهاراً حقيقياً وثقــة

متبادلة وتقارباً بين الشعوب .

كتب ماركس وانجلز في « بيـان الحزب الشيوعي » : « بنفس الدرجة التي تتم بها إزالة استغلال جماعة لأخرى ، تتم كذلك إزالة استغلال أمة لأخرى .

« وبزوال التناحر بين الطبقات داخل الأمة نفسها ستزول العلاقات العدائية بين الأمم » [1] .

لقد أعد لينين برنامجاً ملموساً لحل المسألة القومية ، برنامجـاً لازدهار وتقارب الأمم . ديمقراطية تامة في الحياة الاجتماعية ، إقامة مساواة حقيقية بين جميع الأجناس والقوميات ، وإعطاء الأمم حقها في تقرير المصير ، بما فيه تشكيل دول مستقلة ، التلاحم الأممي للطبقة العاملة من جميع القوميات في البلاد . تلك هي المبادىء الأساسية لهذا البرنامج . ان البرنامج اللينيني المشبع باحترام الشعوب كبيرها وصغيرها ، وبالاهتمام العميق بأكثر حاجاتها ومطامحها صميمية ، قـد ساعد على توحيد العمال والفلاحين في القوميات العديدة في روسيا في تحالف، متين بقيادة الطبقة العاملة ، تحالف أصبح واحداً من العوامل الهامة لانتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى .

ان « بيان حقوق الشعوب في روسيا » الذي أقرته الحكومة السوفييتية (في ١٥ تشرين ثاني – نوفمبر – ١٩١٧) أعلن إقامة مساواة سياسية وقانونية لكثير من الأمم والقوميات . ولكن مسألة تحرير الأمم لا يمكن أن تقتصر فقط على تصفية الاضطهاد القومي ، واعلان المساواة بين الأمم في الحقوق السياسية والقانونية . فلقد كان الأمر الرئيسي هو التغلب على تأخرهـا الاقتصادي والثقافي المزمن ، الموروث عن روسيا ذات الحـكم المطلق . ان الدولة السوفييتية الاشتراكية قد حلت هذه المهمة أيضاً بنجاح .

---

١ ماركس وانجلز – المؤلفات ، ج ٤ ، ص ٤٤٣ .

إذ انها أعطت الأمم المستعبدة في السابق ليس فقط الحق في التطور الحر وإنما ساعدتها أيضاً في التغلب على تأخرهـــا وتحقيق خطوات جبارة في تطورها الاقتصادي والثقافي .

ان الحزب الشيوعي والحكومة السوفييتية بعد أن انهيا اصلاح الاقتصاد الوطني الذي خربته الحرب الاستعمارية والأهلية شرعا فوراً بانتهاج سياسة تصنيع الجمهوريات القومية .

وبفضل الرعاية الدائمة من جانب الحزب والدولة ، والمساعدة النزيهة من جانب الأمم الأخـــرى ، وفي مقدمتهـــا الشعب الروسي اقيمت في الجمهوريات المتأخرة سابقاً فروع جديدة في الصناعة ، وتم تحقيق وتائر لم يسبق لها مثيل في تطورها . وتبدلت بشكل هائل زراعة الجمهوريات القومية . إذ أصبحت زراعة جماعية ذات مكننة عالية .

وعلى أساس من تطور الاقتصاد في الجمهوريات السوفييتية نمت كوادر مختصة وطنية ونشأت فئة مثقفين كبيرة العدد . ان شعوب الاتحاد السوفييتي حققت ليس فقط انقلاباً عميقاً في حياتها الاقتصاديـــة وإنما انجزت أيضاً ثورة ثقافية .

ان جميع جمهوريات الاتحاد السوفييتي أصبحت جمهوريات خالية من الأمية . فقد اقيمت فيها مدارس كثيرة ومعاهد دراسية عليا ومؤسسات للبحث العلمي والثقافي . وقد ازدهرت فيها ثقافـــة جديدة ، اشتراكية المضمون ، قومية الشكل .

ان الجمهوريات السوفياتية القومية تركت وراءها ، من حيث التطور الثقافي ، ليس فقط البلدان الرأسماليـــة في الشرق ، بل وبعض الدول الرأسمالية في الغرب أيضاً .

وبالتالي ، ففي مجرى بناء الاشتراكيـــة تحولت أطراف روسيا التي

تسكنها القوميات المضطهدة المتأخرة اقتصادياً وثقافياً ، والتي كانت توابع زراعية وللمواد الخام للقيصرية الروسية ، تحولت إلى دول اشتراكيــة متقدمة ذات سيادة ، تمتلك صناعة متطورة تطوراً عالياً وزراعة غنية ، ولها طبقتها العاملة الخاصة بها ومثقفوها الكثيرون .

ان الشعوب التي كانت متأخرة في السابق قد تحولت نوعيــاً إلى أمم اشتراكية توحدها المصالح المشتركة ، الاقتصادية والسياسية والثقافيـــة في اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية . وفي ايديولوجية هذه الأمم ترسخت بقوة ايديولوجية الأممية البروليتارية .

ان منجزات الاتحاد السوفييتي في حل المسألة القومية هي أكبر ممـــا ذكرنا ، ذلك ان العديد من الشعوب العائشة في روسيا ، سارت في طريق التطور الاشتراكي متجاوزة مرحلة الرأسمالية . ففي مجرى حياة جيل واحد في ظروف دكتاتورية البروليتاريا نجحت في اجتياز الطريق من العلاقات الاقطاعية — وحتى ما قبل الاقطاعية — إلى الاشتراكية .

ان الحل الناجح المنسجم مع مصالح شعوب الاتحاد السوفييتي ، للمسألة القومية التي هي واحدة من أعقد المسائل في تطور البشرية ، إنمـــا هو مظهر واضح لانتصار أفكار وتعاليم الاشتراكية ، أفكار الأممية البروليتارية .

ان تجربة البناء القومي في الاتحاد السوفييتي تشير باقناع إلى أن الثورة الاشتراكية تخلق الظروف لتصفية الاضطهاد القومي تصفية تامة ، وللتوحيد الاختياري لشعوب حرة متساوية في دولة واحدة ، من أجــل الازدهار السياسي وتقارب الأمم . وأن هذه التجربة تستخدم اليوم وتغنى من قبل بلدان النظام الاشتراكي العالمي لحل المسألة القومية سواء في كل بلد على حدة أو في إطار أسرة الأمم الاشتراكية ككل . وقد حلت المسألة القومية بنجاح في الدول التي تحوي أكثر من قومية مثل جيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا ، فعلى أساس من الاشتراكية ، سارت في هذه البلدان عملية تطور وتقارب

الأمم والشعوب التي خلقت ، بعملهـا المشترك مجتمعاً جديـداً وارتقت باقتصادها وثقافتها . ان هذه التجربة الغنية لها أهمية كبيرة أيضاً لشعوب الدول القومية الفتية ذات السيادة ، المتحررة من النير الكولونيالي ، وللشعوب التي تشن النضال من أجل تحررها من الكولونيالية . فنجاحات شعوب الاتحـاد السوفييتي بالنسبة لها مصدر الهام وقوة في نضالهـا الصعب ضد الامبريالية والكولونيالية . وهي ترى في حاضر الأمم الاشتراكية مستقبلها .

الثورة الثقافيـة

ان الثورة الثقافيـة التي هي قانون هام للانتقال من الرأسماليـة إلى الاشتراكية ليست سوى خلق ثقافة اشتراكية جديدة ذات جوهر طبقي بروليتاري بدلاً من الثقافة البورجوازية القديمة .

وفي هذا المجال لا تنبذ البروليتاريا الظافرة الثقافة البورجوازية عندما تخلق ثقافتها الجديدة ، إنما تأخذ أحسن منجزاتها وتصوغها مجدداً بروح انتقادية ، وتضعها في خدمة الشعب كله . فباستيعاب تراث الماضي الثقافي وإعادة صياغته بروح انتقادية يمكن خلق الثقافة الاشتراكية . وممـا هو مميز ان الطبقة العاملة لا ترث ، بصورة بسيطة ، منجزات الماضي الثقافية وإنما تعيد صياغتها وتطورها وترفعها إلى مستوى جديد .

ان الطرق الملموسة لخلق الثقافة الاشتراكية ومحتوى الثورة الثقافية هي استيعاب ثقافة الماضي وإعادة صياغتها بروح انتقادية ، واستخدام تجربة ومعارف فئة المثقفين القديمة لصالح المجتمع الجديد وإعادة تربية جمهورها الأساسي لصالح الشعب ، من جهة ، والتثقيف الجماهيري الشامل والتعليم وخلق فئة مثقفين شعبيين ، وتربية الانسان وتحويله إلى مساهم فعال في بناء الاشتراكية ، من جهة أخرى

وان المهمة الرئيسية للثورة الثقافية هي جعل الثقافة شعبية حقاً . ولتحقيق هذا من الضروري أولاً ، جعل جميع القيم الثقافية وكل منجزات العلم والفن في متناول الشعب كله . ثانياً ، رفع مستوى جماهير الشغيلة كلها ثقافياً وتعليمياً بصورة حازمة وفسح المجال رحباً امام المواهب الشعبية من أجل الأزدهار الكامل لقوى الشعب الخلاقة .

ان الثورة الثقافية ضرورية سواء في بلد متقدم ثقافياً أو متأخر . وحتى في اكثر البلدان الرأسمالية تطوراً فـان جزءاً كبيراً من السكان ، من الشغيلة في العادة ، محرومون من امكانية الاستفادة من منجزات الثقافة . ونصيبهم الكدح لصالح الطبقة المسيطرة . ان الطبقة المسيطرة اذ تحتكر النشاط الثقافي والعمل الذهني تحد من التطور الثقافي للشغيلة وتبقيه في الحد الأدنى الضروري لتنفيذ الوظائف الانتاجية المحددة . اما فيما يتعلق بالبلدان المتخلفة فان ضرورة الثورة الثقافية اكثر وضوحاً .

وينبغي ان لا نتصور الثورة الثقافية كحدث مفاجيء سريع . انها عملية مستمرة تتطلب فترة مستمرة من الزمن طويلة كانت أم قصيرة ، وعملاً دؤوباً شاقاً ، وتنظيماً حاذقاً . ان قضايا اعـادة البناء الثقافي للمجتمع لا يمكن ان تحل بالمراسيم فقط . فهنا لا بد من ان تدرك الجماهير الشعبية ضرورة التطور الثقافي وان يستخدم طموحها للمعرفة والثقافة بصورة تامة وبالاتجاه الصحيح . ولا بد لخلق الثقافـة الاشتراكية من قاعدة مادية . وهذه القاعدة تنبثق ، بالضبط ، في مجرى اعادة البناء الاشتراكي للاقتصاد وفي مجرى التأميم والتصنيع واشاعة التعاونية في الزراعة .

ان الدولة البروليتارية تؤمم ، اي تحيل الى ملكية الشعب كله جميع مؤسسات الثقافة وكل وسائل التأثير الفكري على الناس : المسارح والمتاحف والسينمات والراديو والصحافـة و ... الخ ، وتبني أيضاً مؤسسات ثقافية جديدة . انها تأخذ بين يديها التعليم وتربية الشغيلة ، وتقوم باعادة تنظيم

جذرية للتعليم العام والاختصاصي (المتوسط والعالي) والمدارس وتجعلها في خدمة الشعب . وبهذه الطريقة تنفتح امـــام الفئات الواسعة من الشغيلة امكانيات لم يسبق لها مثيل لاستيعاب منجزات الثقافة الانسانية ولرفع تعليمها العام والاختصاصي .

ان نظريـي الاممية الثانية الانتهازيين زعموا يوماً انه بدون الوصول الى مستوى معين في الثقافة وبدون وجود كوادر مثقفة كافية يتوجب عـــلى الطبقة العاملة ان لا تستلم السلطة . ذلك ان الجماهير الشعبية «غير المثقفة» لا يمكن ان تقود الدولة ولا ان تضمن بناء المجتمع الاشتراكي .

ان لينين ، اذ فضح الانتهازيين ، برهن بشكل مقنع بأن على بروليتاريا ان لا تتأخر في أخذ زمام السلطة ، اذا ما نضجت المقدمات الضرورية لذلك ، وتعمل بعد ذلك باستمرار عـــلى رفع المستوى الثقافي للشغيلة . واكثر من هذا فان دكتاتورية البروليتاريا تخلق انسب الظروف لذلك .

وعلى هذا المنوال بالضبط سلك العمال وجماهير الشغيلة في روسيا وفي العديد من البلدان الأخرى . فهم لم ينتظروا مستوى الشعب الثقافي ليرتفع الى مستوى غير معروف أبداً ، ضروري من وجهة نظر الانتهازيين ، لأخذ السلطة . واكثر من هذا فانه يتوجب عليهم ان ينتظروا طويلاً والى ما لانهاية ، لأن الرأسماليين قد عملوا كل شيء ممكن ، لابقاء الشعب في ظلام الجهل : ذلك ان الاميين والجهلاء اسهل على الاستغلال .

ان الطبقة العاملة في تحالف مع جماهير الشغيلة في روسيا اخذت السلطة في بلد متأخر ثقافياً ، بلد كان الجزء الأكبر من سكانه اميين وكان التعليم والثقافة في هوة سحيقة . وعندما اخذت الطبقة العاملة السلطة عملت كل ما هو ممكن للقضاء على التخلف الثقافي في البلاد ولرفع المستوى الثقافي للشعب .

في حوالي عام ١٩٣٧ اي في الوقت الذي انتهت فيه المرحلة الانتقالية،

صفيت الامية في الاتحاد السوفييتي من وجهة أساسية . فقد غطيت البلاد بشبكة كثيفة من المدارس ومعاهد الاختصاص العليا والمتوسطة ، والمكتبات ودور المطالعة والمتاحف والمسارح والنوادي وغيرها من المؤسسات الثقافية . ويكفي ان نذكر ان عدد المتعلمين في مدارس التعليم العام قد زاد خلال هذه المرحلة ٣٫٥ مرة . وقد عملت الدولة البروليتارية الشيء الكثير لتثقيف وتعليم شعوب القوميات المتأخرة في اطراف روسيا .

وتحققت نجاحات جديدة للثورة الثقافية في البلدان الاشتراكية الاخرى . ففي بولونيا البورجوازية كانت نسبة الاميين ٢٣٪ ، وفي رومانيا ٤٣٪ وفي بلغاريا ٢٣٪ وهكذا .. اما الآن فقد صفيت الامية تقريباً في جميع البلدان الاشتراكية ، وقد تم هذا في فترة قصيرة جداً — أي في سنتين أو ثلاث لا اكثر . لقد بذل الكثير من الجهود من أجل جعل منجزات الثقافة في متناول ملايين الشغيلة واقيم نظام للتعليم العام والاختصاصي في خدمة الجميع وتكونت مرتبة مثقفين شعبية حقاً . ان الكثير من البلدان الاشتراكية قد تجاوزت البلدان الرأسمالية المتطورة من حيث عدد الطلبة في المعاهد العليا . ففي المانيا الغربية مثلاً يوجد كمعدل ، من بين كل عشرة آلاف من السكان ٢٤ طالباً . وفي فرنسا ٣٤ في حين يوجد في بولونيا ٤٣ طالباً .

وتم اليوم بفعالية اشهر عملية للتقارب بين الثقافات الاشتراكية ، ويبدو واضحاً الميل نحو توثيق الأواصر الروحية بين بلدان الاسرة الاشتراكية على أساس الماركسية اللينينية . ويحرز النظام الاشتراكي في ميادين الابداع والفكر انتصارات جديدة على النظام الرأسمالي .

وهكذا نرى ان القوانين العامة لبناء الاشتراكية تأخذ طابعاً خاصاً في البلدان الاشتراكية . وقد تأكد هذا الاستنتاج لدى بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي وفي سائر البلدان الاشتراكية . ان الثورات الاشتراكية في

اوروبا وآسيا وفي كوبا كانت تكراراً خاصـاً لتلك القوانين الأساسية ، التي ظهرت لأول مرة في مجرى الثورة في روسيا . ان تطوير واغناء هذه القوانين العامة ، والمهارة في تطبيقها في الظروف الملموسة لبناء الاشتراكية في مختلف البلدان ، والنضال المتواصل ضد الجمود العقائدي والتحريفية ، وضد التطرف سواء في النظر للقوانين أو للظروف الملموسة ، هي مقدمات ضرورية لنجاح البناء الاشتراكي .

٢ ـ المجتمع الاشتراكي

ان الاشتراكية كمجتمع للمرحلة الانتقالية من الرأسمالية الى الشيوعية تمثل الطور الأول ، الأدنى من الشيوعية ، الذى له ملامحه الخاصة . ولكن قبل الحديث عن الاشتراكية يجب ان نأخذ ، ولو فكرة أولية ، عن طوري المجتمع الجديد ، عن الشبه والاختلاف بينهما .

الاشتراكية والشيوعية طورا المجتمع الجديد

الاشتراكية والشيوعية همـا الطور الأول والثاني في المجتمع الجديد ، الشيوعي . انهما يبنيان على قاعدة مادية ـ تكنيكية متطورة تطوراً عالياً، وان اساسهما الاقتصادي الراسخ هو الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج والغاء استغلال الانسان للانسان .

ونظراً لانتفـاء الملكية الخاصة والطبقات المستغِلة واضطهاد الانسان للانسان في الاشتراكية والشيوعية فـان العلاقات الانتاجية في الاثنتين هي علاقات تعاون اخوي ومساعدة متبادلة .

ففي الاشتراكية والشيوعية يسري قانون التطور المبرمج ، المتناسب للاقتصاد الوطني . وان هدف الانتاج الاجتماعي هو التأمين الأكمل فالأكمل لحاجات الشغيلة المادية والثقافية . وان وسيلة تحقيق هذا الهدف في الاشتراكية والشيوعية هي التطوير المستمر والاتقان الدائب للانتاج على أساس التكنيك الراقي .

ان الاشتراكية والشيوعية تتميزان بعلاقات الصداقة والتعاون بين الشعوب ، والحفاظ على السلم وتوطيده هما أساس العلاقات بين شعوب البلدان الكبيرة والصغيرة . وفي الاشتراكية والشيوعية لجميع أعضاء المجتمع الحق في العمل حسب قابلياتهم ، وفي الاثنتين تتأكد الوحدة بين الفرد والمجتمع وتسود ايديولوجيا واحدة هي الايديولوجيا الشيوعية .

ان كلاسيكيي الماركسية – اللنينية ، آخذين بنظر الاعتبار الملامح الجديدة المشتركة بين الاشتراكية والشيوعية نظرا اليهما كشكلين مختلفين (درجتان في التطور) لمجتمع واحد هو المجتمع الشيوعي . كتب لينين عن الاشتراكية يقول : « ما دامت وسائل الانتاج قد أصبحت ملكية عامة ، فإن كلمة « شيوعية » ملائمة هنا ، إذا لم ننس ان هذه ليست « شيوعية كاملة » [١] .

ان الاشتراكية هي شيوعية غير كاملة ، غير متطورة ، ذلك لأنهما نمت مباشرة عن الرأسمالية ، وتبنى بما يورث عن الرأسمالية ، ومن الطبيعي تماماً ان تحافظ على آثار ، « آثار ولادة » من هذا المجتمع السابق . من ذلك مثلاً بقايا توزيع العمل السابق ، فقدان المساواة الاقتصادية التامة ، بقايا الماضي في وعي وسلوك الناس و .. الخ .

ان الشيوعية هي الطور الأعلى ، الأرقى للنظام الشيوعي . إذ يصل الانتاج

---

١ لينين – المؤلفات ، ج ٣٣ ، ص ٩٨ .

الممكن درجة عالية والمؤتمت في الشيوعية مستوى رفيعاً جداً من التطور .

وان مستوى انتاجية العمل والانتاج سيكون عالياً إلى درجة تمكن من الانتقال من المبدأ الاشتراكي للتوزيع : « من كل حسب طاقته ولكل حسب عمله » إلى المبدأ الشيوعي الجديد نوعيــاً وهو « من كل حسب كفاءته ولكل حسب حاجته » . وسيتبدل طابع العمل أيضــاً بصورة كبيرة . إذ سترتفع لدى كل عضو من أعضاء المجتمع الحاجة الداخليــة اختياراً وسيعملون وفقاً لميولهم من أجل خير المجتمع .

وبانتصار الشيوعية ستحدث تغيرات جدية ليس في الاقتصاد فحسب ، بل في العلاقات الاجتماعية أيضاً ، في حيــاة الناس ووعيهم . وستزول الفروق الجوهرية بين المدينة والقرية ، وبعد ذلك بين العمل الجسدي والفكــري ، وسيتحول جميع المواطنين إلى شغيلة المجتمع الشيوعي . وستزول ، في ظل الشيوعية ، الدولة وسيتطور النظام الاشتراكي إلى ادارة ذاتية اجتماعية شيوعية ، وسيجري التغلب كلياً على بقايا الرأسمالية في وعي الناس ، وستتبدل طريقة حياتهم ومعيشتهم .

يقول برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي : « ان الشيوعيــة هي نظام اجتماعي لا طبقي يقوم على ملكية الشعب العامة لوسائل الانتاج ، ومساواة اجتماعية تامة بين جميع أعضاء المجتمع حيث إلى جانب التطور الشامل للناس ستنمو القوى المنتجة على أساس العــلم والتكنيك المتطورين باستمرار ، وحيث ستتفجر جميع مصادر الثروة الاجتماعية كالتيار وسيتحقق المبدأ العظيم « من كل حسب كفاءته ولكل حسب حاجاته » . ان الشيوعية مجتمع ذو تنظيم عال لشغيلة أحرار واعين ، تتوطد فيه الادارة الذاتيــة للمجتمع ، ويصبح العمل لخير المجتمع بالنسبة للجميع حاجــة حيوية أولى ، وضرورة مدركة ، وستوضع كفاءات كل فرد في خدمة الشعب .

ومن أجل انجاز مثل هذه التحولات النوعية العميقة ، لا بد من وقت ،

وبشكل رئيسي لا بد من مقدمات مادية واجتماعية وروحية : قاعدة مادية — تكنيكية عالية التطور ، وعلاقات اجتماعية راقية لاناس متحررين من الاستغلال ، وثقافة روحية غنية ، ومستوى وعي رفيع لدى الناس . ونظراً لأن جميع هذه المقدمات تخلق في ظل الاشتراكية فقط ، لا يمكن تجاوز الطور الاشتراكي في التطور ، أي لا يمكن القيام بقفزة من الرأسمالية إلى الشيوعية . كتب لينين يقول : « لا يمكن للبشرية ان تنتقل من الرأسمالية مباشرة إلا إلى الاشتراكية أي نحو الملكية العامة لوسائل الانتاج وتوزيع المنتجات حسب العمل » [1] .

ذلك ان الاشتراكيــة كطور خاص في تطور المجتمع ، حتمية وكما لا يمكن أن تنمو عن البذرة سنبلة مباشرة ، بل نبتة ، فكذلك لا يمكن أن ينمو عن الرأسمالية بصورة مباشرة غير الاشتراكية . ان الاشتراكية هي النبتة التي تنمو فوقها السنابل الرائعة لتطور المجتمع الشيوعي .

ولننتقل الآن إلى بحث خصائص المجتمع الاشتراكي . وسنبدأ بتنظيمه الاقتصادي .

اقتصاد الاشتراكية

يقف في أساس اقتصاد الاشتراكية الملكية الاجتماعية الاشتراكية ، التي تتجاوب مع الطابع الاجتماعي . ان الملكية الاجتماعية في الاتحاد السوفييتي وفي أكثرية البلدان الاشتراكيــة الأخرى توجد بشكلين : ملكية الشعب بأسره والملكية التعاونيــة . الأولى تتكون نتيجة التأميم الاشتراكي وتعود للشعب كله وتتكون الثانيــة نتيجة اشاعة التعاونية في الانتاج وتعود إلى مجموعة من الناس ، يؤلفون هذه التعاونية أو تلك . ان ملكية الشعب

---

١ لينين — المؤلفات ، ج ٢٤ ، ص ٧٠ .

بأسره تشغل وضعاً قيادياً في الاقتصاد الاشتراكي ، ذلك لأنها أولاً : تشمل الفروع الحاسمة في الاقتصاد (الصناعة الثقيلة ، الطاقة ، النقل .. الخ) وثانياً لأنها تفوق الملكية التعاونية من حيث درجة تطور وسائل الانتاج واجتماعيتها .

وبالتالي فانه يوجد لشكلي الملكية الاجتماعية نوعان للاستثمارات الاشتراكية : مؤسسات حكومية (معامل ، مصانع ، مزارع حكومية « سوفخوزات » .. الخ) ومؤسسات تعاونية (جمعيات تعاونية للفلاحين « كولخوزات » والحرفيين والمنتجين البيتيين) . وهذان النوعان من الاستثمارات ، وكذلك الاستثمارات في كل نوع مرتبطة فيما بينها بالعلاقات البضاعية النقدية التي توجه بالضرورة في المجتمع الاشتراكي .

ان الملكية الاجتماعية في الاشتراكية تزيل انقسام الناس إلى مسيطرين وخاضعين ، وتزيل استغلال الانسان للانسان ، وتوطد علاقات الانتاج القائمة على التعاون الرفاقي والمساعدة المتبادلة بين الشغيلة .

ومن واقع سيطرة الملكية الاشتراكية ، وكون وسائل الانتاج وبالتالي منتجاته ، أي جميع القيم المادية والروحية تعود إلى الشعب ، ينبثق الهدف الانساني العميق للانتاج الاشتراكي : التأمين الأكمل فالأكمل لحاجات الشغيلة المتنامية المادية والثقافية . ان هذا الهدف يتعارض كلياً مع هدف الانتاج الرأسمالي الذي يستهدف الحصول على أقصى الأرباح . ففي الوقت الذي لا يهتم فيه الرأسمالي بما ينتج — قنبلة ذرية أم مواد غذائية — ما دام ما ينتجه يحقق له ربحاً عالياً ، فإن الانتاج الاشتراكي يتم ليس من أجل اغناء جماعة من ذوي الامتيازات ، وإنما لتأمين حاجات الناس .

ان السلطة السوفييتية في الاتحاد السوفييتي التي لم يمض على وجودها أكثر من نصف قرن ، عملت الكثير من أجل الشعب ، من أجل أناس العمل البسطاء . ويكفي ان نذكر ان الدخول الحقيقية للعمال عام ١٩٦٣ قد

زادت عما كانت عليه قبل الثورة ٩ر٥ مرات . أما الفلاحون فقد زادت دخولهم أكثر من ٧ مرات . وقد تم بناء واسع للمساكن . وفي عام ١٩٦٥ احتوت المساكن الجديدة عشرة ملايين وخمسمائة ألف نسمة .

حقاً ان الانتاج الاشتراكي لم يستطع حتى الآن أن يضمن وفرة من وسائل الحياة ولا ان يؤمن كلياً حاجات جميع أعضاء المجتمع . فعلى أساس الملكية الاشتراكية والمستوى المحقق في تطور الانتاج يقوم المبدأ الاشتراكي في التوزيع : « من كل حسب كفاءته ولكل حسب عمله . » « من لا يعمل (إذا كان قادراً على العمل طبعاً) لا يأكل » — ذلك هو القانون الثابت للاشتراكية .

ان جميع أعضاء المجتمع يتحملون واجبات متساوية في ان يعملوا ، ويتمتعون بحقوق متساوية في أن يكسبوا من المجتمع تبعاً لكمية ونوعية العمل الذي بذلوه . ان المبدأ الاشتراكي للتوزيع يلغي انقسام الناس إلى مجموعة صغيرة متحررة من واجبها أن تعمل ولكنها متمتعة بجميع خيرات الحياة ، وغالبية عظمى محكومة بالعمل المرهق الذي غالباً ما يعجز عن أن يؤمن لها الحياة اللائقة . هذا الانقسام الذي يلازم جميع المجتمعات القائمة على الاستغلال .

ان مبدأ التوزيع حسب العمل طبيعي وضروري للاشتراكية . انه يضمن المصلحة المادية الشخصية للعامل في نتاج عمله ، وهي محفز هام جداً للانتاج الاشتراكي . في الاشتراكية من يعمل أكثر وأحسن يكسب أكثر . وان هذه الطريقة في دفع أجور العمل تخلق لدى العامل مصلحة مادية في أن يرفع من كفاءته وان يساهم بفعالية أكبر في الانتاج ويزيد كميته ويرفع نوعية منتجاته .

ورغم أن جميع أعضاء المجتمع في الاشتراكية لهم حقوق وواجبات واحدة في أن يعملوا وحقوقاً متساوية في ان يكسبوا تبعاً لما بذلوه من

عمل . فان المجتمع الاشتراكي لا يضمن المساواة التامة اقتصادياً بين الناس .

في ظروف الاشتراكية يحصل كل منتج منفرد من المجتمع بمقدار ما يعطي للمجتمع باستثناء ذلك الجزء الذي يذهب للأرصدة الاجتماعية . ففي الاشتراكية لا توجد لامساواة طبقية ، ولكن يظل هناك لامساواة فيما يحصل عليه كل عضو منفرد في المجتمع من المنتجات عند التوزيع . ومن السهل ملاحظة ان مبدأ الدفع المتساوي عن العمل المتساوي في الاشتراكية هو تطبيق لمعيار واحد لأناس مختلفين . وما دام لدى الناس كفاءات مختلفة وقابليات غير متكافئة وتركيب مختلف في العائلة ، فانهم لا يحصلون على دخول متساوية عند تطبيق مبدأ الدفع حسب العمل . وهذا حتمي في الطور الأول من المجتمع الجديد : في هذه المرحلة حيث لم يصل المجتمع إلى الوفرة الكاملة من حاجيات الاستهلاك ، وحيث لا يملك جميع أعضائه الوعي العالي الكافي . ان الدخول في الاشتراكية يجب أن لا تتساوى لأن مثل هذا الأمر سيكون خرقاً لمبدأ التوزيع الاشتراكي واضعافاً للحوافز المادية للعمل .

ومن الخطأ ، طبعاً ، التفكير بأن التنظيم الاقتصادي للمجتمع الاشتراكي إنما هو تنظيم نموذجي ، وان تكوينه وتطوره يجري بسهولة ودون مصاعب وآلام . ذلك ان تطور الاقتصاد الاشتراكي يجابه مصاعب وتناقضات هي قبل كل شيء ذات طابع موضوعي . وينبغي عدم نسيان أن بناء المجتمع الجديد في الاتحاد السوفييتي (وكذلك الحال في أكثرية البلدان الاشتراكية الأخرى) كان قد بدأ من مستوى انتاج متدن ، وان شعوب بلادنا بذلت جهداً كبيراً ووقتاً كثيراً في الكفاح المسلح ضد الأعداء الداخليين والخارجيين ، لاعادة بناء الاقتصاد الذي خربته الحرب . ولا يمكن إلا أن نأخذ بعين الاعتبار عدم كفاية الموارد المادية والمالية والكوادر

الاختصاصية وانعدام التجربة في بناء المجتمع الجديد .

وقد حدثت أخطاء جدية وتجاوزات ذات طابع ذاتي ، ارتبطت على وجه الخصوص بعبادة الفرد التي أثرت بصورة سلبية على تطور الاقتصاد وكل العلاقات الاجتماعية .

يقال ان الحقيقة يجري التوصل اليها عن طريق المقارنة ، وهذا بشكل عام أمر صائب . ولكن المصيبة هي أنه عند مقارنة نجاحات الاقتصاد في الاشتراكية ، في الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية مثلاً ، يأخذون بنظر الاعتبار الأرقام المجردة فقط . وطبيعي فاننا إذا ما اعتمدنا معطيات الأرقام فقط عن مستوى تطور الانتاج وانتاجية العمل وعن رخاء جزء معين من شغيلة الولايات المتحدة الأمريكية وكونه أكثر مما هو في الاتحاد السوفييتي ، يمكن أن نصل إلى استنتاجات ليست في صالح الاشتراكية . ولكن هل يمكن حقاً أن نتجاهل مثلاً واقع ان الرأسمالية قد تطورت في أمريكا دون عقبات خلال قرنين من الزمن تقريباً لم يطأ فيها جندي عدو واحد أرض أمريكا الشمالية وأن أية معدات لم تدمر هناك بسبب قنبلة معادية أو طلقة ؟ وأكثر من هذا فإن الرأسماليين الأمريكان قد كدسوا الأرباح من الحرب وحولوا دماء الناس العاديين إلى مجاري من الذهب تصب في خزائنهم التي لا قرار لها .

ولذا فعند مقارنة اقتصاد الاشتراكية بالرأسمالية يجب أن لا ننسى من ماذا بدأت الاشتراكية وفي أية ظروف نشأت ومنذ متى وجدت ، وما هي آفاق تطورها . وإذا ما أخذنا كل هذا بنظر الاعتبار فإن المقارنة سوف لن تكون في صالح الرأسمالية .

مثلاً ، لقد انتجت روسيا عام ١٩١٣ بالكاد ١٢,٥٪ مما كانت تنتجه الولايات المتحدة الأمريكية . وانه نتيجة الحرب العالمية الأولى والحرب الأهلية فإن الصناعة الروسية كانت قد تحطمت كلياً . وفي عام ١٩٦٥ زاد

انتاج صناعة الاتحاد السوفييتي عن ٦٢٪ بالمقارنة مع انتاج امريكا الذي زاد بصورة ملحوظة . ومن المعلوم ان هذا النجاح الهائل كان قد تحقق في مدة تزيد قليلاً عن ثلاثين سنة من البناء السلمي ! ..

ان بلادنا الزراعية المتأخرة أصبحت ، تحت علم الاشتراكية ، ثاني دولة صناعية في العالم ، دولة ذات مستوى علمي وتكنيكي وثقافي عال، دولة ذات علاقات اجتماعية متقدمة جداً . وليس من قبيل الصدفة مطلقاً ان بلد الاشتراكية الأول في العالم هو أول بلد أطلق قمراً صناعياً للدوران حول الأرض ، وأول مركبة فضائية تحمل انساناً ، وأول تابع يدور حول القمر . وينبغي أن لا ننسى في هذا الصدد ان البلاد السوفييتية عندما تبني الاشتراكية فإنها لا تزال في بداية المجتمع الشيوعي .

التركيب الطبقي للمجتمع الاشتراكي

ان التركيب الطبقي للمجتمع طرأت عليه تغيرات جذرية عند بناء الاشتراكية . فلقد صفيت الطبقات المستغِلة في المدينة والقرية . وازيل التضاد بين المدينة والقرية . ذلك ان شغيلة المدن والريف المتحرزين من الاستغلال صاروا يعملون لأنفسهم ، ولمجتمعهم ، ويمتلكون الحق في أن يكسبوا من عملهم تبعاً لكميته ونوعيته . وقد جرى التغلب على التضاد بين شغيلة العمل الفكري والعمل الجسدي ، ذلك أن المثقفين صاروا يعملون يداً بيد مع الفلاحين والعمال لصالح القضية العامة ، قضية الاشتراكية .

ففي الاتحاد السوفييتي مثلاً صفيت الطبقات المستغِلة كلياً منذ عام ١٩٣٧ عندما كانت الاشتراكية قد بنيت من حيث الخطوط الأساسية . وآنئذ كان ٣٦,٢٪ من سكان البلاد عمالاً ومستخدمين و ٥٧,٩٪ فلاحين تعاونيين وحرفيين و ٥,٩٪ فلاحين منفردين وحرفيين تعاونيين .

وفي عام ١٩٦٣ كانت نسبة الأخيرين ١و٠٪ (أي واحد بالألف) وبالتالي بقي في الاتحاد السوفييتي طبقتان متآخيتان : الطبقة العاملة والفلاحون التعاونيون وكذلك المثقفون الشغيلة وقد تبدلت بصورة جذرية في عهد السلطة السوفييتية .

ان الطبقة العاملة لم تعد تلك البروليتاريا المستغَلة العديمة الحقوق في ظل الرأسمالية . فهي تسيطر مع الشعب كله على وسائل الانتاج وتمثل المالك الحقيقي لبلادها . ونظراً لأنها ظلت الطبقة الأكثر تنظيماً ووعياً وتحمل في ذاتها علاقات التعاون الرفاقية والمساعدة المتبادلة تلعب الطبقة العاملة في الاشتراكية الدور القيادي في المجتمع .

ان اشاعة التعاونية في الزراعة والثورة الثقافية فيه بدلتا الفلاحين السوفييت بصورة تامة . فقد تحولوا من طبقة مجزأة ، مرهقة مستغَلة من الملاكين العقاريين والكولاك إلى طبقة حرة حقاً تعمل في زراعة كبيرة ممكننة .

ان العمل المشترك لخير الوطن حطم عزلة الفلاح الطويلة وساعد على التغلب على نفسية الملكية الضيقة وفي خلق شعور الجماعية والصداقة والروح الرفاقية لدى الفلاح . وقد ارتفعت ثقافة الفلاحين السوفييت . ان الاستخدام الواسع للتكنيك الراقي سبب ظهور الكوادر الاختصاصية في الريف من الميكانيكيين الذين لا يختلف عملهم بشيء تقريباً عن عمل العمال .

وقد جرت تغيرات هائلة على المثقفين في البلاد السوفييتية . ان المثقفين السوفيت هم مثقفون حقاً ، تخرج غالبية ممثليهم من أوساط الطبقة العاملة والفلاحين وهم يخدمون الشعب باخلاص وتفان لأنهم خرجوا من صلبه . وفي سنوات السلطة السوفييتية زادت صفوف المثقفين بصورة كبيرة . ويكفي ان نذكر أن شغيلة العمل الفكري في الاتحاد السوفييتي في بداية عام ١٩٦٦ كان يربو عددهم على الخمسة وعشرين مليون انسان ، أي أكثر من خُمس السكان العاملين . ان ملايين المعلمين ورجال البحث العلمي والأطباء

والمهندسين والتكنيكيين والحقوقين والماليين وغيرهم من الاختصاصين يعملون من أجل خير الشعب السوفييتي .

ان الاشتراكية قضت على علاقات السيطرة والخضوع الطبقية .

وإن جميع أعضاء المجتمع تربطهم علاقات واحدة تجاه وسائل الانتاج وهذه العلاقات تلغي امكانية الاستغلال والاستحواذ على عمل الغير.

تتولد في المجتمع الاشتراكي - وبصورة مستمرة دون انقطاع - عناصر رأسمالية جديدة كلصوص القطاع العام الاشتراكي ومختلسي أموال الدولة والموضفين الفاسدين. وتنشأ هذه العناصر الرأسمالية الجديدة في كنف الحزب الشيوعي والدولة البروليتارية بالذات، منبثقة من البيروقراطية والإنتهازية. هذه العناصر تكون طبقة رأسمالية جديدة تعمل، وكما أثبتت التجربة التاريخية لإنهيار الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي السابق والصين الشعبية وغيرها من البلدان الاشتراكية السابقة، على تخريب البناء الاشتراكي من داخله بهدف القظاء على الاشتراكية وإعادة الرأسمالية. لذا فان المجتمع الاشتراكي هو مجتمع طبقي ويستمر الصراع الطبقي فيه، لذا ينبغي مواصلة الثورة خلال الاشتراكية في ظل دكتاتورية البروليتاريا حتى قيام الشيوعية. - ملاحظة الصوت الشيوعي

ان المجتمع الاشتراكي لا يكتفي باعلان حقوق مواطنيه وإنما يضمن تحقيق هـــذه الحقوق . فهو يعطي المواطنين بصرف النظر عن منشئهم ومهنتهم وجنسهم وقوميتهم ومعتقداتهم ، الحق في العمل والراحة والتطبب والضمان المادي عند الشيخوخة والمرض أو فقدان القدرة على العمل ، الحق في التعلم . وان الامكانية العملية لكل مواطن بالاستفادة من هذه الحقوق مضمونة بالقانون وموفرة بالتنامي المستمر لقدرة اقتصاد الدولة الاشتراكية . وتعطي لمواطني المجتمع الاشتراكي حرية الكلام والصحافة والاجتماع وتنظيم المواكب والمظاهرات والحق في الاتحاد في منظمات اجتماعية وتضمن حرمة الأشخاص والمساكن وسرية المراسلات .

وللمرأة حقوق مساويـــة للرجل في جميع ميادين الحياة الحكوميـــة والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية . فلها حقوق مساوية للرجل في العمل والراحة والتعليم والأجور . وتقوم الدولة بحماية مصالح الأم والطفل وتقدم مساعدات مالية للأمهات كثيرات الأطفال وتعطي المرأة لدى الحمل وبعد الولادة اجازة طويلة مدفوعة الأجر .

وبتطوير المجتمع الاشتراكي تتطور الديمقراطية الاشتراكية الأمر الذي يجد تعبيره في ارتفاع دور أجهزة السلطة الشعبية التمثيلية المنتخبة

ان ادارة الدولة تتحول تدريجياً إلى

ادارة ذاتية اجتماعية .

ان مظهراً هاماً لهذه العملية وتعبيراً ملموساً عن تطور الديمقراطيـــة الاشتراكية هو اتساع وتوطد القاعدة الاجتماعية لدكتاتورية البروليتاريا

ان الطبقة العاملة في

الاشتراكية هي طبقة مسيطرة وقائدة في نفس الوقت .

وبناء الشيوعية فإنها تحتفظ بدورها القيادي في المجتمع .

لماذا تظل الطبقة العاملة القوة القائدة في المجتمع الاشتراكي ؟ قبل كل شيء لأن الطبقة العاملة تعمل في الصناعة التي هي أساس الاقتصاد الوطني كله ، ولأن عملها يستند إلى الشكل القائد الأكثر تطوراً في الملكيـــة الاشتراكية ، ملكية الدولة ، ملكية الشعب بأسره . وتمتلك الطبقة العاملة تقاليد ثورية غنية فقد تصلبت في المعارك الضارية ضد رأس المال وتحمل بثبات الأيديولوجيا الاشتراكية . إنها الطبقة الأكثر عدداً ، والمنظمة تنظيماً جيداً وذات ضبط رفيع ، أي انها تمثل القوة الاجتماعية الأكثر تقدمية في المجتمع السوفييتي . ان الطبقة العاملة ستنهي دورها القيادي في المجتمع فقط عند بناء الشيوعية وبزوال الطبقات كلياً .

إن الطبقة العاملة كسبت سمعة عظيمة واحتراماً كبيرا في النضال البطـــولي ضد المستغلين وفي العمل المتفاني من أجل ظفر الاشتراكية . وهي تنفذ في مجرى بناء الشيوعية دورها النبيل باعتبارها المناضل الأكثر ثباتـاً والأكثر تنظيماً

إن تحالف العمال

والفلاحين الذي هو القاعدة الاجتماعية للدولة يبقى ويتوطد ، ويبقى ويتعاظم دور الطبقة العاملة وتبقى وتتحسن وتزدهر الديمقراطية الاشتراكية البروليتارية .

ان الدولة في الاشتراكية تقود العمليات الاجتماعية والحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية في البلاد . ومن
الطبيعي ان تتخذ ضد خارقي القوانين الاشتراكية. والعناصر المعادية للمجتمع التي يمكن أن توجد في الاشتراكية اجراءات معينة للقسر والضغط .

ان الوظائف الداخلية للدولة كجهاز للحكم تكمن في تنظيم خلق القاعدة المادية – التكنيكية للشيوعية وإعادة صياغة العلاقات الاشتراكية وتطويرها إلى علاقات شيوعية وفرض رقابة على معايير العمل والاستهلاك وضمان الارتفاع برخاء الشعب والدفاع عن حقوق وحريات المواطنين السوفييت والنظام القانوني الاشتراكي والملكية الاشتراكية ، وتثقيف الجماهير الشعبية بروح الضبط الواعي والموقف الشيوعي تجاه العمل .

وفي ميدان السياسة الخارجية تهتم الدولة بتوطيد وحدة وتلاحم الدول الاشتراكية وتطوير التعاون الأخوي فيما بينها . إنها تقوم بأداء دورها الأممي تجاه الطبقة العاملة العالمية وتجاه جميع شعوب العالم بابداء المساعدة

المتعددة النواحي لنضال البروليتاريا الثوري في البلدان الرأسمالية المتطورة ، نضال الشعوب في البلدان النامية المتحررة من نير الكولونياليـــة وكذلك للشعوب المناضلة من أجل تحررها الوطني . وتبدي الدولة الاشتراكية اهتماماً بالغاً لصيانة السلم العالمي وإقامة علاقات طبيعية بين الدول . وتأخذ بنظر الاعتبار في نفس الوقت خطر هجوم القوى الاستعمارية فتهتم بتعزيز القدرة الدفاعية للبلاد ولكامل النظام الاشتراكي .

أن لينين قد عمل وفكر طويلاً في السنوات الأخيرة من حياته بموضوع التوفيق بين المركزية والديمقراطيـــة ، وكيف تتم الحيلولة بين

مركزة السلطة في يدي شخص ما ، وسوء استعمال السلطة . وفي هذه السنوات بالذات طور لينين بصورة شاملة قضايا المركزية الديمقراطية ، وجماعية القيادة ، وتنظيم الرقابة الشعبية و .. الخ .

الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي طليعة البروليتاريا

إن . تطور التنظيم السياسي في ظروف البناء الاشتراكي يرتبط بشكل وثيق بنشاط الحــزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي القوة القائدة والموجه للمجتمع السوفييتي .

إن الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ، كما ورد في نظامه الداخلي ، هو طليعة للبروليتاريا السوفييتية مناضلة ومجربة ، توحد على أساس طوعي الجزء التقدمي الأكثر وعياً من الطبقة العاملة والفلاحين التعاونيين والمثقفين . إن الحزب الشيوعي الذي أسسه لينين قد اجتاز في سنوات حياته التي زادت على السنين طريقاً بطولية مجيدة من المعارك والانتصارات .

فلقد قاد الطبقة العاملة من الفلاحين الكادحين في بلادنا نحو ظفر ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى واقامة دكتاتورية البروليتاريا ، وضمن الانتصار الكامل للاشتراكية .

ونتيجة لهذا

فقد ارتفعت سمعة الحزب وتعاظمت الثقة التي لا حدود لها به من جانب الشعب السوفييتي .

إن صفوف الحزب تضم حوالي ١٢,٥ مليــون عضو شيوعي ، وهم الممثلون الأكثر تقدماً ووعياً للطبقة العاملة ولكل الشغيلة . ان الجزء الأعظم من أعضاء الحزب هم من العمال والفلاحين التعاونيين (الكولخوزيين) وبهذا تحتل الطبقة العاملة وضعاً قيادياً في تركيب الحزب الاجتماعي ، وهي مدعوة لأن تحتل هذا الوضع في المستقبل أيضاً . ان الحزب يمثل تنظيماً سياسياً أممياً ، يعبر عن الصداقة والأخوة بين شعوب الاتحاد السوفييتي . وتضم صفوفه ممثلي جميع الشعوب التي تعيش في وطننا السوفييتي .

ان كامل سياسة الحزب ونشاطه سواء داخل البلاد أو خارجها يخضعان لمصالح العمال ولأكثر مطامحهم وآمالهم الصميمية .

إن الحزب عقل وشرف

وضمير عصرنا وشعبنا السوفييتي الذي أنجز التحولات الاجتماعية العظيمة .

إن الحزب الشيوعي إذ يقود المجتمع والعمل البناء العظيم للجماهير ، يتجه بثاقب بصره نحو المستقبل موجهاً الجماهير في طريق التقدم إلى أمام مثيراً لدى الجماهير الشعبية مبادراتها الخلاقة . وفي وحدة الحزب والجماهير

وفي القيادة اللينينية للحزب الشيوعي وفي نشاطه التنظيمي والتوجيهي تكمن القوة التي لا تقهر للنظام الاشتراكي .

الثقافة الروحية للاشتراكية

نتيجة للثورة الثقافية التي حققت على أساس إعادة بناء الاقتصاد والعلاقات الاجتماعية – السياسية على أسس اشتراكية انبثقت ثقافة اشتراكية جديدة نوعياً . إنها مجموع منجزات المجتمع الاشتراكي في حقول العلم والفن والأدب والتعليم والتثقيف والسلوك و ... الخ .

وسنتحدث فيما بعد عن عناصر الثقافة هذه وعن مكانتها في المجتمع الاشتراكي المتطور وعن دورها في تكوين الإنسان المتطور من جميع النواحي .

ان الاشتراكية تخلق

ثقافة في متناول جميع الشغيلة : العمال والفلاحين والمثقفين . ثقافة اشتراكية أممية من حيث المحتوى ، تستهدف توطيد وتطوير الاشتراكية والصداقة والتعاون بين شغيلة جميع القوميات . ثقافة وطنية من حيث الشكل (من حيث اللغة وطرق التعبير عن المحتوى) الأمر الذي يجعلها قريبة ومفهومة من قبل كل الشعوب كبيرها وصغيرها ، ويسهل تناول الشعب للمنجزات الثقافية للشعوب الأخرى ، ويساعد على اغناء الثقافات الوطنية وتطوير الثقافة الأممية العامة لكل الشعوب .

إن الأساس الفكري للثقافة الاشتراكية هو الماركسية اللينينية – وجهة النظر العلمية الوحيدة التي تساعد على ازدهار الثقافة وتضعها في خدمة القضية العظمى – قضية الاشتراكية .

ان ايديولوجيي الرأسمالية كثيراً ما يتحدثون عن الثقافة وحضارة المجتمع القريبتين إلى قلوبهم وعن أفضليات الثقافة الرأسمالية على الاشتراكية . وبهذا الصدد غالباً ما يتحدثون عن ثقافة المعيشة و « الخدمة » المشهورة (السرفيس)[1] المتطورة في البلدان الرأسمالية بدرجة لم تصل اليها البلدان الاشتراكية .

ما من شك في أن الخدمة المعيشية ليست دليلاً قليل الأهمية على ثقافة المجتمع ، ويجب أن لا تهمل مطلقاً ، كما حصل عندنا في أحيان كثيرة مع الأسف . ولكن الدليل الرئيسي على مستوى التطور الثقافي للمجتمع ليس « الخدمة » (السرفيس) وإنما إلى أي درجة جرت السيطرة على قوى الطبيعة والمجتمع ولأي درجة تخدم الثقافة الانسان ولأي درجة هي في خدمة الجماهير الشعبية الواسعة . وفي هذا بالضبط ، أي في الأمر الرئيسي ، فإن الثقافة الاشتراكية قد فاقت ثقافة المجتمع البورجوازي .

ان منجزات الثقافة في الرأسمالية هي في متناول أقلية من أصحاب الامتيازات . بينما هي في الاشتراكية في متناول كل أناس العمل . حيث تنفتح أمام كل عضو في المجتمع الاشتراكي امكانيات واسعة لتحصيل العلم والفن والارتقاء بمواهبه وقابلياته . اما في المجتمع الرأسمالي فإن هذه الامكانيات محدودة ، ذلك ان احتكار النشاط الخلاق يعود للطبقات المسيطرة . ان الثقافة الاشتراكية بجوهرها وبطبيعتها الداخلية ذات انسانية عميقة انها تخلق لانسان العمل وهي في الوقت نفسه وسيلة هامة لارتقائه الثقافي وتخدم المثل الانسانية الحقيقية الرفيعة .

---

[1] المقصود الخدمة في المطاعم والفنادق والمخازن وغيرها من المحلات العامة (المترجم) .

الاشتراكية والفرد

يحدث في الرأسمالية ازدواج في الشخصية – شخصية المستغل وشخصية الشغيل . ان شخصية الشغيل محرومة من امكانية التمتع بجميع خيرات الحياة ومن جميع منجزات الثقافة المادية والروحية ، وهي محدودية الامكانيات للتطور والارتقاء . وفي الوقت نفسه ففي عمل هذه الشخصية ونضالها ضد الاستغلال تتكون المزايا الانسانية الحقيقية : الروح الجماعية والتنظيم والضبط والرجولة والصلابة والترفع عن كل ما يشين الانسان ويحطه .

وبكلمة أخرى تتكون في الرأسمالية مقدمات تكوّن الشخصية الجديدة ، الاشتراكية ، وتتكون أيضاً بعض ملامحها وخصائصها .

ويشتد في الرأسمالية إلى أقصى درجة التناقض بين الفرد والمجتمع ، الناشيء عن انقسام المجتمع إلى طبقات ، التناقض الذي يجري التغلب عليه فقط نتيجة الثورة الاشتراكية ، وانتصار الاشتراكية . ان الاشتراكية تخلق مقدمات التطور الشامل والتعبير عن مظاهره الحيوية المتنوعة .

ان الاشتراكية إذ تصفي الملكية الخاصة والاستغلال وإذ تضمن حقوقاً سياسية وقانونية وواجبات متساوية بالنسبة لجميع المواطنين فانها تخلق الظروف السياسية لتطور الانسان .

ان فوارق الجنس والعمر والمنشأ ونوع المهنة ، والقومية والعقيدة لا تشكل في الاشتراكية عقبة بوجه النشاط الفعال المبدع لأي شغيل في مختلف نواحي الحياة الاجتماعية . وان الاشتراكية إذ تحرر عمل الانسان وتحوله من عمل لصالح المستغل إلى عمل لصالحه ولصالح مجتمعه فانها تجعل من العمل – بكميته ونوعيته – المعيار الوحيد لقيمة الانسان الاجتماعية والمحدد لمكانته في النظام الاجتماعي . ان العمل المتحرر ، ذا الحافز المادي

المعنوي يصبح أساساً لتطور الانسان والمجال الوحيد المعترف به من قبل المجتمع لإظهار قدراته . إن الإشتراكية تخلق انتاجاً جديداً من حيث النوع ، هدفه الشغيلة واحتياجاتهم ومصالحهم . إن الثقة بأن الإنسان سيجد دوماً تثميناً لقدراته . وان المجتمع ، الإنتاج الإجتماعي ، إذ يستفيد من قدراته يهتم في الوقت نفسه بتلبية احتياجاته ويجعل من كمية العمل ونوعيته معياراً لدرجة تلبية هذه الحاجات ، ان هذه الثقة تحفز شغيلة العمل على تحسين عاداتهم الإنتاجية ومستوى تعليمهم وثقافتهم . ان الإشتراكية إذ تخلق ثقافة روحية جديدة وتضعها والثقافة المادية في خدمة الشغيلة إنما تضمن أفضل الظروف من أجل تطور الإنسان الثقافي وسموه الذاتي .

ونتيجة لهـذا وعلى أساس التحولات العميقة في الإقتصاد والعلاقات الإجتماعية والحياة الثقافية فإن الإشتراكية ليس فقط تصون وتطور وتسمو بالخصال الإنسانية الحقيقية ، التي تولد في شخصية الشغيل في الرأسمالية ، سمواً نوعياً جديداً وإنما تخلق خصالاً جديدة لا وجود لها في شخصية إنسان المجتمع السابق . وبكلمة أخرى فإن انتصار الإشتراكية يخلق شخصية اشتراكية جديدة .

إن خلق الإنسان الجديد ــ المبـدع الحقيقي للتاريخ ، ذي السلطة الكاملة في إدارة شئون المجتمع والمالك الوحيد للقيم المادية والروحية التي يخلقها وخالق العلاقات الإجتماعية الإنسانية الحقيقية الجديدة وحاملها بوعي ــ ان خلق هذا الإنسان هو الإنجاز العظيم للاشتراكية الذي لم يعرف تاريخ البشرية انجازاً آخر بمستواه .

ان الشخصية الإشتراكية تبدو قبل كل شيء كشغيل في الإنتاج الإشتراكي القائم على أساس السيطرة الإجتماعية المشتركة على وسائل الانتاج . وهي تمتاز بفعاليتها في العمل وطموحها للمحافظة على الثروة الاجتماعية ومضاعفتها ، والضبط الجديد في العمل وعلاقات العمل الجديدة ــ علاقات الصداقة

والتعاون مع أشقاء العمل . كما وتتميز الشخصية الاشتراكية أيضاً بخصال روحية سامية كالإخلاص الحقيقي للأفكار الشيوعية والشعور بالأممية والوعي العالي والمسؤولية تجاه المجتمع ، والفعالية الاجتماعية . ان مبادىء الاخلاقية الشيوعية تصبح جزءاً لا يتجزأ من حياة وعمل ومعيشة الشخصية الاشتراكية . كما وتتميز الشخصية الاشتراكية بحياة روحية غنية ومستوى ثقـافي عال وتنوع في الاهتمامات الثقافية وباهتمام عميق بالإبداع العلمي والفني وبطموح نحو التطور والرقي الشامل .

وطبيعي انه من الخطأ الاعتقاد بأن جميع أعضاء المجتمع الاشتراكي يملكون كل هـذه الصفات التي عددناها للشخصية . ذلك اننا لا نزال نصادف هنا مساعي أناس منفردين للابتعاد عن العمل الاجتماعي المفيد ووقائع عن السلبية الاجتماعية والكسل الفكري . وفي الوقت نفسه فإن الصفات التي عددناها هي ملامح نموذجية للشخصية الاشتراكية . اولاً لأن الاشتراكية تخلق امكانية حقيقية لتكون هذه الصفات لدى كل انسان . وثانياً لأن هذه الصفات ملازمة لغالبية أعضاء المجتمع الاشتراكي .

وبانتصار الاشتراكيـة وظهور الشخصية الاشتراكية تتبدل جذرياً ، العلاقة بين المجتمع والفرد . فبدلاً من التناقض بين الفرد والمجتمع في ظروف المجتمعات الطبقية المتناحرة تنبثق الوحدة التقدمية بين الفرد والمجتمع . هذه الوحدة التي تضمن التوفيق بين المصالح الشخصية والاجتماعية . إن مطمح الفرد لتحسين وضعه،في ظروف انعدام الاستغلال وصيرورة العمل واجب الجميع، يتحقق في العمل لخير المجتمع كله .

إن كثيراً من الأمور يمكن أن تميز موقف الفرد تجاه المجتمع وتجاه المصالح الاجتماعية . ولكن ربما يظهر هذا الموقف أكثر ما يكون وضوحاً في دوافع الفعالية في العمل ، في الموقف تجاه العمل . فلقد قرر الباحثون الاجتماعيون في لنينغراد استقصاء مفهوم العمال الشباب عن الأهمية الاجتماعية

للعمل وطلبوا منهم الاجابة عن أي من المفاهيم التالية عن قيمـــة العمل يعبر عن الرأي الشخصي لكل منهم .

الأجوبـــة الايجابيـــة

١ – ان العمل الجيد هو ذلك الذي تقدم فيـــه فائدة أكبر . حيث أنت ضروري .	٦١٧ نسمة (٢٣,٢٪)
٢ – ينبغي عدم نسيان أجور العمل المعين ولكن الأمر الرئيسي هو معنى العمل وفائدته الاجتماعية .	٨٣٠ نسمة (٣١,١٪)
٣ – الأجر هو الأمر الرئيسي ولكن يجب التفكير بمعنى العمل .	٨١٩ نسمة (٣٠,٧٪)
٤ – ان كل عمل أجوره جيدة ، جيد	٣٩٩ نسمة (–,١٥٪)

وهكذا يبدو أن ٨٥٪ من المشاركين في الاستفتاء يربطون عملهم ، بهذا الشكل أو ذاك ، بفائدته الاجتماعية . أليس هذا دليلاً على وحدة المجتمع والفرد في الاشتراكية ، أوليس هذا برهاناً على أن نجاح الفرد هو نجاح للمجتمع الذي ليس له أهداف أخرى غير خدمة مصالح الفرد ، وتأمين حاجاته المختلفة وتطوير قدرته المتنوعة . وهنا ينبغي أن نأخذ بنظر الاعتبار ان في أساس الوحدة بين الفرد والمجتمع تكمن المصالح الاجتماعيـة ومن هنا تنشأ ضرورة خضوع المصالح الشخصية للمصالح الاجتماعية .

ان الوحدة التقدمية بين الفرد والمجتمع هي ميل موضوعي وقانون لتطور الاشتراكية ، ولكن هـــذا الميل لا يظهر كخط مستقيم وبدون تناقضات . ان الوحدة بين الفرد والمجتمع لا تنفي بالمرة التناقض بين

الاثنين . والذي يظهر في واقع ان المجتمع عندما لا يستطيع أن يؤمن حاجات الفرد كلياً يضيق جزئياً تطور الاحتياجات ويضع درجات تلبيتها تبعا لكمية ونوعية العمل ، وان المجتمع لم يحقق بعد المساواة الاقتصادية التامة بين الناس ولم يخلق ظروفاً متساوية للتطور ولاظهار الفعاليات الخلاقة لجميع الناس بدون استثناء . وبالإضافة إلى هذا فإن الفرد لا يعي دوماً ضرورة التوفيق بين مصالحه الشخصية ومصالح المجتمع ، وأحياناً يتوجه للمجتمع بمطالب أنانية جداً ، ونتيجة لهذا تظهر التناقضات بين المجتمع ، أي الجزء الأكبر من أعضائه ، وجزء معين من أعضائه المتأخرين . وبنجاحات البناء الشيوعي يجري التغلب على هذه التناقضات وتتطور الوحدة بين الفرد والمجتمع باتجــاه تحقيق العلاقات المنسجمة بين الاثنين . وفي مجرى الحركة نحو هذا الانسجام يتغير المجتمع والفرد حيث يكون أساس تطور الفرد هو تطور المجتمع وتحوله .

٣ ـ من الاشتراكية الى الشيوعية

خصائص تكون الشيوعية

يتطور المجتمع من الاشتراكية إلى الشيوعية . ولتكوّن الشيوعية بعض الخصائص الأساسية وسنبحثها باختصار .

ان الخاصية الأساسية الأولى لتكون الشيوعية هي أنها خلافاً للاشتراكية ، التي ظهرت على أساس الرأسمالية واحتوت على بقايا منها ، تقوم على أساس خاص ، على أساس الاشتراكية الراسخة المتطورة . ونتيجة لهذا فإن طرق ووسائل إقامة الشيوعية تختلف عما كانت عليه في الاشتراكية .

فالاشتراكية قامت نتيجة للثورة الاشتراكية وعلى أساس إعادة بناء الأسس الاقتصادية والسياسية والثقافية للرأسمالية . ولقيام الشيوعية لا حاجة لثورة . ان الشيوعيـــة تتطور بصورة مباشرة عن الاشتراكية عن طريق تطوير وتحسين الاقتصاد والعلاقات الاجتماعية والثقافية .

ان القاعدة المادية ــ التكنيكية للشيوعيـــة تقوم على أساس الانتاج الاشتراكي ، وعن طريق تطوره المبرمج وتحسينه . وان الملكية الشيوعية الموحدة هي نتيجة التطور والاندماج التدريجي بين شكلي الاشتراكية ــ الحكومية والتعاونية . وتنشأ الادارة الذاتية الشيوعية من دولة الشعب بأسره الاشتراكية و .. الخ .

ونظراً لوجود فوارق نوعية جدية بين الاشتراكية والشيوعية ، فمن الطبيعي ان تختفي ملامح معينة من المجتمع الاشتراكي ، في مجرى بنـــاء الشيوعية ، تاركة مكانها لملامح جديدة ، ملامح شيوعية . ولكن نفس عملية نفي ما هو اشتراكي من قبل ما هو شيوعي يمكن ان تتم فقط عن طريق توطيد المبادىء الاشتراكية والاستفادة من كل الامكانيات اللازمة لهذه المبادىء . فالمبدأ الشيوعي للتوزيع حسب الحاجات ، مثلاً يمكن ان يمر فقط عن طريق التطوير الشامل والاستفادة من المبدأ الاشتراكي للتوزيع حسب العمل . وفقط ، عندما يستنفد هذا المبدأ كل امكانياته ، يصبح ليس فقط غير ضروري بل وغير ممكن أيضاً .

ومنذ المجتمع الاشتراكي يوجـــد الكثير من ملامح الشيوعية ظاهرة وملحوظة . حيث تتطور أكثر فأكثر الأشكال الشيوعيـــة للعمل وتنظيم الانتاج والأشكال الاجتماعية لتأمين الحاجات المادية والثقافية للشغيلة . ان هذه الملامح الجديدة تنمو وتتسع في السير نحو الشيوعية ، وتزيـح عن طريقها كل ما يعيق التطور التقدمي للمجتمع .

والخاصية الأساسية الثانية لتكوّن الشيوعية هي ان الانتقال نحو الطور الثاني من المجتمع الجديد يتم تدريجياً ، خطوة فخطوة ودرجة بعد درجة . ان الاشتراكية لا تتحول إلى الشيوعية مرة واحـــدة وككل وإنما جزءاً جزءاً ، حيث تضمحل عناصر الاشتراكية تدريجياً لتحل محلها تدريجياً أيضاً عناصر المجتمع الشيوعي .

وكذلك الانتقال إلى المبدأ الشيوعي للتوزيع حسب الحاجات والادارة الذاتية الشيوعية والمجتمع اللاطبقي و .. الخ حيث تتم بصورة تدريجية أيضاً .

ان الانتقال التدريجي إلى الشيوعية لا ينسجم مع التسرع غير القائم على أساس في تطبيق المبادىء الشيوعية . ان الأشكال الجديدة للحيــاة الاقتصادية والبناء الاجتماعي والمعيشة تترسخ هنا بصورة مبرمجة وبصورة مستمرة عن طريق نضوج المقدمات الضرورية المادية والثقافية .

ان الطابع التدريجي للانتقال إلى الشيوعية إنما هو قانون ناشىء عن طبيعة النظام الاشتراكي نفسه .

ان النشاط الواعي المبرمج للحزب والدولة يضمن ظهور التناقضات التي تنبثق عن هذا السير بصورة اعتيادية ، وحلها في الوقت المناسب . ويجري بهذه الصورة استبعاد الهزات الاجتماعية ، والانقلابات المفاجئة في حياة المجتمع ويتخذ التطور طابع التدريج دون انقطاع أو هبوط — كما يحصل في الرأسمالية .

ان التدرج لا يعني بالمرة بطء التطور . على العكس فإن الانتقال إلى الشيوعية يمثل عملية تطور اقتصادي وثقافي سريع جداً مرتبطة بنجاحات البناء الشيوعي الذي تشارك فيه أعداد أكبر فأكبر من الشغيلة .

ان بناء المجتمع الشيوعي يتطلب حل ثلاث مهام : أولاً خلق القاعدة المادية والتكنيكية للشيوعية ، وثانياً صياغة العلاقات الاجتماعية الشيوعية ،

وثالثاً تربية الانسان الجديد – ذي الوعي العالي باني الشيوعية ومواطن المجتمع الشيوعي . هذه المهمات الثلاث مترابطة بشكل وثيق فيما بينها . انها تمثل نواحي مختلفة للعملية الموحدة ، عملية تحويل المجتمع الاشتراكي إلى مجتمع شيوعي .

الفهرس

الفصل الثاني

طابع العصر الراهن : تحول النظام الاشتراكي الى عامل حاسم في التطور العالمي

الفصل الثالث

الرأسمالية المعاصرة وحركة الطبقة العاملة الثورية

الفصل الرابع

الثورات الوطنية التحررية

الفصل الخامس

العملية الثورية العالمية والتعايش السلمي

الفصل السادس

الاشتراكية ، الطور الأول في المجتمع الشيوعي



الثمن ٨ ل.ل.